

السيرة النبوية في كتابات المستشرقين

(دراسة تطبيقية على المدرسة الإنجليزية)

تأليف

الدكتورة / سهيلة زين العابدين حمّاد

الدور المكّي في كتابات مستشرفي

المدرسة الإنجليزية

(الجزء الثاني)

النسخة الالكترونية الأولى

1444هـ / 2022م

السيرة النبوية في كتابات المستشرقين

دراسة تطبيقية على المدرسة الإنجليزية

تأليف

الدكتورة / سهيلة زين العابدين حماد

الجزء الثاني

الدور المكمل في كتابات مستشقي المدرسة

الإنجليزية

النسخة الإلكترونية

1444هـ / 2022م

فهرس الموضوعات

1	الجزء الثاني
1	الدور المكى فى كتابات مستشرقى المدرسة الإنجليزية
2	فهرس الموضوعات
6	تعريف بالكتاب بأجزائه الأربعة
8	الباب الرابع
8	الدور المكى فى كتابات مستشرقى المدرسة الإنجليزية
9	الفصل الأول
9	مكة المكرمة قبل مولد الرسول صلى الله عليه وسلم
10	تمهيد
13	مكة المكرمة قبيل مولده عليه الصلاة والسلام فى كتابات بعض مستشرقى المدرسة الإنجليزية
13	وليم موير
15	الفريد جيوم
16	أرنولد توينبى
17	هاملتون جيب
21	برنارد لويس
23	ر. ف. بولدى
26	الحالة الدينية فى مكة قبل الإسلام
41	الرد على موقف جيوم من قصة أصحاب الفيل
43	موقف وات من قصة أصحاب الفيل
46	الفصل الثانى
46	دعوى نفى البشارة بنبى الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم
47	دعوى نفى البشارة بنبى الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم
47	أولاً: البشارات من التوراة
56	أوصاف النبى الآتى من بنى إسماعيل فى التوراة
57	ثانياً: البشارة بالنبى محمد صلى الله عليه وسلم فى العهد الجديد "الأناجيل"
61	إرهاصات النبوة
63	الفصل الثالث
63	موقف المدرسة الاستشراقية الإنجليزية من السيرة النبوية من المولد إلى البعثة
	موقف مؤرخى أوروبا فى العصور الوسطى من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم من مولده إلى
64	مبعثه

موقف مستشريقي المدرسة الإنجليزية من السيرة النبوية في دورها المكي من الميلاد إلى البعثة 69	وليم موير
69.....	رأى موير في عام مولد الرسول صلى الله عليه وسلم
70.....	رأى موير في اسم الرسول صلى الله عليه وسلم
71.....	إنكار موير لحادثة شق الصدر
73....	موقف موير من وفاة أم الرسول صلى الله عليه وسلم وكفالة جده عبد المطلب ثم عمه
73	رأى موير في رحلة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الشام ولقائه ببجيرا
74	أثر سوق عكاظ على الرسول صلى الله عليه وسلم من وجهة نظر موير
76	أخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم وصفاته.....
76	وليم موير ورحلة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الشام للتجارة لحساب السيدة خديجة.....
78	إعادة بناء الكعبة ووضع الرسول صلى الله عليه وسلم الحجر الأسود في مكانه.....
79	إدعاء موير أن زيد بن حارثة وورقة بن نوفل كان لهما تأثير على الرسول صلى الله عليه وسلم بتعليمه المسيحية.....
80	الشبهات التي أثارها وليم موير حول السيرة من المولد إلى المبعث.....
83	موقف مرجليوث من السيرة النبوية من المولد إلى المبعث
86	توماس أرنولد وحديثه عن زواج الرسول صلى الله عليه وسلم من السيدة خديجة
88	مولد الرسول صلى الله عليه وسلم ونشأته الأولى من وجهة نظر الفريد جيوم
89	إنكار الفريد جيوم حادثة شق الصدر
90	نفي جيوم إصابة الرسول صلى الله عليه وسلم بالصرع لیتهمه بالوثني
93	إنكار الفريد جيوم لأمية الرسول صلى الله عليه وسلم.....
94	رحلة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الشام ولقاؤه ببجيرا
96 ...	هاملتون جيب يقرر أنه لا يعرف سوى القليل عن حياة محمد صلى الله عليه وسلم المبكرة
97	وات يثير الشكوك في صحة سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم من المولد إلى المبعث
101.....	برنارد لويس أيضًا يشكك في السيرة من المولد إلى المبعث.....
103.....	موقف بودلي من السيرة النبوية من المولد إلى المبعث.....
104.....	تشكيك بودلي في أمية الرسول صلى الله عليه وسلم.....
105.....	بودلي والتأثيرات اليهودية والمسيحية.....
108.....	شبهات بودلي حول زواج الرسول صلى الله عليه وسلم بالسيدة خديجة رضي الله عنها
109.....	الفصل الرابع.....
109.....	الرد على شبهات المستشرقين حول السيرة من البعثة إلى الهجرة إلى المدينة من خلال مناوهم

110.....	رد شبهات المستشرقين من خلال مناهجهم.....
	موقف أئمة الحديث من حديث الترمذي عن لقائه عليه الصلاة والسلام ببجيرا في رحلته مع
132.....	عمه إلى الشام.....
143.....	الفصل الخامس.....
143.....	موقف المستشرقين الإنجليز من السيرة النبوية من البعثة إلى الهجرة.....
144.....	تمهيد.....
145.....	أولاً : موقف المدرسة الاستشراقية الإنجليزية من الوحي.....
174.....	موقف مستشركي المدرسة الإنجليزية من الدعوة سراً.....
183.....	موقف المدرسة الاستشراقية الإنجليزية من الدعوة جهراً.....
211.....	موقف المدرسة الاستشراقية الإنجليزية من ما يسمى بقصة الغرانيق.....
221.....	موقف مستشركي المدرسة الإنجليزية من السيرة النبوية بعد وفاة السيدة خديجة وأبي طالب.....
222.....	الإسراء والمعراج وموقف المستشرقين منه.....
225.....	موقف مستشركي المدرسة الإنجليزية من بيعة العقبة الثانية.....
225.....	آراء مستشركي المدرسة الإنجليزية في أسباب الهجرة إلى يثرب.....
227.....	الفصل السادس.....
227.....	الرد على شبهات المستشرقين حول السيرة من البعثة إلى الهجرة إلى المدينة من خلال مناهجهم.....
228.....	أولاً: الوحي.....
230.....	موقف المستشرقين من الوحي.....
260.....	الحالة التي يكون عليها الرسول صلى الله عليه وسلم عند نزول الوحي عليه.....
262.....	فترة انقطاع الوحي.....
265.....	الخبر عن إسرافيل وأنه بلغ الوحي ثلاث سنوات.....
266.....	معنى تحنُّث.....
268.....	و . قصة الغرانيق وتأكيد المستشرقين لها مع ضعفها متناً وسنناً.....
270.....	بطلان قصة الغرانيق.....
282.....	بطلان القصة بالقرآن والسنة والمنقول.....
285.....	اضطراب رواية القصة.....
285.....	إنكار القصة لغويًا.....
287.....	بطلان القصة من جهة العقل والنظر.....
290.....	بطلان القصة تاريخياً.....
294.....	ثانياً: هجرة المسلمين إلى الحبشة.....
313.....	الرد على موقف المدرسة الإنجليزية من الإسراء والمعراج.....

- 317..... الرد على إنكار إسلام الجن.....
- 323..... خاتمة الباب الرابع.....
- 324.. أولاً: موقف المستشرقين الإنجليز من وضع مكة المكرمة قبيل مولده عليه الصلاة والسلام..
- 327..... ثانيًا: موقفهم من البشارة ببني الإسلام في التوراة والإنجيل.....
- 327..... ثالثًا: موقفهم من السيرة النبوية من المولد إلى المبعث؛ إذ نجدهم:.....
- 330..... رابعًا: موقفهم من السيرة من البعثة إلى الهجرة.....
- 330..... وقد ركزوا في هذه الفترة على الآتي:.....
- 336..... مصادر المستشرقين الإنجليز في دراستهم للسيرة النبوية.....
- 340..... ج . مناهج مستشركي المدرسة الإنجليزية في كتاباتهم عن السيرة النبوية.....

تعريف بالكتاب بأجزائه الأربعة

يكشف لنا هذا الكتاب دور المستشرقين عبر سبعة قرون في تكوين الرأي العام العربي تجاه الإسلام والمسلمين ، والذي تمخّض عنه ما نراه اليوم من حملات مستعرة ضد الإسلام ، والنيل من الرسول صلى الله عليه وسلم ، كما يكشف لنا هذا الكتاب ما قام به المستشرقون ، ومنهم أكثر من أربعين مستشرقاً يهودياً من دور كبير لدعم الصهيونية ، ودولة الكيان الصهيوني واستعمار الدول العربية، وإيجاد النظرية العرقية التي تستهدف التقليل من شأن العرب والعقلية العربية والإسلامية لتبرير استعمار بلادهم ، والعمل على إحباط المسلمين وإشعارهم بالدونية ليخضعوا بالتبعية لكل ما هو غربي ، ويتمثل هذا في الغزو الفكري والثقافي والعلمي والاقتصادي الذي تعاني من الأمتين العربية والإسلامية ، كما يكشف لنا هذا الكتاب دور الاستشراق في إثارة النعرات الطائفية والمذهبية والعرقية ، وما يتعرض له الآن العالمان العربي والإسلامي من هيمنة أمريكية وصهيونية ، ومن ضعف وتشتت وانقسام واحتلال أمريكي للعراق وأفغانستان، وحرب إبادة للشعب الفلسطيني ، فإدارة الرئيس الأمريكي جورج بوش عكفت على تنفيذ مخططات المستشرق اليهودي الإنجليزي الأمريكي " برنارد لويس " في تقسيم البلاد العربية والإسلامية على أساس طائفي ومذهبي وعرقي ، وإدارة الرئيس باراك أوباما ومن تلاه مستمرة في تنفيذ هذا المخطط.

ومن خلال التصدي للشبهات التي أثارها سبعة عشر مستشرقاً إنجليزياً حول السيرة النبوية العطرة في دورها المكي والمدني ، وحول القرآن الكريم والتشريعات المدنية تنكشف لنا حقيقة المنهج المتبع لدى مستشركي المدرسة

الإنجليزية في كتاباتهم عن الإسلام ، والسيرة النبوية ، وهو منهج يتناقض
تماماً مع المنهج العلمي المدعى.
كما يكشف هذا الكتاب لأول مرة حقائق لم يسبق التوصل إليها.

الباب الرابع

الدور المكمل في كتابات مستشرفي المدرسة

الإنجليزية

الفصل الأول

مكة المكرمة قبل مولد الرسول صلى الله عليه وسلم

تمهيد

تبيّن لنا مما سبق عرضه في الجزء الأول عن الاستشراق والمدرسة الاستشراقية الإنجليزية أنّ مناهج المستشرقين التي اتبعوها في كتاباتهم عن الإسلام، وعن السيرة النبوية اختلفت من حقبة إلى أخرى ، وأنّه مع مطلع القرن العشرين اختلفت حدة التعصب الأعمى والهجوم الشديد على الإسلام وعلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأصبحت لغة الخطاب أكثر هدوءاً ، وبدأ المستشرقون عموماً بما فيهم المستشرقين الإنجليز يكتبون وفق مناهج علمية . هم على الأقل وصفوها بذلك . وأخذوا يحللون الأحداث ويسردون الوقائع وفق تلك المناهج خارجين بآراء واستنتاجات تؤيد وتوافق ما يريدون قوله، والمحصلة النهائية لكل ما كتبوه أنّه لا يخرج في غاياته وأهدافه عن سبقهم من المستشرقين الذين كانوا في أغلبهم رجال كنائس ومنصرين ، فالغاية واحدة والهدف واحد وإن اختلفت الأساليب والمناهج.

وقد رأيت أن يكون موضع البحث والدراسة ، والتطبيق كتابات مستشركي المدرسة الإنجليزية في الفترة من النصف الثاني من القرن التاسع عشر حتى السبعينات من هذا القرن وهي تشمل أهم وأشهر مستشركي هذه المدرسة وهم حسب ترتيبهم الزمني كالاتي:

- 1- وليم موير (1819 . 1905م) وكتابه حياة محمد بالإنجليزية.
- 2- مرجليوث (1858 . 1940م) وكتابه "محمد ونشأة الإسلام" بالإنجليزية.

- 3- توماس أرنولد وكتابه "الدعوة إلى الإسلام" بالإنجليزية، مترجماً إلى العربية.
- 4- الفريد جيوم كتابه "الإسلام" بالإنجليزية، والترجمة العربية.
- 5- أرنولد توينبي (1889 – 1962م) وكتابه "تاريخ البشرية" ترجمة نقولا زيادة.
- 6- هاملتون جيب (1895 – 1971م) وكتابه "المحمدية" بالإنجليزية.
- 7- آربري (1905 – 1969م) وكتابه "مظاهر الحضارة الإسلامية" بالإنجليزية.
- 8- مونتجمري وات 1909م ، وكتاب "محمد في مكة" وكتاب "محمد في المدينة" بالإنجليزية ، ومترجماً، وكتاب "محمد نبي ورجل دولة" بالإنجليزية.
- 9- برنارد لويس 1916م ، وكتاب "العرب في التاريخ: مترجماً إلى العربية¹.
- 10- ر.ف. بودلي وكتابه "الرسول حياة محمد" مترجماً إلى العربية².

1 - لم أتمكن من الحصول عليه بالإنجليزية.

2 - لم أتمكن من الحصول عليه بالإنجليزية

ومما تجدر الإشارة إليه أنّ الهدف من هذه الدراسة توضيح منهج مستشرقى المدرسة الإنجليزية في كتابتهم للسيرة النبوية مع تحديد موقفهم منها ، ولهذا فهي ليست سردًا للسيرة ذاتها ، وإنما هي تنفيذ وتصحيح لما جاء في كتابات المستشرقين ، بمعنى أنني سأتوقف عند الأحداث والوقائع التي أثار المستشرقون الإنجليز حولها الشبهات أو التي أخطأوا في فهمها لرد الشبهات، ولتصحيح الأخطاء.

فالمنهج المتبع في الفصول الثلاثة القادمة - إن شاء الله - هو عرض مواقف المستشرقين من أهم أحداث الدورين المكي والمدني والموضحين في خطة البحث ، وتنفيذها والرد عليها من المصادر الأساسية للسيرة ومن الكتاب المقدس ، ومن كتابات اليهود والنصارى أنفسهم سواء الذين أسلموا ، أو لم يسلموا مع الاستعانة ببعض المراجع الحديثة.

ومما سيساعدنا في الرد على شبهاتهم وتنفيذها، ما توصلنا إليه في الفصل الثالث من نتائج حول تحريف التوراة والإنجيل وعقيدة الألوهية عند اليهود والنصارى ، ونظرتهم إلى الأنبياء والرسل.

مكة المكرمة قبيل مولده عليه الصلاة والسلام في كتابات بعض

مستشركي المدرسة الإنجليزية

لقد أهتم المستشرقون اهتمامًا كبيرًا بالجزيرة العربية قبل الإسلام ، ودرسوها من مختلف جوانبها الجغرافية والسياسية والدينية والاقتصادية والاجتماعية ، وقدم إليها الرحالة والمستكشفون من المستشرقين ، وعبروها من جميع جوانبها ، واكتشفوا معالمها وآثارها ، وحلوا النقوش التي عثروا عليها بحثًا عن تفسير لحقيقة علمية واحدة وهي: كيف خرج الإسلام من الجزيرة العربية؟

ولنبداً بـ :

وليم موير

لقد خصص وليم موير الفصل الأول من كتاب "حياة محمد" لوصف حالة الجزيرة العربية قبل الإسلام ، وتعرض بالوصف التفصيلي للجزيرة العربية من الناحية الجغرافية والتاريخية والاقتصادية مبينا الطرق التجارية التي تمر بها ، وخصائص هذا الاقتصاد والمبنى على التجارة من جهة وعلى الزراعة في بعض الأقاليم الخصبة من جهة أخرى.

ثم يتحدث عن الأديان والمعتقدات السائدة في الجزيرة العربية قبل الإسلام ، وهو حديث لا يختلف عن سبقه ، ومن أتى بعده لأنه كما يبدو لنا أنّ المستشرقين ينهجون منهجًا واحدًا، ويخضعون لمؤثرات بيئية وأيدلوجية وثقافية واحدة ، ويسعون إلى تحقيق غاية واحدة وهي محاولاتهم إثبات تأثر الإسلام باليهودية والمسيحية والوثنية ، والذي نخرج به ممّا كتبه

موير عن حالة الجزيرة العربية قبل الإسلام وإنكاره لصحة الروايات الإسلامية عن الأقباط الأولى التي عمرت الجزيرة العربية ، واعتباره بناء الكعبة من قبل إبراهيم وابنه إسماعيل بأنه محض أسطورة ، وكذلك قصة إسماعيل وأمه هاجر فلا يعتقد صحتها ، بل نجده ينكر انتساب النبي محمد صلى الله عليه وسلم إلى إسماعيل عليه السلام ، ويرى أن نسبته يبدأ من معد بن عدنان وذلك استناداً إلى رواية الواقدي الذي ذكر أن تسلسل النسب من عدنان إلى إسماعيل كان من وضع اليهود الذين اختلفوا فيه.

وهذه قضية خطيرة تتطلب التوقف عندها.

والذي نخلص إليه من بحث موير عن الجزيرة العربية قبل الإسلام ، أنه يهدف من هذه الدراسة المطولة أن يبين أثر العوامل السياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية والجغرافية في أصول الدعوة الإسلامية وتطورها ، متبعاً منهج السرد التاريخي ، وهو خال من التحليلات والاستنباطات العلمية أو الشخصية إلى أن يصل إلى أجداد الرسول صلى الله عليه وسلم المباشرين فيتعرض بالتفصيل لسيرة قصي ، هاشم ، وعبد المطلب ، وحملة الحبشة على مكة ويرى أن الرواية الإسلامية لهذه الحملة أسطورة مزيفة¹، كما يشكك مرجليوث في نسب الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد أفرد فصلاً عن مكة المكرمة قبل الإسلام، وقد تحدث فيه عن الحياة

¹ - Muir , Life of Mohammad, V I P Caxii , Ca XIII - ترجمة د. ساسي الحاج : انظر الظاهرة الاستشراقية، 50/3 . 53.

الاقتصادية وأشار إلى ثراء قريش ، كما نجده لم يختلف عن سبقه في محاولات إيجاد مبررات للتأثيرات اليهودية والمسيحية على الإسلام¹.

الفريد جيوم

أمّا الفريد جيوم فهو الآخر يفرد فصلاً في كتابه "الإسلام" عن الحياة في الجزيرة العربية في العصور القديمة وقبل الإسلام ، وركز في هذا الفصل على جانبين هو الجانب الاقتصادي والجانب الديني.

وفي الجانب الاقتصادي نجده يتحدث عن أسباب هجرة القبائل العربية إلى بلاد وادي الرافدين لقلّة الموارد المعيشية في الجزيرة العربية²، وذلك ليمهد لما سيقوله فيما بعد عن أسباب غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم بأنّه كان في المدينة ضغط اقتصادي ظاهر³.

ثم أخذ يستعرض الحياة الاقتصادية في بلاد العرب قبل الميلاد ، وحتى ظهور الإسلام، وهدف من هذا العرض أن يخلص أنّ قوام حياة العرب يقوم على أساسين هما: التجارة والإغارة رابطاً ذلك بقوله إنّ الرسول صلى الله عليه وسلم كان أول عمل تولاه هو التجارة ، ثم شغل في نهاية حياته بالحروب ، كما هدف من ذلك الوصول إلى النقطة التي يريد ترسيخها وهي التأثير اليهودي والمسيحي على الإسلام ، ويظهر هذا

¹ - انظر D.S Margoliouth , Mohammed and The Rise of Islam p. 1 –44 Reprinted 1927.

² - جيوم، الفريد . (1958م) الإسلام ص 3 ترجمة محمد مصطفى هدارة. د. شوقي اليماني السكري، ط1 . مكتبة النهضة المصرية 41 p Reprinted 1969 p.2 Guillaume. Islam المصدر السابق . ص 41.

³ - المصدر السابق. ص 41.

بوضوح من قوله "إنه من المستحيل الذهاب من مكة شمالاً أو جنوباً أو شرقاً دون المرور بهذه المستعمرات"¹. يقصد المستعمرات المسيحية.

ونجده أكد هذا في حديثه عن الحياة الدينية في الجزيرة العربية ، وذلك بقوله "إنه كان يجاور النبي صلى الله عليه وسلم عدد كبير من اليهود ، وأنّ المسيحيين قد عرفهم عن طريق الاتصال الشخصي"² .

أمّا في حديثه عن الوثنية فنجده يثير شبهة خطيرة حول الرسول صلى الله عليه وسلم ، فهو يشير إلى أنّ أجداد الرسول صلى الله عليه وسلم وأسلافه من الوثنيين تمهيداً لما ذكره في ص 26 ، أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم كان وثنيّاً ؛ إذ يتحدث عن زيد بن عمرو ابن الفضل أنّه أول من لامه على الوثنية ونهاه عن عبادة الأصنام، زاعماً أنّه يوجد هذا في مخطوط لم ينشر لابن إسحاق³.

أرنولد توينبي

وعندما يتحدث أرنولد توينبي في كتابه تاريخ البشرية عن الجزيرة العربية قبل الإسلام ، نجده يتحدث عن قسوة الطبيعة في الجزيرة العربية ، إلى أن استخرج النفط معتبراً سكان الجزيرة العربية باستثناء اليمن كانوا في جوع دائم، وكان تغلغل المدنية التدريجي في الجزيرة العربية يرافقه تفجر سكاني إلى خارج الجزيرة ، ويرجع هجرة القبائل في القرن الثامن قبل

1 - المصدر السابق. ص 6. Ibid,p.6.

2- المصدر السابق. ص 6. Ibid.6.

3 - المرجع السابق. ص 26.27 . Ibid p.

الميلاد ، وفي القرن الثاني قبل الميلاد إلى التفجر السكاني ، ويعلل أسباب الفتوح الإسلامية عقب وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى حدوث تفجر سكاني كبير في تلك الفترة¹.

ونجده يتحدث عن الظروف المناخية لمكة ، فيصفها بأنها بعيدة عن متناول الأمطار الموسمية ، مشيراً إلى بئر زمزم التي تمثل ثروتها المائية ، وأن الحياة المعيشية في مكة تقوم على التجارة ، ونجده يركز في حديثه عن سكان الجزيرة العربية على كثرتهم معللاً ذلك باتساع الجزيرة العربية من ناحية ، وأن منطقتها صحية من ناحية أخرى².

هاملتون جيب

وعندما ننتقل إلى هاملتون جيب ونقرأ ما كتبه في كتابه "المحمدية" عن مكة قبل الإسلام ، نجده يخالف توينبي، ويصفها بأنها كانت مدينة تجارية ثرية تعج بالحياة ، وتكاد تحتكر تجارة التوزيع بين المحيط الهندي والبحر المتوسط، مشيراً إلى ما أكتسبه أهل مكة من إطلاع واسع على الناس والمدن أثناء تعاملهم التجاري والدبلوماسي مع رجال القبائل والموظفين الروم ، مع حفاظهم على شيء من بساطة العرب في سلوكهم وأعرافهم ، وخبراتهم التجارية والدبلوماسية زرعت فيهم قدرات ذهنية وصفات خلقية من حكمة وأناة يندر وجودهما في الجزيرة العربية ، ووجود الأماكن

¹ - توينبي ، أنولد . (1988م) تاريخ البشرية . 2 / 82 ترجمة نقولا زيادة . بيروت . الأهلية للنشر والتوزيع .

² - المصدر السابق . ص 81 ، 82 .

المقدسة في مكة وما حولها قد ساعد على تقوية هذه السيادة الأدبية التي أكتسبها أهل مكة على رجال القبائل، ويقولك " يمكننا ملاحظة أثر هذه الخلفية الاستثنائية في سائر حياة محمد ، فمن المنظور البشرى فقد نجح محمد لأنه كان من أهل مكة."

ثم يتحدث عن الجانب الاجتماعي ويصفه بأنه " جانب مظلم للرخاء الذي كانت تتمتع به مكة ، فقد كانت تعاني من الشرور المعروفة في المجتمعات التجارية الغنية ، وهي حالات الغنى الفاحش والفقر المدقع ، وعالم العبيد والأحرار المظلومين والحواجر الاجتماعية بين الطبقات ، ومن الواضح من مهاجمة محمد العنيفة للظلم الاجتماعي والغش بأنّ هذا كان أحد الأسباب العميقة لزعامته."¹

ومونتجمري وات فقد خصص في كتابه "محمد في مكة" الفصل الأول عن البيئة العربية قبل الإسلام وتحدث فيه عن:

1- العوامل الاقتصادية.

2- السياسة في مكة المكرمة وتشمل التجمعات السياسية عند القرشيين والشؤون الإدارية في مكة ، والقرشيون والقبائل العربية ، والسياسة الخارجية في مكة.

3- البيئة الاجتماعية والأخلاقية.

¹- H.A.R.Gibb, Mohammedanism P 16.17 Second Edition, Oxford University press.

4- الحياة الدينية ، ويتحدث فيها عن انحطاط الديانة القديمة ،
وظهور النزعات التوحيدية.

وعند قراءتي لهذا الفصل استوقفني الآتي:

- 1- قوله إنَّ للصحراء دورًا رئيسيًا في ظهور الإسلام¹.
- 2- رده على مقولة توينبي أنَّ الجوع هو الذي دفع بالعرب لطرق
الفتح ، بأنه لا يوجد برهان وثيق على سوء الأحوال المناخية في
الصحراء².
- 3- عند حديثه عن البيئة الاجتماعية والأخلاقية ركز على
العصبية القبلية بسبب ظروف الحياة القاسية في الصحراء ، وما نتج عن
الخصائص القبلية المعتمد على القوة والأخذ بالثأر وظهور الأحلاف وحق
الجوار ، كما نجده يصف أخلاقيات العرب السامية الناجمة من قساوة الحياة
في الصحراء إلى انصهار الأفعال والمواقف المتخاذلة وذوبانها في أتون
الصحراء ، ولم تبق سوى الأخلاق النقية الصافية التي تقوم على تقليد سام
في علاقات البشر ودرجة عالية من الفضائل³.

4- عند حديثه عن الحياة الدينية عند العرب قبل الإسلام وصفها
بالانحطاط ، وقد شكى من نقص المصادر والمراجع العلمية التي تعالج
هذا الموضوع ، ولم يجد بدءًا من الاعتماد على المصادر الإسلامية ،

¹ - W.M. Watt , Mohammad at Mecca P.I London 1965 محمد في مكة . ترجمة شعبان
بركات ص 16 . بيروت . منشورات المكتبة العصرية.

² - المرجع السابق. ص 20.

³ - المصدر السابق. ص 47 . 51.

ووصل إلى نتيجة مفادها أنّ عبادة الأوثان لم يعد لها أي تأثير أيام محمد صلى الله عليه وسلم متأثراً بمقال "نولدكه" عن العرب القدماء في دائرة معارف الدين والأخلاق.

5- حديثه عن التأثيرات اليهودية والمسيحية على الإسلام ، ويرى أنّ المنهجية العلمية تتطلب معرفة معتقدات العرب في عصر محمد قبل الكلام عن مدى تلك التأثيرات ، كما نجده قد سلك مسلك من ينادي بدراسة المؤثرات الداخلية في الإسلام مؤكداً أنّ أهل مكة كانوا يعرفون "الله" و "الرب" للدلالة على الآلهة الرئيسية في الكعبة بتأثير الاختلاط باليهود والمسيحيين¹.

6- يردد وات آراء من سبقه من المستشرقين ، فيزعم أنّ أهل التوحيد عند العرب يرجع بدون شك إلى التأثيرات اليهودية والمسيحية نتيجة اتصالحهم في مناسبات عديدة بالمسيحيين واليهود عن طريق الجوار والتجارة ، ووجود العبيد وبعض الأقليات الدينية بينهم في مكة والمدينة والطائف ، ويصل وات بعد سرد طويل لكيفية اتصال العرب بهاتين الديانتين إلى نتيجة مفادها أنّ أفكار هاتين الديانتين وصلت إلى شبه الجزيرة العربية ، وهي مقتبسة من الأناجيل الموضوعة وغيرها من الكتب المشابهة.

7- تقليله من تأثير الحنفاء ودورهم ، ووصفهم بأنهم لم يشكلوا حركة منظمة للتوحيد ، وأنهم كانوا يبحثون عن عقيدة جديدة ، وأنه ظهر

¹ - المصدر السابق . ص 57.

في نهاية القرن الرابع الميلادي عدد كبير من الناس أحسوا بالفراغ ، وأخذوا يبحثون عن شيء يرضي أعماق حاجاتهم¹.

برنارد لويس

كما نجد برنارد لويس قد أفرد فصلاً عن بلاد العرب قبل الإسلام تحدث فيه عن أحوال الجزيرة العربية قبل الميلاد مشيراً إلى الحضارة العربية في الجنوب وامتداد دولة السبأيين إلى رقعة كبيرة من أفريقية ، وكذلك دولة الحميريين ، كما تحدث عن النشاط الاقتصادي والنظام السياسي والحياة والدينية ، في الجنوب والوسط والشمال ، وقد فصل في الحديث عن جنوب ووسط وشمال الجزيرة العربية ليثبت الآتي:

1- التأثير اليهودي والمسيحي والفارسي على الإسلام ؛ إذ نجده يقول: "كانت الثقافة الفارسية والبيزنطية ، مادية وأدبية تتفد من مسارب مختلفة يتصل معظمها بطرق التجارة عبر بلاد العرب ، وكان أحدها هو قيام مستعمرات أجنبية في شبه الجزيرة العربية نفسها ، فقد أنشئ عدد من الدساتر اليهودية والنصرانية في أجزاء مختلفة من الجزيرة العربية قامت بنشر الثقافة الآرامية والهلينية ، وكان المركز النصراني الرئيسي في جنوب بلاد العرب ونجران حيث قامت حياة سياسية متقدمة نسبياً، وقد كان اليهود والعرب والمتهودون منتشرين في كل مكان من الجزيرة وخاصة في يثرب².

1 - Ibid p . 25 - 24

2- لويس ، برنارد . (1954م) العرب في التاريخ . ص 40 . ترجمة نبيه أمين فارس . محمود يوسف زايد . بيروت . دار العلم للملايين .

2- التأثير الحضاري للإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية على الإسلام، فهو يريد أن يقول إنّ الحضارة الإسلامية متأثرة بهاتين الحضارتين بشكل مباشر، ولا سيما الحضارة البيزنطية التي وصفها بأنها ثقافة آرامية وهيلينية.

ونلاحظ هنا أنّه فصل في الحديث عن تاريخ جنوب ووسط وشمال الجزيرة العربية واقتضب في الحديث عن مكة المكرمة مشيرًا إلى أنّ أوائل تاريخ مكة غامض ، ثم حدد موقعًا، وتحدث عن نشاطها التجاري وصلاتها التجارية بالسلطات البيزنطية والحبشية ، وسلطات التخوم الفارسية ، وقسم قريش إلى ثلاثة أقسام:

- قريش البطاح: وهم من الطبقة الثرية من التجار ورجال الأعمال والمرابين ورجال القوافل القائمون على تجارة النقل وصادتها الحقيقيون.
- قريش الظواهر: وهم سكان يتألفون من رجال قوافل أقل شأنًا وأقرب عهدًا بالتحضر، وأهون مكانة، ثم يليهم آخر الأمر طبقة عاملة من الأعراب والبدو.

- عرب قريش: وكانوا خارج مكة وهم القبائل البدوية التابعة لمكة¹. ثم انتقل إلى الحديث عن حكومة مكة ونجده وافق "لامنس" على تسميتها بأنها كانت جمهورية تجارية تحكمها نقابة من رجال الأعمال الأثرياء².

1 - المصدر السابق. ص 44.

2 - المرجع السابق. ص 44.

ر. ف. بودلي

وعندما ننتقل إلى ر. ف. بودلي نجده قد خصص هو أيضًا فصلًا عن مكة قبل مولد النبي صلى الله عليه وسلم ، ولكنه يخلط في الأمور ولم يفهم معنى السقاية والرفادة فكلنا يعرف أنّ الرفادة والسقاية كانت لهاشم ، وأنّ الرفادة إطعام الحجاج ، والسقاية سقايتهم من ماء زمزم ، ولكن بودلي يفسرها بحراسة الكعبة وأصنامها ، فيقول: "كان هاشم يقوم بواجبات دينية ، إلى كونه من الأرسنقراطية الغنية والقبيلة الغنية فكان حارسًا للكعبة وآلهتها، ويعود هذا الشرف في أسرته إلى مئات السنين فما كان لغير الهاشمي أن يقوم بهذا الواجب" ، ثم يقول: "لا ريب أنّ هاشمًا كان يحس خزيًا لو أنّه فكر في أنّ أحدًا من أحفاده سيثير ثورة تقلب أوضاع العرب رأسًا على عقب، ولا شك أنّه كان يحس عرق الخجل يتصبب منه لو أنّه قرأ صفحات الغيب ، فرأى بعين خياله الكعبة ، وقد خلت من آلهتها التي جعل هاشم من نفسه حارسًا لها¹.

وفي حديثه عن النشاط التجاري لقريش ورحلة الشتاء والصيف نجده يشير إلى نقطة هامة وهي وجود المتناقضات في مكة إلى جانب الثروة الهائلة يوجد الفقر المدقع ، وإلى جانب البذخ الشديد يوجد التقشف والحرمان²، وهو ما أشار إليه أيضًا هاملتون جيب.

شبهات ومغالطات المستشرقين الإنجليز عن الجزيرة العربية قبل الإسلام

¹ - بودلي . الرسول حياة محمد . ترجمة محمد محمد فرج، عبد الحميد جودة السحار. ص 30 . مكتبة مصر.

² - المصدر السابق. ص 29.

وبعد هذا الرصد الموجز لأهم ما كتبه بعض مستشرفي المدرسة الإنجليزية عن الجزيرة العربية قبيل الإسلام نجد أنفسنا أمام شبهات خطيرة آثارها بعضهم ، ومغالطات ومفاهيم خاطئة طرحها البعض الآخر لتصب في النهاية جميعها في مصب واحد ويأتي في مقدمة هذه الشبهات وأخطرها:

1- إصاق الفريد جيوم الوثنية بالرسول صلى الله عليه وسلم حينما نسب رواية لا ندري من أين أتى بها إلى مخطوط لابن إسحاق لم ينشر يتحدث فيه عن زيد بن عمرو بن الفضل إنه أول من لامه على الوثنية ونهاه عن عبادة الأصنام¹، ولعل زعم بودلي أن هاشمًا كان مكلفًا بحراسة الأصنام التي كانت منصوبة حول الكعبة للإيهام بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان متشربًا للوثنية، ورواية ابن إسحاق التي يزعم الفريد جيوم أنها ليس لها أي سند ، ولم يذكرها ولم تقع بين أيدي أحد رواية مرفوضة لأنه لا يوجد ما يؤيدها فالمصادر التاريخية تجمع على أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يقرب عبادة الأصنام ، ولم يتقدم إليها بأي قربان، ولم يشارك في أمور الجاهلية ، بأي نصيب ، فالرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن يهوديًا ولا نصرانيًا ولا وثنيًا، وإنما كان حنيفًا على ملة إبراهيم عليه السلام.

¹ - سأورد نص هذه الرواية المنسوبة لابن إسحاق عند الحديث عن موقف المدرسة الاستشراقية من السيرة من المولد حتى البعث.

2- إثارة الشبه حول التشكيك في انتساب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى إسماعيل عليه السلام وهذه الشبهة أثارها وليم موير عندما رأى أنّ نسب الرسول صلى الله عليه وسلم يبدأ من معد بن عدنان ، وذلك استنادًا إلى رواية الواقدي الذي أكد أنّ تسلسل النسب من عدنان إلى إسماعيل كان من وضع اليهود الذين اختلفوا فيه. وهذه الرواية لا سند لها من الصحة ولا أساس ، لأنّ اليهود حرفوا التوراة وجعلوا الذبيح إسحاق عليه السلام وليس إسماعيل ، لأنّهم أرادوا ألا يكون للجد الأعلى للنبي العربي فضل أو ميزة يتميز بها وبالتالي الجنس العربي ، وحصرهم النبوة في إسحاق عليه السلام ونفيها عن إسماعيل عليه السلام لذات السبب ، فلو كان بإمكانهم نفي انتساب محمد صلى الله عليه وسلم إلى إسماعيل عليه السلام لفعلوا، ثم أنّنا لو رجعنا إلى أصل العرب نجد ، كما يقول ابن هشام "إنّ إسماعيل أبو العرب بأكملها" ، ويقول ابن إسحاق فمن عدنان تفرقت القبائل من ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، فولد عدنان رجلين معد بن عدنان وعك بن عدنان¹ ، ولقد اتفق النسابون على أنّ عدنان ينتهي نسبه إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، فهو جد النبي الأعلى ويؤيد هذه ما أورده الإمام مسلم في صحيحه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله أصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، وأصطفى قريشًا من كنانة ، وأصطفى من قريش بني هاشم ، وأصطفاني من بني هاشم"²،

¹ - ابن هشام . السيرة النبوية 1 / 7 ، 8 . تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي . جدة . مؤسسة علوم القرآن .

² - صحيح مسلم . ج 4 ، . كتاب الفضائل . بيروت . لبنان . دار إحياء التراث العربي .

هذا وإن كان هناك اختلاف فليس في انتساب عدنان إلى إسماعيل عليه السلام، إنّما في الآباء الذين يصلون إلى إسماعيل بعد عدنان.

3- تركيز المستشرقين على إثبات أنّ هناك تأثيرات يهودية ومسيحية ووثنية على الإسلام ، وتقليل وات من شأن الحنيفية ، ومن تمسك قريش بعبادة الأصنام أيام البعثة المحمدية.

وللرد على هذه الشبهات لابد لنا من وقفة عند الحالة الدينية عند العرب في مكة قبل الإسلام.

الحالة الدينية في مكة قبل الإسلام

انتشرت في مكة قبل الإسلام الوثنية ، وكان إلى جانبها الحنيفية ، أمّا اليهودية والنصرانية فلم يكن لهما وجود يذكر في مكة المكرمة ، وكانت الحنيفية هي الديانة الأساسية والأولى التي كان يعتنقها أهل مكة قبل الوثنية.

فلقد قامت دعوة إبراهيم عليه السلام على عقيدة التوحيد ، وكان توحيد إبراهيم إيمانًا بالله يعلو على ملوك الأرض ونجوم السماء ويتساوى عنده الخلق أجمعين.

وبدأ العرب يقدسون الكعبة باعتبارها بيت الله الحرام الذي بناه إبراهيم وابنه إسماعيل بأمر من الله عز وجل ، وامتد تقديس العرب للكعبة إلى تقديس مكة والمناطق المجاورة لها حتى أصبحت الأرض الممتدة حولها إلى عدة فراسخ حرامًا لا يجوز فيها الاعتداء على إنسان أو حيوان ،

ويروي المؤرخون أنّ عمرو بن لحي الخزاعي هو الذي أدخل عبادة الأوثان في مكة ، فيرون أنّه لما ساد قومه في مكة ، وأصبحت لهم الولاية على الكعبة رحل إلى مدينة البلقاء بالشام ليستشفى من مرض أصابه ، فرأى أهله يعبدون الأصنام فقال لهم: "ما هذه الأوثان التي أراكم تعبدون؟ قالوا: "هذه أصنام نعبدها ونستنصرها ، فتنصرنا ونستقي بها فنسقى ، فقال: ألا تعطوني منها صنماً فأسير به إلى أرض العرب عند بيت الله الذي تقد إليه العرب، فأعطوه صنماً يقال له هبل ، فقدم به مكة فوضعه عند الكعبة¹.

وكان العرب بمكة وما حولها قد تهاونوا في عقيدتهم الحنيفية دين التوحيد الذي دعا إليه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، وأراد عمرو أن يدعم سلطته ونفوذه بأن يبتدع عقيدة جديدة تحل محل الدين القديم فأحضر هبل من الشام ونصبه عند الكعبة.

وهكذا تخلى عمرو عن الحنيفية دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، وأقام الأوثان عند الكعبة ، وتعالّت أصوات احتجاج من بعض العرب وخاصة عرب جرهم ، يحتجون على هذه البدعة الوثنية الجديدة التي ابتدعها زعيمهم²، ولكن عمرو بن لحي نجح في إخماد أصوات الاحتجاج بما كان يتمتع به من سلطة سياسية وعسكرية واقتصادية واسعة ، واستمرت

¹ - المسعودي . مروج الذهب ، 2 / 61 شرح وتقديم د. مفيد محمد تميمية . ط1 . بيروت : دار الكتب العلمية . الخربوطلي . د . على حسن . (1396هـ / 1976م) تاريخ الكعبة . ص . بيروت . 30 دار الجيل .

² - المسعودي . مروج الذهب . 2 / 61

قبيلة خزاعة تلبي شؤون الكعبة وتمارس الوثنية حوالى خمسة قرون¹. وكانت هذه الأصنام سواءً منها ما كان بالكعبة أم حولها ، وما كان في مختلف جهات بلاد العرب وبين مختلف قبائلها تعتبر الوسيط بينها وبين الإله الأكبر ، وكانت العرب لذلك تعتبر عبادتها إياها زلفى تتقرب بها إلى الله ، وإن كانت قد نسيت عبادة الله لعبادتها هذه الأصنام² ، وقد بين لنا هذا قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾³ .

وكان العرب يدركون أنّ هذه الأوثان لا تعتمد على رسالة أو نبوة ، ولكنهم اعتبروها ديانة تقليدية وراثية وجزءاً من عاداتهم المتوارثة ، فكانوا يقولون عنها أنها ديانة الآباء والأجداد⁴ .

وقبيل ظهور الإسلام ظهرت حركة إصلاحية تهدف إلى العودة إلى دين إبراهيم الحنيف وتخليص الكعبة من الأوثان وإصلاح أحوال العرب ، فقد ظهرت دعوة إلى العودة إلى الحنيفية ملة إبراهيم عليه السلام ؛ إذ كان من بين العرب أناس مستثيرون فطنوا إلى سوء حالتهم الدينية ، فدعوا إلى دين التوحيد وإلى إحياء ملة إبراهيم ونبذ عبادة الأوثان ، والتخلص من عادات الجاهلية ، وكانوا يعتقدون في البعث ، وفي وجود إله واحد يحاسب

1- د. الخربوطلي . مرجع سابق . ص 31.

2- هيكل ، محمد حسين . حياة محمد . ص 82 ، ط19 . القاهرة . دار المعارف.

3- الزمر : 3.

4- د. الخربوطلي . مرجع سابق . ص 33.

ويجازي الناس على أعمالهم من خير أو شر، ويطلق على هذه النزعة التحنف، وعلى أصحابها الحنفاء¹.

وقد ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾².

ولم ينتظم الحنفاء في طائفة ولم يرتبطوا برباط واحد، ولم يشتركوا في عبادة واحدة معينة، ولكن هؤلاء الحنفاء لم يكونوا عدداً قليلاً، فلو لم يكونوا كثرة محسوسة لما عدّهم القرآن الكريم فئة خاصة، وأشار إليهم بهذه الحفاوة وسلّكهم مع أهل الكتاب والمؤمنين، ثم مع أهل الأديان المستقلة عامة في سلك واحد وتحت اسم مستقل، وقد ذكرت لنا كثير من المصادر القديمة أسماء عديدة لهؤلاء الحنفاء³.

وقد اعتاد بعض الحنفاء أن ينقطعوا للعبادة زمنًا في كل عام يقضونه بعيدًا عن الناس في خلوة يتقربون إلى الله بالزهد والدعاء، ويلتمسون عنده الخير والحكمة، وكانوا يسمون هذا الانقطاع التحنف أو التحنث، وكان محمد صلى الله عليه وسلم قبل ظهور الإسلام من الحنفاء حتى إذا بلغ الأربعين من عمره نزل عليه الوحي وأصبح رسول الله، وكان محمد في غار حراء يعبد الله وحده فنزل عليه جبريل عليه السلام يبلغه اختيار المولى عز وجل له ليكون رسوله الصادق الأمين⁴.

¹ - المرجع السابق. ص 124.

² - آل عمران: 67.

³ - المرجع السابق. ص 125.

⁴ - المرجع السابق. ص 126، 127.

أمّا اليهودية فقد كانت بخيبر وما جاورها ، ويثرب والمدينة ، وفي بلاد اليمن ، واليهودية لم تجد قبولاً ولا انتشاراً في بلاد العرب ، ولعل ذلك لأنّ اليهود يزعمون أنهم شعب الله المختار ، فلذلك لم يقبل العربي أن يدخل ديناً يجعله في طبقة دنيا عن طبقة دعاة هذا الدين ، وأيضاً فقد كانوا لا يهتمهم نشر دينهم ، بقدر ما يهتمهم جمع الأموال ، هذا بالإضافة إلى أنّ أخلاقهم التي كانوا يتصفون بها من اللؤم والغدر والخيانة والحرص والشره إلى المال ، والتي تعتبر على الضد من أخلاق العرب ، زهدت العرب في دينهم ، والانتظام في مسلكهم وجماعتهم¹.

أمّا النصرانية فقد كانت منتشرة بنجران شمال اليمن ، وطبيعي أنّها جاءت من الحبشة ، وفي شمال الجزيرة العربية في دولة الغساسنة ، وكانت وثيقة الصلة بالروم، فمن ثمّ انتشرت فيها النصرانية أكثر من غيرها، وفي الحيرة تنصر معظم الأسرة المالكة ، وفي غير هذه الأقاليم لا نجد أثراً يذكر للنصرانية².

ويرى ول ديورانت صاحب قصة الحضارة أنّ الوجود النصراني في مكة كان هزياً فقال: "كان في بلاد العرب كثيراً من المسيحيين ، وكان منهم عدد قليل في مكة"³، وقد أشار إلى هذا أيضاً كاتب آخر⁴ ، وكذلك

1 - أبو شهبه ، د. محمد بن محمد . (1412هـ / 1992م) السيرة النبوية في ضوء القرآن الكريم والسنة.

1 / 79 . ط2 . دمشق .. سوريا . دار القلم .

2 - المرجع السابق . ص 79 .

3- هاشم ، شريف محمد . (1409هـ / 1988م) الإسلام والمسيحية في الميزان . ص 72 ، 73 . ط1 .

مؤسسة الوفاء . بيروت .

4 - سلهب ، نصري . في كتابه خطى محمد حيث قال: "المسيحيون في مكة كانوا قلة".

يرى الأب يوسف درو الخوري في سلسلة كتبه التي ألفها للتجريح بالإسلام ونبه تحت اسم "دروس قرآنية" قال: "كان اليهود كثرة في المدينة والنصارى قلة ، والطائفتان أكثر في المدينة منهما في مكة"¹.

فالثابت أنّ النصرانية في مكة كانت تعاني من ضغط ملحوظ ، وأنّ تجاوب مكة مع دعوات التنصير كان بطيئاً ومحدوداً، وأنّها كانت تشق طريقها في تلك المدينة بصعوبة شديدة وببطء ملحوظ ويدل على ذلك الآتي:

أولاً- استمرار الوثنية في مكة قوية منيعة بدليل اشتراك أهلها في الدفاع عنها بالأرواح والأموال عند ظهور الإسلام.

ثانياً- بقاء العادات الهمجية التي لا يقرها عقل ولا دين سائدة ومعمول بها "الوَاد والسطو والثأر والغزو والقتل والسبي".

ثالثاً- لم يتحدث أهل الأخبار عن أماكن في مكة، أو عن قرى في محيطها محسوبة على النصرانية ، كما كانت الحال بالنسبة لليهود وأمثال خيبر ويثرب.

رابعاً- لم يتحدث أهل الأخبار عن أي نفوذ سياسي أو اجتماعي مارسه نصارى مكة ، بحيث ظل تأثيرهم في الأحداث محدوداً حتى ظهور الإسلام.

¹ -هاشم ، شريف محمد. الإسلام والمسيحية في الميزان. ص 73.

ويستدل مما سبق ذكره أنّ الوجود النصراني في مكة كان هشاّ مبعثرًا، محصور بأفراد قلائل من بعض القبائل ، ساقتهم ظروف مختلفة بشكل فردي نحو النصرانية ، وأنهم كانوا في معظمهم من الطبقة الدنيا في الصف الاجتماعي من العمال والرقيق الأجنبي، إضافة إلى عدد قليل من شباب مكة من الطبقة المتعلمة الموسرة قد تنصروا ، ولكنهم ظلوا بلا تأثير أو فاعلية بعد ما نبذهم أهلهم فلم يستطيعوا خدمة النصرانية بغير أنفسهم¹.
ولعل من أسباب ضعف النصرانية في مكة ما يلي :

- 1- لما عرف عن هذه الديانة من تعقيدات فلسفية نظرية جدلية يصعب على البدوي فهمها أو استيعابها وخاصة عقيدة التثليث.
- 2- قد يكون لليهود دور نشط في عرقلة الانتشار النصراني لما هو معروف عن مناهضة اليهود لكل دعوة يرون فيها خطرًا يهدد مصالحهم ونفوذهم وطبيعي أن تكون النصرانية من هذه الدعوات المرفوضة عندهم².
- 3- الانشقاق الديني الحاد الذي حصل آنذاك في صفوف النصرانية بسبب الخلاف الداخلي حول طبيعة المسيح، فليس من المستبعد أن تكون هذه الوضعية المسيحية قد عكست نفسها على أي جهد تنصيري في مكة ، فجمّدت عطلته حقبة كبيرة من الزمن حتى إذا ما جاء الإسلام كانت نهايته أو نهاية توسعه³. فقد كانت المسيحية آنذاك مذهبًا معقدًا

1 - المرجع السابق: ص 73 ، 74.

2 - المرجع السابق. ص 75.

3- المرجع السابق. ص 75.

تعددت فيه الفرق واختلفت¹؛ إذ انقسمت النصرانية في ذلك الوقت إلى عدة فرق منها تسربت فرقتان إلى الجزيرة العربية: فكانت النسطورية منتشرة في الحيرة، واليعقوبية في غسان وسائر قبائل الشام².

4- رغبة أهل مكة وهم التجار بعدم زج أنفسهم في الصراع بين الروم والفرس ، أو بين مذاهبهم المتصارعة ، حتى لا يؤثر ذلك على علاقاتهم التجارية ، فضلوا أخذ جانب الحياد ، ورفضوا أية نصرانية واحتفظوا بوثنيتهم وأصنامهم.

وقد يكون للضعف النصراني في مكة أسباب أخرى إلا أنه من الثابت أن النصرانية في مكة عند ظهور الإسلام كانت مفككة مبعثرة لا أهمية لها ولا تأثير³.

مما سبق تفصيله يتضح لنا الآتي:

1- لم يكن يوجد في مكة أحبار يهود ورهبان مسيحيين وهم الذين يمكن أن يؤخذ منهم علم الكتاب المقدس ، كما أنه لم يكن يوجد في مكة جالية يهودية ، ومما يؤكد عدم وجود أحبار يهود في مكة أن قريشاً في جدالها مع الرسول صلى الله عليه وسلم أرسلت وفدًا إلى يثرب ليسألوا أحبار اليهود فيها عن محمد ووصفه لهم وإخبارهم بقوله ، ولو كان في مكة

¹ - حسن ، د. حسن إبراهيم . (1964م) تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي . ص 74 ، ط 7 . ط 1 .

² - المرجع السابق . ص 73 .

³ - هاشم ، شريف محمد . الإسلام والمسيحية في الميزان . ص 76 .

أحبار يهود آنذاك لما استلزم الأمر أن يذهب وفدًا إلى يثرب ليسأل علماء اليهود عن النبي صلى الله عليه وسلم .

2- أنّ النصرانية في مكة عند ظهور الإسلام كانت تعاني من ضعف واضح ومحدودية أكيدة ، وليس بالحجم الذي صوره بعض المستشرقين أو الذي يحدث تأثيرًا.

3- يتبين من القرآن الكريم أنّ اتصال الرسول صلى الله عليه وسلم باليهود اتصالًا مباشرًا كان في يثرب أمّا في مكة فلم يكن لهم فيها شأن يذكر.¹

4- إنّ جميع المصادر التاريخية التي تحدثت عن الحنيفية ، لم تخلط بينها وبين النصرانية ، كما لم تعتبر أنّ المؤمنين بالحنيفية يمكن اعتبارهم نصارى. وهذا واقع في أحاديث أهل الأخبار ، وفي القرآن الكريم ، وفي المصادر الشعرية الجاهلية والإسلامية ، وفي آراء معظم المستشرقين². أمّا قول مونجمري وات أن الوثنية لم تكن قوية عند مبعث النبي صلى الله عليه وسلم وللأسف وافقه في هذا مؤرخ عربي مسلم معاصر³؛ إذ ردد قوله هذا، وهذه المقولة مردودة، فلو كانت الوثنية ضعيفة لما كانت تلك المعارضة القرشية للإسلام وتعذيبها للمسلمين في مكة ممّا

¹ - علي، جواد . المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام . 6 / 543 . بيروت . دار العلم للملايين . 1970م.

² - المرجع السابق . ص 78 .

³ - حسن ، د . حسن إبراهيم . في كتابه "تاريخ الإسلام" ؛ إذ يقول: "وعلى الجملة فإنّه لما ولد الرسول صلى الله عليه وسلم أخذت الوثنية لدى العرب في الضعف وأخذ بعضهم يؤمن بالحياة الأخرى ، وكان لليهودية والمسيحية أشياع كثيرون يؤمنون بتلك العقيدة القائلة بالتوحيد." [1 / 74].

اضطروهم إلى الهجرة إلى الحبشة وإلى يثرب " المدينة " ولما ترك النبي صلى الله عليه وسلم وطنه وهاجر بأمر من الله إلى يثرب.

وكان ذلك الصراع الحربي بين الرسول صلى الله عليه وسلم والمشركين ، والذي كان على شكل حروب متصلة ، وأشهرها بدر وأحد والخندق.

ولعل مونتجمري ذهب إلى هذا القول للتأكيد على نقطة هامة يريد إثباتها ، وهي أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم عندما هاجر إلى المدينة لم يكن يواجهه والمسلمون اضطهاد من قبل قريش ، وإنما هاجر لأنّه يتربّب مستقبل أفضل في يثرب¹.

وهذه بلا شك مغالطة تاريخية كبرى ، لأنّ اضطهاد قريش تفاقم وتعاظم وليلة الهجرة كانت قريش قد دبّرت مؤامرة لقتله صلى الله عليه وسلم وربض عند باب بيته فتيان من القبائل العربية ليضربوا الرسول صلى الله عليه وسلم ضربة رجل واحد فيتفرق دمه بين القبائل ، ولن يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعًا ، وأخبر الله رسوله بهذه المؤامرة ، وأذن له في الهجرة وترك رسول الله صلى الله عليه وسلم عليًا بن أبي طالب لينام في فراشه.

أما عن التأثيرات اليهودية والمسيحية والوثنية على الإسلام أقول:

إنّ الإسلام دين سماوي من عند الله وليس من عند البشر، ولكن هذه الحقيقة ينكرها المستشرقون وحديثهم عن التأثيرات يدحضه واقع

¹ - وات. محمد في مكة. ص 235.

الأديان الثلاثة ، فاليهودية والمسيحية والإسلام ديانات سماوية ، والمسيحية واليهودية تعرضتا إلى كثير من التحريف ، وقد بينا هذا في الجزء الأول ، واعترف علماء اللاهوت اليهود والمسيحيون بهذا التحريف ، وعند مقارنة الأديان الثلاثة نجد أنّ نظرة الإسلام إلى الخالق جل شأنه وإلى الأنبياء والرسل والإنسان تخالف نظرة اليهودية والمسيحية.

وقد اتضح لنا هذا في الجزء السابق ، فأبي تأثير هذا على الإسلام و إن كان خالفها في أهم الأسس العقائدية؟

وإن كان هناك اتفاق في بعض الشرائع اليهودية والمسيحية ، فهذا الاتفاق يكون في الأمور التي لم تتعرض إلى تحريف ، لأنّ مصدر الديانات الثلاثة واحد هو الله جل شأنه.

أمّا زعم وات وغيره بأنّ أصل التوحيد عند العرب يرجع إلى التأثيرات اليهودية والمسيحية ، فهذا قول مردود ، لأنّ اليهودية والمسيحية المحرفتين لا تقومان على التوحيد ، فاليهودية تقوم على التجسيد والحلول ، والمسيحية تقوم على عقيدة التثليث ، فأصل التوحيد عند العرب يعود إلى الحنيفية ملة إبراهيم عليه السلام.

أحوال مكة التجارية والاقتصادية قبل الإسلام

لقد ركز كل من الفريد جيوم ، وأرنولد توينبي على قلة الموارد المعيشية في الجزيرة العربية ، ولاسيما في الحجاز "مكة ويثرب" ، وذلك ليوجدا مبرراً مادياً لغزوات الرسول صلى الله عليه وسلم ولفتح الإسلامي ،

وهذا يعود إلى اتباعهما منهج التفسير المادي للتاريخ ، كما نجد توينبي يضيف مبرراً آخرًا هو التفجر السكاني.

وأكتفي بالرد على مزاعم هذين المستشرقين ما شهد به هاملتون جيب بأن مكة كانت مدينة تجارية ثرية ، وأيده في هذا مونتجمري وات ، والذي رد بنفسه على أرنولد توينبي ، وكذلك بودلي الذي تحدث عن النشاط التجاري لقريش ورحلة الشتاء والصيف وثناء مكة.

وهذا هو الواقع التاريخي لمكة ، ففي عهد عبد المطلب أصبحت لقريش صبغة دولية ، فقد كانت تربطها معاهدات سياسية واقتصادية بالدول الكبرى في العالم القديم ، وكان توقيع هذه الدول لهذه المعاهدات هو بمثابة اعتراف الدول لقريش كوحدة سياسية لها كيائها وقوامها واقتصادها¹.

فقد عقد هاشم مع الإمبراطورية الرومانية وأمير غسان معاهدة حسن الجوار والمودة، وتعهد الإمبراطور بالسماح لتجار قريش بالترحال في أراضي الإمبراطورية بسلام ، وهو أول من سير رحلتي الشتاء والصيف ، وعقد عبد شمس معاهد تجارية مع نجاشي الحبشة ، وعقد نوفل والمطلب معاهدة سياسية مع الدول الفارسية ، ومعاهدة تجارية مع الدول الحميرية العربية في بلاد اليمن ، ورأى العرب أنّ هاشمًا وعبد شمس ونوفل والمطلب جبر الله بهم قريشًا فسموا بالمجبرين ؛ إذ كانت تجارة قريش قبل هؤلاء الزعماء الأربعة لا تتجاوز مكة، فلقد كان يقدم التجارة الأجانب إلى مكة

¹ - د. الخربوطلي. تاريخ الكعبة. ص 43 .

بالسلع المختلفة فيشتري القرشيين منهم سلعهم ويتبايعون فيما بينهم أو يبيعونها لمن حولهم من العرب¹.

الرد على مزاعم توينبي عن الانفجار السكاني أسباب الفتح الإسلامي

وردًا على زعم توينبي أنّ أسباب الفتح الإسلامي ترجع إلى وجود انفجار سكاني أعقاب وفاة النبي صلى الله عليه وسلم أقول:

إنّ شبه الجزيرة العربية تعاني الآن من قلة سكانها ، فهي ذات مساحة شاسعة بل هي شبه قارة ، فقد بلغ عدد سكان شبه الجزيرة العربية الكلي حوالي 72.6 مليون نسمة عام 2011. ويشمل هذا العدد نحو 27.374 مليون نسمة من المقيمين الأجانب. وترتفع نسبة المقيمين الأجانب في شبه الجزيرة العربية أو بالأخص دول مجلس التعاون لمستويات مرتفعة جدًا، حيث بينت إحصائية في 2006 م أنّ في الإمارات قرابة 88% من السكان مقيمين ، وفي قطر 90% ، بينما في الكويت 72%

وحسب تقديرات جهاز الإحصاءات العامة والمعلومات للتقديرات السكانية المستقبلية في السعودية (منتصف 2019) فإنّ عدد السكان بلغ 34 مليون منهم 21 مليون مواطن و 13 مليون مقيم أجنبي بنسبة 38.2%.

فقد هاجر إليها عدد كبير من المسلمين ، وبصورة خاصة إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة ، وأيضًا تجنيس عدد كبير من الوافدين إلى شبه الجزيرة العربية ، فكيف حدث انفجارًا سكانيًا قبل أربعة عشرة قرنًا ؟

¹ - المرجع السابق: ص 43.

ولعل عدد الجيوش التي كانت تقاتل في الحروب ، وعدد جيوش الفتح الإسلامي تعكس لنا عدد سكان الجزيرة آنذاك ، ففي مؤتة كان عدد جيش المسلمين ثلاثة آلاف من المهاجرين والأنصار، وخرج لفتح مكة عشرة آلاف، وقيل اثني عشرة ألفًا، وجيش أسامة بن زيد كان ثلاثة آلاف ، وكان عدد الجيش الإسلامي في اليرموك بقيادة خالد بن الوليد 40 ألفًا مقاتل ، وقيل 45 ألفًا، بينما كان عدد الجيش الرومي 200 ألف مقاتل وقيل 140 ألفًا...!! علمًا بأن خروج المسلمين للجهاد يشكل تقريبًا عدد القادرين على القتال وحمل السلاح ، فإن كان عدد جيش المسلمين لقتال أكبر دولة آنذاك ، وهي الإمبراطورية الرومانية ما بين 40 إلى 45 ألف مقاتل ، فكم يكون عدد سكان الجزيرة آنذاك؟.أعتقد أنّ لو المؤرخ أرنولد توينبي قاس نسبة عدد الجيش المشارك في اليرموك والقادسية إلى ما يمكن أن يكون عليه عدد السكان لاستبعد قطعًا فكرة الانفجار السكاني ، ولكن خضوعه تحت تأثير منهج التفسير المادي للتاريخ في كتابه التاريخ الإسلامي ، وهو المنهج الذي سار عليه معظم المستشرقين في كتاباتهم عن التاريخ الإسلامي جعلوه يستبعد عن تفكيره هذا الجانب.

موقف المدرسة الاستشراقية الإنجليزية من قصة أصحاب الفيل

والرد عليه

لقد اعتبر وليم موير الرواية الإسلامية لحملة الحبشة على مكة أسطورة مزيفة¹.

¹ - انظر: سفر الملوك، ص 19:

أمّا الفريد جيوم فهو يرى أنّ سبب هزيمة جيش أبرهه هو اجتياح صفوف الأعداء وباء الجدري، فاضطر للانسحاب ، ومات المئات من جيش أبرهه على جوانب الطرقات في طريق عودتهم إلى الحبشة.

ويقرر أنّ هذه هي الوقائع الثابتة ، واعتبر ما ورد في القرآن الكريم عن أصحاب الفيل مجرد أسطورة ، فيقول: "ولكن الأساطير العربية أضافت إلى القصة عنصر المعجزات ، فتقول: عن الله قد أرسل جماعات من الطير أخذت كل منها تلقي على العدو ثلاثة أحجار صغيرة ، وكان كل طائر يحمل حجرين في مخليبه وحجرًا في منقاره ، كل جيش أصابته الحجارة هلك الساعة. وقد أشار القرآن إلى هذه القصة في سورة الفيل... " ثم يعلق قائلاً: "إنّ الغرض الذي ترمي إليه هذه الأسطورة ، هو أنّ مكة حيث الكعبة التي رفع قواعدها إبراهيم هي بيت الله ، وأنّه جل شأنه قد أنقذها بمعجزة من الدمار. ثم يقارن هذه الحادثة بحادثة مشابهة لها في بعض الوجوه وردت في التوراة ، ويستمر الفريد جيوم في إيراد مبرراته لاعتبار قصة أصحاب الفيل ، كما وردت في القرآن من قبيل الأساطير العربية التي أضيفت إليها عنصر المعجزات ، فيقول: "وإنّ القصص الخاصة بالأضواء الغامضة والخوارق السماوية الموجودة في تواريخ حياة الرسل لتجري على هذا النسق ، فهي ليست من التاريخ في شيء ، ولكنها روايات مخترعة لإحاطة ذكرى هؤلاء الرجال الذين اختارهم الله رسلاً للناس بهالة من الفخار، بيد أنّ هذه الأساطير ليست من جوهر الدين قط ، وشخصية الرسول يجب أن تكون قادرة على الوقوف بنفسها ، فإذا

استطاعت ذلك ، فهي غير محتاجة إلى خوارق ، وإذا لم تستطع فالخوارق لا تكون في هذه الحالة غير انتقاص من صحة الروايات كلها ؛ إذ أنّها تدخل فيها عنصراً يمكن تصديقه"¹.

الرد على موقف جيوم من قصة أصحاب الفيل

وقول جيوم هذا يوضح لنا منهجه الذي سيتبعه في كتابه "السيرة الموجزة للرسول صلى الله عليه وسلم "لإنكار ما يرد إنكاره بدعوى أنّه من قبيل الأساطير العربية المضاف إليها عنصر المعجزات مبيّناً أنّ محمداً ما هو إلا أحد عظماء التاريخ الذين غمرهم الإيمان بوجود إله واحد ، وأنّه كرجل سياسي واجه مشاكل في غاية التعقيد ، فيقول جيوم موضعاً هذا المنهج "وعلى هذا الأساس وجب أن نترك حياة محمد مجردة من كل هذه الأقاويل التي أضيفت بغير قصد سيء ، ودون تمحيص لتتحدث عن نفسها ، وكل ما يريد أن يفهم موقف المسلم المتدين في هذا الصدد وجب عليه أن يتذكر كيف أنّ قصة ميلاد المسيح والنجم "الذى توقف فوقه ، وهو الطفل الوليد متأصلة في قلوب المسيحيين ومحبة إليهم ، فإذا أظهرت قصص مماثلة في ترجمة حياة محمد من النظر إليها بعين الرعاية والتقدير ، فهذا أمر ليس على جانب كبير من الأهمية ، إلا أنّنا يجب أن نراعي في هذا الصدد أنّ القاضي كثيراً ما يذكر في روايته "قيل أن" أو

¹ - جيوم ، الفريد . الإسلام، ص23.

"كما يقولون" وهذا دليل كاف يبين لنا موقفه من بعض الأساطير الدينية التي يثبتها في روايته¹.

وأقول ردًا على هذا القول: إنّ قصة أصحاب الفيل أخبر عنها الله عز وجل في كتابه العزيز، وهو قول حق من الحق سبحانه وتعالى ، فلا شك فيه ، وكذلك معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم كمعجزة الإسراء والمعراج وانشقاق القمر فلقد وردت في القرآن الكريم ومعجزته الكبرى القرآن الكريم ، فهذه المعجزات ليس فيها "قيل أن" و "كما يقولون" .

وكما هو واضح أنّ الفريد جيوم يتبع المنهج المادي ، فهو ينكر معجزات الأنبياء ، وهو يريد أن يعمل من هذا الإنكار أي إثبات أنّ النبي محمدًا صلى الله عليه وسلم ليس مرسل من عند الله ، فزعم وجود آية قرآنية تثبت أنّ الله أرسل طيرًا أبابيل على جيش أبرهه ترميهم بحجارة من سجيل ، إلاّ أنّه يزعم أنّ هذه أسطورة من الأساطير، كما أنّه لا يريد إعطاء الكعبة هذه القدسية وأنها بيت الله.

أمّا قوله إنّ وباء الجدري حل بجيش أبرهه ، فهذا قول يؤيد رمي الطير الأبابيل حجارة من سجيل ، إذا أصابتهم بوباء شبيه بوباء الجدري قضى عليهم في الحال ، لأنّ وباء الجدري لا يؤدي إلى الموت ، ولو كان هناك وباء فلماذا اقتصر انتشاره على جند أبرهه؟ لماذا لم يصب أحد من أهل مكة؟

¹ - جيوم ، الفريد . الإسلام ص 24.

موقف وات من قصة أصحاب الفيل

فننتقل الآن إلى موقف مونتجمري وات من قصة أصحاب الفيل ، وفي البداية نجده يشكك في مكانة عبد المطلب ، فيقول: "لقد نقل إلينا ابن إسحاق رواية عن مفاوضة عبد المطلب لأبرهة خال هذه الحملة ، وإذا كانت بعض أجزاء هذه الرواية كالقول بأنّ عبد المطلب كان كبير القرشيين وسيدهم مستوحاة بدون شك من الرغبة في تمجيد قبيلة هاشم ، فربما كانت قصة المفاوضات منقولة بصورة صحيحة ، ولكن يجب تفسيرها على أنّها لقاء يهّم فئة صغيرة من القرشيين "من بينهم دؤيل وهزيل" بينما سائر القرشيين لم يأبهوا له فإن كان الأمر كذلك ، فمن الممكن أن يكون عبد المطلب قد حاول الاستعانة بالأحباش على أعدائه القرشيين كقبائل عبد شمس ونوفل ومخزوم ، ويبدو أنّ الأولين قد استوليا في هذا الوقت على القسم الأكبر من التجارة مع سوريا واليمن بعد أن كانت سابقاً بأيدي هاشم وعبد المطلب ، فكانت القبائل الموسرة تحاول أن تتبع سياسة محايدة في وجه سياسة المطلب الموالية للحبشة ، ولا يمكننا البت فيما إذا كان أبرهه قبل مقترحات عبد المطلب ، أو رفضها لعلمه بأنّه لا يملك القوة الكافية لذلك، وعلى كل حال فلقد انتهت الحملة بدون طائل ؛ إذ فتك الطاعنون بالجيش الحبشي¹.

وهنا نلاحظ اختلافاً بين جيوم ووات في حال جيش أبرهه ؛ إذ قال جيوم إنّ وباء الجدرى هو الذى قضى على جيش أبرهه ، بينما وات قال

¹ - وات ، مونتجمري . محمد في مكة . ص 37 ، 38.

"وباء الطاعون" واضطراب الروايات لديهما يدل على أنّهما لم يصلا إلى تفسير بسبب هلاك جيش أبرهة ، والذي أوقعهما في هذا الاضطراب إنكارهما أنّ الله أرسل طيرًا أبابيل جعلت جيش أبرهة كعصف مأكول ، واضطرابهما واختلافهما نابع من عدم قدرتهما لتعليل وتفسير ما حدث.

أمّا ما ذهب إليه وات بأنّ عبد المطلب استعان بالأحباش ضد منافسيه من أهل قومه ، ولهذا كانت الحملة على مكة ، فإن وات لم يدلنا على المصادر التي استعان بها للوصول إلى استنتاجاته هذه ، وهي نتائج باطلة ليس لها أساس واقعي أو تاريخي يسندها ويعضدها ، ثم لو كان ذلك صحيحًا لماذا لجأ عبد المطلب إلى الجبال والشعاب بعد أن دعا ربه إنقاذ بيته من المغيرين¹؟

وإن كان وات جاء بسبب للحملة لا أساس له من الصحة ، ولا يستند على الواقع البتة ، فإنّ بودلي لم يقرأ كتب السيرة جيدًا ؛ إذ يقول إنّ عبد المطلب قاد جيشًا لرد الأحباش ، وكأنّه لم يسمع أو يقرأ سورة الفيل ، فيقول: "هاجم الأحباش بلاده قبل مولد محمد مباشرة ، وقد استصحبوا فيلة ، واستخدموا وسائل حرب لم يكن للعرب بها من علم ، فقاد عبد المطلب جيشًا رد به المعتدين عن دياره"²

من هذا العرض السريع لموقف مستشريقي المدرسة الإنجليزية من قصة أصحاب الفيل ، نجدهم كعادتهم فسروا الحادثة تفسيرًا ماديًا ، وأنكروا

1 - الحاج ، د. ساسي . الظاهرة الاستشراقية . 50 / 3 .

2 - بودلي . الرسول حياة محمد . ص 31 .

تمامًا ما جاء في القرآن الكريم ، واعتبروه أسطورة مزيفة مبعدين تمامًا الدافع الديني المحض الذي كان وراء هذه الحملة ، وهو إصرار أبرهة على هدم الكعبة ليلزم العرب بالحج إلى "القليس" الذي بناه وذلك بعدما قام نفر منهم بتدنيس "القليس" ، فاستشاط غضبه ، فعزم على تخريب الكعبة حتى يكره الناس على الحج إلى الكنيسة فحمى الله بيته وأرسل الطير الأبابيل التي رمت أبرهة وجنده بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول. فالله حمى بيته من التدمير ، لأنّ أبرهة أراد أن يصرف الناس عنه إلى بيت هو بناه.

فإنكار المستشرقين لقصة أصحاب الفيل كما وردت في القرآن الكريم، وبعدهم عن السبب الديني الحقيقي الذي كان وراء هذه الحملة ومحاولتهم إيجاد أسباب أخرى واهية لا سند تاريخي لها ، كلها محاولات منهم لإلغاء قدسية الكعبة ، وأنها بيت الله تمامًا ، كما أنكروا من قبل ، وكما تبين لنا من الفصل السابق بناء إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام للكعبة وبأمر من الله.

الفصل الثاني

دعوى نقي البشارة بنبي الإسلام محمد

صلى الله عليه وسلم

دعوى نفي البشارة بنبي الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم

لقد أجمع المستشرقون على إنكار نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، مع أنّ البشارة بهذا النبي العربي الأمي وردت في آيات كثيرة من التوراة والإنجيل ، فاليهود والنصارى ، كما قال عنهم جل شأنه ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾¹

وتجاهل المستشرقين البشارة بنبي الإسلام في التوراة والإنجيل أكبر دليل على عدم حيدتهم وموضوعيتهم ، وعدم التزامهم بالمنهج العلمي الذي يدعونه ، فنحن لو قرأنا الأسفار الخمسة المنسوبة لموسى عليه السلام والأنجيل الأربعة الرسمية سنجد فيها آيات كثيرة تشير إلى نبي الإسلام.

أولاً: البشارات من التوراة

ففي العهد القديم في نص النسخة المنقحة " R.S.V. ² التي نشرتها جمعية الكتاب المقدس البريطانية "وأقيم لهم نبياً من وسط أخوتهم مثلك وأجعل كلامي في فمه" ³.

فإن لم تتحقق هذه النبوءة في محمد فإنّها تبقى غير متحققة حتى الآن، أمّا عيسى المسيح فإنّه لم يدّع قط أنّه النبي المشار إليه، وكان الحواريون بعده يتطلعون إلى عودته مرة ثانية لن تتحقق النبوءة فالمسيح ،

1 - البقرة : 186.

2 - البرفسور داود ، عبد الأحد . (1418هـ / 1997م) محمد صلى الله عليه وسلم كما ورد في كتب اليهود والنصارى . ص 20 . ترجمة محمد فاروق زين . ط 1 . الرياض . مكتبة العبيكان.

3 - سفر التثنية : 18:18.

كما تؤمن به الكنيسة سوف يظهر كقاضي وليس كمشرع ، بينما النبي الموعود هو الذى يجيء حاملاً الشريعة المشعة بيده اليمنى¹ .

وللتأكد من شخصية النبي الموعود نستند إلى البشارة الأخرى التي تتحدث عن النور المشع القادم فاران أي جبال مكة ، وهذه البشارة واردة في سفر التثنية 33 : 2 وهذا نصها: (جاء نور الرب من سيناء فأشرق لهم من ساعير)² وتلاً من جبل فاران³ ، وجاء معه عشرة آلاف قديس والشريعة المشعة بيده اليمنى.

وهذه هى البركة التي بارك بها موسى رجل الله ببني إسرائيل قبل موته.

"لقد تزوج إسماعيل امرأة مصرية"⁴ ، ومن لده الأول قيذار انحدر أحفاده العرب الذين سكنوا قيفار فاران ، وكان منهم محمد الذي دخل مكة مع عشرة آلاف قديس (مؤمن) وجاء بنور الشريعة إلى شعبه ، لقد تحققت تلك النبوءة في محمد حرفياً⁵؛ إذ دخل مكة فاتحاً ومعه عشرة آلاف مسلماً،

1 - سفر التثنية : 23:2.

2 - ساعير، أو أرض سعيير أو سير :سلسلة جبال ممتدة في الجبهة الشرقية من وادي عربة من البحر الميت إلى خليج العقبة . [أحمد . إبراهيم خليل . (1409هـ / 1989م) محمد صلى الله عليه وسلم في التوراة والإنجيل والقرآن. ص 65. القاهرة. دار المنار.

3 - فاران : هو مكان سكنى إسماعيل المبارك، وسكن في بريا فاران [سفر التكوين 21 : 21] وقصده أنه ستنزل شريعة إلهية في فاران، كما نزلت التوراة في طور سيناء .[د. السقا. (1409هـ / 1989م) أحمد حجازي . البشارة بنبي الإسلام في التوراة والإنجيل. ص 63 ط1.]

4 - سفر التكوين : 21:21.

5- البرفسور عبد الأحد داود "قسيس أرميا في إيران سابقا ،وأستاذ اللاهوت، وكان اسمه قبل إسلامه.ديفيد بنجامين كلداي: محمد صلى الله عليه وسلم كما ورد في كتاب اليهود والنصارى، ص 21.

ولكي نتفهم هذه المعاني فلنتدبر ما جاء في القرآن الكريم من قوله تعالى ﴿ وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سَيْنِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝١ ﴾

ففي هذه الآية القرآنية الكريمة نجد تطابقاً في الوسيلة والتعبير؛ إذ أقسم الله تعالى ببقاع مباركة عظيمة ظهر فيها الخير والبركة، فالتين والزيتون مجاز عن منابتها بالأرض المباركة، وفيها مهجر إبراهيم ومولد عيسى ومسكنه عليهم السلام، وطور سينين الجبل الذي كلم الله عليه سيدنا موسى عليه السلام والبلد الأمين مكة المكرمة، التي ولد فيها وبث منها أشرف الخلق، وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وفيها البيت العظيم.

والتطابق بين الآية التي وردت في التوراة والآية القرآنية هو: سيناء مجاز عن الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام وسعير مجاز عن الأرض المباركة التي ولد فيها سيدنا عيسى عليه السلام، وسكن بها وجال فيها يصنع خيراً للبشرية، وفاران مجاز عن الأرض التي سكن إليها جد الرسول الكريم سيدنا إسماعيل عليه السلام².

وتوجد نبوءة ثالثة أو بشارة ثالثة في سفر حبقون 3: 3، وهي كما يلي: "القديس من جبل فاران، مجده غطى السموات والأرض امتلأت بحمده" إن كلمة (حمد) هنا ذات مغزى هام، ذلك أن اسم (محمد) بالذات يعني حرفياً (المحمود)، وفوق هذا فإن العرب وهم سكان قفار (فاران)

1 - التين : 1-3.

2 - أحمد، إبراهيم خليل . محمد في التوراة والإنجيل والقرآن . ص 66.

كانوا قد وعدوا أيضًا بنزول الوحي: "لترفع البرية والمدن صوتها الديار التي سكنها قي دار ، سكان الجبال ليهتفوا من أعاليها ، وليمجدوا السيد ، وليعلنوا حمده في الجزر السيد سيخرج جبارا ، ويسير الحمية كرجل حرب ويهتف ويدوي وينتصر على أعدائه ."¹

وفي سفر أشعيا بشارة أخرى وهذا نصها: "أنهض فقد جاء نورك ومجد الرب أشرق عليك ، ها هي العظمة تغطي الأرض والأمم ، أما عليك فيشرق نور الرب ويرى مجده عليك فتسير الأمم في نورك والملوك في ضياء إشراقك تغطيك أعداد الجبال الكثيرة جمال مدين وعيفة ، كلها تأتي من شيبة تحمل ذهبًا وبخورًا كل غنم قي دار تجتمع إليك وأكباش نبايوت تخدمك تقعد مقبولة على مذبحي ، وسوف أعظم بيت مجدي) وبشارة أخرى هامة في سفر أشعيا أيضًا تقول: "وحي من جهة بلاد العرب في الوعر في بلاد العرب تبيتين يا قوافل الدانيين هاتوا ماء لملاقة العطشان يا سكان أرض تيمان وافوا الهارب بخبزه فإنهم من أمّا السيوف قد هربوا ومن أمام القوس المشدود ومن أمام أهوال الحرب فإنّه هكذا قال الرب في مدة سنة (كسنة الأجير) يسقط كل مجد قي دار ، وبقية الأقواس من أبطال بني قي دار تتحل"² .

والبشارتان الأخيرتان ترتبطان بين تلك التي وردت في سفر التثنية عن "النور المشع القادم من فاران" .

1 - أشعيا: 42 : 11 . 13 .

2 - أشعيا : 21 : 13 - 17 .

لقد سكن إسماعيل في قفار فاران (حيث ولد له قيدار ، وهو الجد الأكبر للعرب ، وكتب على أولاد قيدار أنّ يأتيهم الوحي من الله ، وأنّ تقديم الأضاحي تمجيداً لـ "بيت الله" حيث كان الظلام يلف الأرض لقرون عديدة ، كما كتب على أحفاد قيدار ورماتهم وأبطالهم أن يتحملوا خلال سنة واحدة بعد الهجرة أمام السيف المسلول والقوس المشدود ، فهل هناك من يعنيه غير شخص واحد من فاران هو محمد"؟).

فحجر هو من نسل إسماعيل وقيدار ، ومحمد هو النبي الوحيد الذي تقبل العرب عن طريقه الوحي الإلهي عندما كان الظلام يلف الأرض ، ومن خلال إشعاع النور الإلهي في فاران ، ومكة هي البلد الوحيد التي يعظم فيها بيت الله ، وفيها تقدم الأضاحي عند بيت الله ، لقد اضطر محمد بعد أن اضطهده قومه للهجرة من مكة وانتابه العطش أثناء هربه من السيوف المسلولة والأقواس المشدودة ، وبعد عام واحد من هجرته ، قابله أحفاد قيدار من مكة في موقعة بدر وانهزم أحفاد قيدار "الذين يحملون الأقواس" ثم انحسرت كل أمجادهم ، فإذا لم تقبل محمد على أنّه النبي تحققت فيه كل هذه النبوءات ، فإن كان ذلك يعني تلك النبوءات لم تتحقق بعد ، كما أنّ (بيت الرب الذي يمجد اسمه فيه).

والمشار إليه في سفر أشعيا (60 : 7) هو بيت الله الحرام في مكة وليس كنيسة المسيح كما يعتقد المفسرون المسيحيون ، وأضاحي قيدار كما هو مذكور في سفر أشعيا (60 : 7) لم تقدم على مذبح كنيسة المسيح ، كما أنّ أحفاد قيدار هم الوحيدون الذين لم يتأثروا بأية تعاليم من كنيسة

المسيح ، وكذلك فإنّ قصة عشرة آلاف قديس في سفر التثنية 23 : 2 ذات مغزى هام ، لأنّ حادثة فتح مكة هي الوحيدة في تاريخ فاران التي حققت تلك القصة لقد دخل محمد مكة على رأس عشرة آلاف مؤمن من اتباعه ، لقد عاد إلى بيت الله وبيده اليمنى خاتمة الشرائع¹.

وجاءت في سفر حجي هذه البشارة الهامة وهذا نصها: "وسوف أزلزل كل الأمم، وسوف يأتي (حمده) لكل الأمم ، وسوف أملاً هذا البيت بالمجد ، كذلك قال رب الجموع لي الفضة ، ولي الذهب هكذا قال رب الجموع ، وإنّ مجد ذلك البيت الأخير يكون أعظم من مجد الأول ، هكذا قال رب الجموع ، وفي هذا المكان أعطى الـ (شالوم) هكذا قال رب الجموع"² ، وقد ترجمت الكلمة العبرية حمده إلى الأمنية وشالوم إلى السلام ؛ إذ فسرت على أنّها نبوءة مسيحية ، وفسرت هذه النبوءة بالمعنى المجرد لكلمتي (حمده) و (شالوم) على أنّه الأمنية والسلام ، ولكن الترجمة الصحيحة هي حمدو تعني أحمد وشالوم تعني الإسلام³. واسم النبي أحمد ورد في القرآن الكريم ، وفي الإنجيل ، يقول تعالى {واذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إنّي رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد}⁴ وفي إنجيل يوحنا الذي كتب باليونانية ورد اسم: باراكيلوتوس paracletos وهو صيغة غير معروفة في

1 - داود. محمد صلى الله عليه وسلم كما ورد في كتاب اليهود والنصارى. ص 21 ، 23.

2 - سفر حجي : 9 : 7-9.

3 - انظر عبد الأحد داود. محمد صلى الله عليه وسلم كما ورد في كتاب اليهود والنصارى . ص 37 ، 38.

4 - الصف : 6.

الأدب الإغريقي ، ولكن كلمة "بيركلييتوس" periquilytos هي التي توافق وتطابق تمامًا اسم "أحمد" في معناه ومغزاه ، ولا بد أنّها كانت الترجمة اليونانية الأصلية لكلمة (حمده) الآرامية كما لفظها عيسى المسيح¹ .

هناك نبوءة بنبي الإسلام في سفر التكوين، فعندما حضر الموت يعقوب عليه السلام جمع أولاده الاثنى عشر حوله وباركهم وأوصاهم وأخبرهم بما يعينهم في مستقبل أيامهم ، وقال لهم في شخص يهوذا ابنه الرابع "لا يزول قضيب من يهوذا أو مسترع من بين رجليه حتى يأتي شيلون، وله يكون خضوع شعوب"² .

ونلاحظ هنا أنّ كاتب التوراة قد حرف الكلم من بعد مواضعه فوضع النبوءة تحتل معنيين هكذا:

1- وضع كلمة عبرانية تترجم:

أ . بالقضيب

ب . وبالسبط

2- وضع كلمة عبرانية تترجم:

أ . باسم قرية شيلون

¹ -المرجع السابق. ص 38. وانظر المرجع نفسه في توضيح معنى البركلتوس . ص 94 إلى 200 . كما أشار الدكتور محمد أبو شهبه أنّ المستشرق الإيطالي فليينو عندما سأل عن معناها قال إنّ القصص يقولون معناها المعزي ، ولكن عندما طلب منه أن يقول معناها لنا باللغة اليونانية القديمة، فقال معناها حمد كثير. [السيرة النبوية. ص 253].

² - التكوين : 49:10.

ب . وصفة لشخص . ويكون المعنى الأول : لا يزول الملك من اليهود ، والشريعة بعمل الناس بها في ظل ملك بني إسرائيل حتى يأتي النبي المنتظر نبي الأمان والسلام .

والمعنى الثاني هو لا يزول من الحياة سبط يهوذا والشريعة بعمل الناس بها في ظل الملوك من سبط يهوذا حتى يملك السبط على مدينة شيلون¹ .

ولمّا كان النص مشكلاً فقد اختلفت ترجمته² .

ومن خلال تلك التراجم عن اليهود والنصارى قديمها وحديثها يتضح المعنى ، وهو أنّ المراد بالقضيب الملك والصولجان والمراد بالراسم أو المشرع : الأنبياء والعلماء الذين يعلمون الناس شريعة التوراة ويستنبطون الأحكام منها والمراد بشيلون: النبي المنتظر الذي يقبونه : سيا، الذي تفسيره المسيح هو نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم الذي متى جاء تخضع له الشعوب وتطيع³ .

واختلفت اليهود والنصارى في المقصود بشيلون ، فاليهود تقول هو داود عليه السلام ، بينما تقول النصارى هو عيسى عليه السلام .

وعند قراءة التاريخ نجد أنّ الملك لم يزل من بني إسرائيل إلا على يد بني إسماعيل أتباع محمد صلى الله عليه وسلم ونبوءة يعقوب عليه السلام

¹ - د . السقا ، أحمد حجازي . البشارة بنبي الإسلام في التوراة والإنجيل . ص 151 إلى 152 .

² - انظر المرجع السابق . ص 152 ، 153 . وانظر عبد الأحد داود . محمد صلى الله عليه وسلم في كتاب اليهود والنصارى . ص 61 . 68 .

³ - المرجع السابق . ص 54 .

تتفق مع ما جاء في قوله تعالى : ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ أَبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

فقد قرن الله عز وجل بين أمتين اثنتين واحدة قد خلت وهي أمة بني إسرائيل وأخرى باقية وهي أمة بني إسماعيل.

وقد قال الله عن هذا القول بعد حديثه مباشرة عن بركة إسماعيل ليدل به على أنّ أمة بني إسرائيل قد زال ملكها وزالت شريعته على يد النبي الآتي من إسماعيل للبركة¹.

¹-السقا، د. أحمد حجازي . مرجع سابق . ص 193.

أوصاف النبي الآتي من بني إسماعيل في التوراة

لقد بينت التوراة أوصاف النبي الآتي من بني إسرائيل لتبارك الأمم في نسله كما تباركت من قبل في نسل بني إسحاق ، فبينت أنه:

1 _ نبي.

2 - من بين أخوة بني إسرائيل أي من بني إسماعيل.

3- مثل موسى.

4- ناسخ لشريعة موسى.

5- أنه نبي أمي لا يقرأ ولا يكتب.

6 . أمين على الوحي.

7 . سوف يقضى على بني إسرائيل إذ لم يؤمنوا برسالته.

8 . لن يقتل.

9 . سوف يتحدث عن أمور غيبية تحدث في مستقبل الأيام¹.

هذه بعض البشارات والنبوءات التي وردت في العهد القديم ، وهناك نبوءات عن الإسراء والمعراج وتغيير القبلة سأوضحها عند الحديث عن الإسراء والمعراج وتغيير القبلة إن شاء الله.

¹ - انظر: سفر التثنية الاثتراع . ص 16 . 23.

ثانياً: البشارة بالنبى محمد صلى الله عليه وسلم فى العهد الجدى

"الأنجيل"

لقد حاول المترجمون للعهدىن القدىم والجدىم ترجمة النصوص التى تبشر بالنبى محمد صلى الله عليه وسلم أو التى تنبأ بمقدمه بترجمات خاطئة تستبعد البشارة بنبى الإسلام ، ولكن الله دحض محاولاتهم وكشف تلاعبهم عندما قىض لدينه علماء مسلمىن ، وعلماء لاهوت وقساوسة أسلموا على علم باللغات السامىة واليونانىة القدىمة ، واستطاعوا أن يوضحوا أخطاء تلك الترجمات ويقدموا الترجمات الصحىة .

فمن تصحىح تلك الترجمات الخاطئة: كلمة يودوكىا Eudokia

والتى وردت فى إنجيل لوقا 2 : 14¹.

و تعنى: أحمد وأن ابن الإنسان المنتظر "البارناشا" هو الأحمد الجدىر بالثناء الذى جاء وقضى على الوحش الكبىر وبذلك تكون الأنشودة الملائكىة فى معناها الحقىقى كما يلى: المجد والحمد لله فى الأعالى ، أوشك أن يجىء الإسلام للأرض ، يقدمه للناس أحمد².

بىنما نجد ترجمته فى دار الكتاب المقدس فى الشرق الأوسط كالتالى "المجد لله فى الأعالى ، وعلى الأرض السلام وبالناس المسرة" أيضاً هنا تصحىح لكلمة البىركلىتوس periquylos ؛ إذ كتبها الكنسىون الباراكلىت

¹ - لم ترد كلمة يودوكىا فى الكتاب المقدس الذى بىن ىدى وهو ترجمة دار الكتاب المقدس فى الشرق الأوسط.

² - داود .مرجع سابق . ص 148 .

paraclete وترجمتها إلى المعزي¹ ، أي الشفيح وإنما تعني من الناحية اللغوية اليونانية البحتة "الأمجد" و "الأشهر" و "المستحق للمديح" والاسم مركب من مقطعين الأول peri والثاني kleitos مشتق من التحميد والثناء ويكتب perikleitos مما يعني تمامًا اسم أحمد باللغة العربية أي أكثر ثناءً وحمدًا.

هذا وتحتوي ترجمة البشيتا السريانية للكتاب المقدس على كلمة "برافليطا" دون تفسير أو شرح أو ترجمة لمعناها غير أن الترجمة اللاتينية المعتمدة ، وهي الـ "فالجيت" vilgate ترجمت هذه الكلمة إلى المعزي². فالكلمة الآرامية الأصلية لم تكن سوى محمده أو حميده وهي تقابل كلمة محمد أو أحمد بالعربية ، كما أنها تقابل البيركلتوس اليونانية³. والمنخما بالسريانية وتفسيرها بالرومية الفارقليط، وفي الآية ستة من سورة الصف أعلن عيسى بن مريم قائلاً "ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد" .

أمّا الروح القدس الذي في الإصحاح الخامس عشر آية 16 في إنجيل يوحنا بهذا النص.

"وأما المعزي الروح القدس الذي سيرسله الأب باسمي فهو يعلمكم كل شيء، ويذكركم بكل ما قلته لكم".

¹ - انظر يوحنا 14 : 15، 26 : 19 .: 26 وعلماء أهل الكتاب حريصون على النطق الثاني للكلمة ، لأنّ النطق الأول يصرح بمحمد صلى الله عليه وسلم فالبيراكلوس إلى باراكليتوس كما بدّلوا حطة إلى حنطة "محمد إبراهيم حجاج: إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم . ص 4"

² - داود . مرجع سابق . ص 197.

³ - داود . مرجع سابق . ص 198.

فالروح القدس هنا لا تعني شخصًا بذاته، وإنما تعني هبة الله¹ وبذلك يكون المعنى الصحيح، وأمّا أحمد (محمد) هبة الله الذي سيرسله الله باسمي، وهو يعلمكم كل شيء ويذكركم بكل ما قلته لكم.

والذي نخلص به من هذا البحث : أننا قد توصلنا إلى الكيفية التي تم بها تحريف اليهود والنصارى الكلم عن مواضعه ؛ إذ عبث وُضاع التوراة ومترجمو الأناجيل بمعاني الكلمات الأصلية وأخطرها معان بعيدة عن معناها الحقيقي ليطمسوا كل ما يشير إلى ظهور الإسلام ، ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، ولهذا يخدم في مجامعهم الكنسية أقرؤا الأناجيل الأربعة من العهد الجديد ، واستبعدوا إنجيل برنابا الذي يخالف الأناجيل الأربعة في الآتي :

- 1- أن يسوع أنكر ألوهيته وكونه ابن الله ، وذلك على مرأى ومسمع من ستمائة ألف جندي وسكان اليهودية من نساء ورجال وأطفال.
- 2- أن الابن الذي عزم إبراهيم على تقديمه ذبيحة لله ، إنما هو إسماعيل لا إسحاق عليهما السلام ، وأن الوعد إنما كان لإسماعيل.
- 3- أن مسيا أو المسيح المنتظر عيسى ليس هو ياسوع بل محمد ، وقد ذكر محمدًا باللفظ الصريح المتكرر في فصول ضاحية الزيوى ،

¹ - لقد ورد في إنجيل لوقا على لسان عيسى أن الروح القدس هبة من الله "عبد الأحد داود. ص 187، وأنظر: أيضاً ذات المرجع ترجمة . فهمي الشماص. ص 212 . قطر . رئاسة المحاكم الإسلامية . 1410هـ / 1990م.

وقال إنه رسول الله وأنّ آدم لما طرد من الجنة رأى مسطوراً فوق بابها بأحرف من نور لا إله إلا الله محمد رسول الله".

4- إنّ يسوع لم يصلب بل حمل إلى السماء ، وأنّ الذي صلب إنّما كان يهوذا الخائن الذي شبه به فجاء مطابقاً للقرآن ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ﴾¹ ، والكنسيون عندما أقرأوا الأناجيل الأربعة كانوا مطمئنين إلى ما فيها من تحريف للمعاني الأصلية ، وأنّ أحداً لن يصل إلى المعاني الأصلية ﴿ ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ﴾ فالله مظهر لدينه كله قبيض للإسلام علماء يهود ونصارى أسلموا وعلماء مسلمين ملمين بالأديان واللغات القديمة ، واطلعوا على الأصول المترجمة منها ، وكشفوا لنا زيف ما في التوراة والإنجيل من تحريف.

إنّ البشارات بمحمد صلى الله عليه وسلم قد حصرها أحد الباحثين² بثمانية عشرة بشارة³.

¹ - النساء: 157.

² - الهندي ، رحمة الله . (1408هـ / 1988م) إظهار الحق ، 2 / 203 - 239 ، ط1 . بيروت . دار الجيل .

³ - هذه البشارات وردت في سفر التثنية 18 : 17 - 22 و 32 : 11 ، 33 : وسفر التكوين 21 : 20 - 21 و 17 : 20 و 49 : 10 ، الزبور 45 : 1 - 18 ، أشعيا : 65 : 1 - 6 ، دانيال 2 : 31 - 45 رسائل يهوذا "إنجيل متى 3 : 2 ، 42 : 12 ، 17 ، 23 ، 10 ، إنجيل لوقا 9 ، متى 13 : 31 - 32 ، 21 : 33 - 45 وفي البيان الثاني من المشاهدات وفي أواخر إنجيل يوحنا .

إرهاصات النبوة

من الإرهاصات الدالة على نبوته صلى الله عليه وسلم:

. ما ثبت بطرق صحيحة قوله صلى الله عليه وسلم: (أنا دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى، رأت أمي حين حملت بي كأنّ نوراً خرج منها أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام)¹ - تسليم الحجر عليه قبل النبوة ، كما أخبر ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إنّي لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أبعث إنّي لأعرفه الآن)²

إنّ أول ما بدأ به الوحي الرؤيا الصادقة، فكان لا يرى رؤية إلا جاءت مثل فلق الصبح، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: (أول ما بدأ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم ، فكان لا يرى رؤية إلا جاءت مثل فلق الصبح)³

العزلة والتحنث فكان يعتزل قومه في غار حراء ، وهو جبل حراء ويطل الغار على الكعبة ، ويحتاج صعوده إلى جهد ويستغرق نصف ساعة

¹ - أخرجه أحمد في المسند العريص ابن ثارية وعن أبي إمامة وعن أبي النضر وعن فرج ورواه الحاكم في المستدرک بمثل سند أحمد ، وقال هذا حديث صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي ، ورواه ابن إسحاق بإسناد حسن كما في سيرة ابن هشام ، إذ أن جهالة الصحابي نية لا تضر؛ ولذا قال عنه ابن كثير في البداية وهذا إسناد جيد قوي" [أحمد ، د. مهدي رزق الله . (1412هـ / 1992م) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية. ص 112، ط1 . الرياض . مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية .

² - صحيح مسلم كتاب الفضائل.

³ - صحيح البخارى. كتاب التعبير.

فكان يمكث فيه الليالي ذوات العدد قبل أن يرجع إلى أهله ويتزود لذلك حتى فجئه الحق وهو في غار حراء¹ .

. حادثة شق الصدر التي حصلت له عليه السلام أثناء وجوده في مضارب بني سعد من إرهاصات النبوة ودلائل اختيار الله إياه لأمر جليل.²

1 - صحيح البخاري . كتاب التعبير .

2 - راجع قصة استرضاعه في بادية بني سعد (حادثة شق الصدر) التي رواها مسلم في سيرة ابن هشام وصحيح مسلم.

الفصل الثالث

موقف المدرسة الاستشراقية الإنجليزية من السيرة النبوية

من المولد إلى البعثة

موقف مؤرخي أوروبا في العصور الوسطى من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم من مولده إلى مبعثه

قبل أن أعرض موقف أهم مستشركي المدرسة الإنجليزية من السيرة النبوية في دورها المكي منذ نهاية القرن التاسع عشر حتى السبعينات من هذا القرن ، أرى أنه من الضرورة بمكان عرض موقف مؤرخي أوروبا في العصور الوسطى من السيرة النبوية في العصر المكي بما فيها الجزء الذي نحن بصدده الآن ، وأعني به من المولد إلى المبعث ، وذلك من خلال ما كتبه المستشرق الإنجليزي نورمان دانيال في كتابه "الإسلام والغرب" ؛ إذ عرض فيه رؤية أوروبا في العصور الوسطى للسيرة النبوية لنرى هل اختلفت نظرة أوروبا في العصور الوسطى عن نظرتها في القرن العشرين؟

ففي الفصل الثالث وهو بعنوان "حياة محمد" : تنفيذ سيرة حياته "يقول المؤلف: "إن حياة محمد فهمت بوصفها نقداً مريحاً للإدعاء الإسلامي بالوحي ، بل عولجت تلك الحياة كأهم دحض لكل الادعاءات ، ومن أجل هذه الغاية اعتقد الكتاب ورغبوا في إظهار محمد على أنه متواضع المولد وثني النشأة ، وقد خطط لنفسه أن يتبوأ السلطة ، وقد أفلح في ذلك بفضل تظاهره بالوحي ، وقد نشر دينه بالعنف وبالسماح للآخرين بالانغماس في الأعمال الفاسقة ، كما كان هو نفسه منغمساً في تلك الحياة" ، ويقول دانيال " إذا كانت هذه حقيقة حياة محمد ، فمن الضروري إظهار كيف قبل كنبي ، الجدير بالذكر أن الجزيرة العربية التي ولد فيها محمد أهمية حاسمة لأية دراسة لحياته ، وهذا الأمر واضح الآن كما كان واضحاً

لكتاب العصور الوسطى ، ويذكر المؤلف أنّ الكتاب اللاتين المسيحيين
حذوا حذو العرب المسلمين في التركيز على نسب محمد ، وبدأت أعظم
روايات العصور الوسطى شعبية بوصف محمد نبياً للعرب، واخترع نسباً
ربطه بإسماعيل بن إبراهيم ، وقد بدت شجرة سلالته على نقيض شجرة
سلالة المسيح ، واهتم الكتاب أكثر بالمقارنة بين حياة المسيح وحياة محمد
، وبعد أن يتحدث المؤلف عن قدسية الحجر الأسود ، وكيف وضع ما
أسماه وعن بادعاء المسلمين بأنّ عملهم هذا كان معجزة ، يقول: "كانت
هناك نقاط مشوشة كثيرة مثلاً: الانتقال المكي لقرار محمد بوضع الحجر
الأسود ، وقد تتبأ المكيون بالمشاكل في المدينة في المستقبل بسبب الحجر
الأسود"، ثم يتحدث المؤلف عن محاولات أهل مكة ثني محمد عن دينه
الجديد لأنّ ذلك "سيجلب الحروب إلى المدينة ، وإذا لم يستجب لطلبهم ،
فعليه أنّ يقوم بالمعجزات للبرهنة على دعوته" ومن هذه المعجزات إزالة
الجبال التي كانت تحيط بمكة ، أو تحويل الأرض البور إلى أرض خصبة
، وكانوا على أهبة الاستعداد لرشوته بالمال والنفوذ ليكسبوا سكوته ، ثم
ينسب دانيال إلى المؤرخ ليل قوله "كانت ولادة محمد عادية ؛ إذ كان في
البادية وثنياً ، كما كان العرب القدماء في زمانه، وقد عاش بربرياً بين
البرابرة وثنياً بين وثنيين ، ويتابع "كانت الجزيرة العربية على تخوم العالم
المسيحي ، وكانت الملجأ الأمن الطبيعي للهراطقة الخارجين عن القانون ،
وبدأ الإسلام مجموعة من العقائد المسيحية واليهودية والوثنية ، وقد أثرت
هذه الأديان مع النبي ، ويقول المؤلف "إنّ أوربي العصور الوسطى اعتقدوا
أنّه كان لدى محمد معلمون يهود أو مسيحيون ، وهناك تفاصيل متوفرة عن

معلم مزعوم واحد كان يظهر أحيانًا حقه على روما" ، وأن نظرة عامة وسريعة على أسطورة الراهب سير جونز ستوضح كيف كان المبشرون المسيحيون واليهود يقدون إلى الجزيرة العربية ، لقد طُرد سير جونز من النصرانية بسبب هرقته وإجرامه ، فهرب إلى الجزيرة العربية حيث أفسد بمفرده أو بمساعدة زملائه اليهود العرب بواسطة وحماية محمد. وينسب المؤلف إلى وليم من آخريين قوله: "عندما أنكر الراهب سير جونز اتحاد الطبيعتين في المسيح الطبيعة الإلهية والطبيعة الإنسانية أدانه مجمع القسطنطينية ، فهرب إلى الجزيرة العربية حيث أظهر هناك من الورع والتقوى والقداسة ما حمل محمد على اتخاذ هذا الراهب معلمًا له معتقدًا أنه الملاك جبريل" ، وكانت أفكار محمد التي نقلها إلى الذين خدعهم مما تعلمه من ذلك الراهب.

وعن حياته المبكرة ينسب المؤلف للمؤرخ ريكوليدو " ما يلي "كان محمد رديء الولادة والسمعة وكان فقيرًا، ثم يعزو المؤلف إلى وليم من طرابلس قوله " كان الصبي يتيمًا ومريضًا ومن طبقة فقيرة ، وكان راعياً للإبل" ثم يورد المؤلف ما جاء في قصص "سان بيردو" و جبير و هيلد بييرت من أن محمدًا كان قليل الشأن والذين كانوا يرشدونه هم أناس أكثر منه مكرًا وخبثًا ودراية بالتآمر وافتراض أميته يتلاءم مع الفكرة القائلة بأن الهراطقة المسيحيون قد علموه الديانة ، وينسب المؤلف إلى وليم من آخريين أن محمدًا كان أكثر من ساذج ، ويتابع المؤلف سرد أسماء المؤلفين المتعصبين ضد النبي ودينه ، ويقول المؤلف "اعتقد أن اللاهوتيين

الوسطيين أنّ التظاهر بالنبوة كان لتبرير نوبات الصرع والسبب المنطقي الآخر هو أنّ النبوة كانت وسيلة للوصول إلى النفوذ والسلطان".

وينتقل دانيال إلى علاقة الراهب بحيرا بمحمد ، فيقول: "عاش الراهب بحيرا في دير منعزل عن العالم ، وكان ذلك الدير مكان توقف طبيعي للتجار على طريق الحجاز ، واعتاد أن يلتقي في ذلك الموضع المسافرون السوريون والعرب والمصريون ، وتراءى بحيرا أنّ واحداً من هؤلاء المسافرين سيصبح حاكماً لأمة كبيرة وقوية مستنصر بكنيسة المسيح ، ولذا رغب الراهب بحيرا أن يقابل محمداً ، ثم يقول: ولیم من طرابلس:"اعتبر المسلمون هذه الحادثة أول معجزة لأنّ الله عمل لصالح محمد، وهو لا يزال يافعاً ، وقال المسلمون إنه عندما أراد أن يدخل الدير عبر الباب فإنّ قوة إلهية وسعت له الباب حتى بدا كبوابة بلاط إمبراطوري أو مدخلاً إلى بيت صاحب جلالة" ويقول المؤلف لم يعتقد المؤرخ ولیم من طرابلس قد ارتد عن دينه، وقال إنه بقي رجلاً مقدساً وعلم محمد الإيمان بإله واحد، وجعله يحب المسيح وأمه مريم وقد سمح الرهبان لمحمد بالمكوث معهم لفترة من الزمن ، ثم أخذ يتعاطى التجارة ، وكان آنذاك يزور الراهب بحيرا، وعندما أصبح محمد غنياً وذا نفوذ ، استدعى الراهب وأبقاه عنده كمرشد حتى قتله أصحاب محمد بسبب غيرتهم وحسدهم منه.

ويعالج نورمان دانيال مسألة زواج النبي محمد صلى الله عليه وسلم من السيدة خديجة رضي الله عنها في العصور الوسطى، فينسب إلى المؤرخ "فيتري" قوله "لقد انتهى كل منهما الآخر وتواصل قبل عقد القران ،

ولكن بعد ذلك تم عقد زواجهما علناً، وأعطت خديجة محمدًا كمية كبيرة من المال"، ثم يقول دانيال هناك تشويش في تصوير شخصية أبي طالب ، ويعتقد المؤرخ ليل أنّ خديجة كانت أرملته ، ثم يتابع المؤلف تصورات اللاهوتيين والمؤرخين الوسطيين لأسباب علو شأن النبي فيقول نقلاً عنهم "حاول محمد أن يصبح ملكًا تحت قناع الدين ، وتحت اسم النبي المقدس لقد حصل على المملكة بوصفه رسول الله ونبياً ، ومن المفروض أنّ الانتقال المفاجئ لمحمد من الفقر المدقع إلى الغنى قد جعله في غير عقله الكامل. لأنّه استغل النبوة للخداع والاحتيال وكان من الضروري تفسير عزمه على أن يكون نبياً، وهكذا يقول المؤرخ دمترى أنّه عندما أصبح محمد عظيمًا بعد زواجه من خديجة بدأ يمجّد نفسه ، فخطط للحصول على السلطان بكل وسيلة ، ويقول دانيال أنّ مرجعًا آخر يقول في هذا الصدد : "عندما ارتفع محمدًا بدأ يتبجح كثيرًا، وقرر أن يصبح سيداً على كل قبائل أمته، وكان بوده أن يلقب بالملك لو لم يكن هناك بين قومه أنبل وأقوى منه."¹

هذا عرض موجز للسيرة النبوية في دورها المكي من وجهة نظر مؤرخي أوروبا في العصور الوسطى ، وكما اتضح لنا أنّ هؤلاء المؤرخين كتبوا سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم من تأليفهم وفق أهوائهم وأغراضهم ، ولم تستند كتاباتهم على أي مصدر من المصادر الأساسية العربية للسيرة

Norman Danial. Islam and The West p . 79 – 91 (Edinburgh The University ¹ – Press).

النبوية ، فجاءت كتاباتهم كلها أكاذيب وافتراءات ولا تمت إلى الحقيقة
بصلة .

موقف مستشريقي المدرسة الإنجليزية من السيرة النبوية في دورها المكي من
الميلاد إلى البعثة

ولنستعرض الآن مواقف مستشريقي المدرسة الاستشراقية من السيرة
النبوية في دورها المكي "من الميلاد إلى البعثة" ، وسأبدأ بـ

وليم موير

"لقد سلك وليم موير منهج السرد التاريخي الخالي من التحليل
العلمي إلا فيما يتعلق ببعض القضايا الأساسية المتعلقة بالوحي الإلهي
وبصحة النص القرآني ، وبالوضع في الأحاديث النبوية ، وفي الشك في
الروايات الإسلامية التي عالجت بعض القضايا التاريخية ذات العلاقة
بالجزيرة العربية قبل الإسلام كنفية لقصة "إبراهيم وهاجر" ، ونفيه لبناء
الكعبة من قبل إبراهيم وابنه إسماعيل" وما عدا ذلك فإن السرد التاريخي هو
الغالب على منهجيته ، وهو سرد لا يخلو في طياته من غمزات ولمزات
ذات خطورة بالغة على حقيقة السيرة النبوية وعلى صحة الإسلام ومعتقداته
الدينية ، كما نجده يرفض المعجزات والقصص التي رويت عن الرسول
أبان ولادته كالنور الذي خرج من أمه آمنة أبان وضعه حتى رأت قصور
بصرى ، وكتصدع إيوان كسرى .

رأي موير في عام مولد الرسول صلى الله عليه وسلم

ويعتقد موير أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم قد ولد عام الفيل الموافق 570 م ، ولكنه يؤكد عدم إمكانية معرفة تاريخ ميلاده بدقة لسكوت المصادر عنه ولغموضها وتضاربها من جهة أخرى ، وقد يقبل بأنّ تاريخ ولادته يمكن تحديده بعد خمسة وخمسين يوماً من حملة أبرهة على مكة ، وذلك طبقاً لرواية "الواقدي" ، ومال إلى تصديق التاريخ التقريبي الذي حدده "كوسان دي بيرسيفال" بعشرين أغسطس عام 570 ميلادية¹.

رأي موير في اسم الرسول صلى الله عليه وسلم

ثم يتعرض "موير" إلى أسم الرسول صلى الله عليه وسلم الذي أطلقه عليه جده "محمد" وهو اسم مشتق من "حمد" الذي يراد به الحمد والثناء ، ويرفض موير قصة حمل عبد المطلب لحفيده عقب ولادته وذهابه به إلى الكعبة ، وشكره لله على ذلك ويراها قصة مزورة اخترعت بأمره ، ولا تقرها المصادر الثابتة ، ولكنه يناقش وجود اسم محمد في الجزيرة العربية ، ويراه نادر الانتشار ويعدد من تسموا بمحمد قبل ولادة الرسول ، ويحصرهم في خمسة أشخاص طبقاً لرواية "الواقدي"

ويصل موير بعد هذا العرض إلى نتيجة مفادها أنّ العرب قد أطلقوا على بعض أبنائهم هذا الاسم لأنهم سمعوا من اليهود والنصارى بقدوم نبي عربي يحمل هذا الاسم فرجوا أن يكون أحدهم كذلك²

¹ - William Muir , Life of Mohammad v.s p 12- 14 London 1861.

² - ibid p 16 – 17 v I.

ويرى موير أنّ الطبقة القرشية لا ترضع أطفالها، ولكنها تبعث بهم إلى البادية لاسترضاعهم هناك حتى ينشؤوا نشأة صحيحة جيدة ، ويتعلموا الفصاحة والبلاغة من مصادرها الأصلية ، وهكذا كان الحال مع محمد الذي استرضعته أولاً ثويبة أياماً ، وهي أمه لعمه أبي لهب ، وقد حفظ لها محمد هذا الجميل حتى آخر أيامها، وكثيراً ما كان يغدق عليها هو وخديجة الهدايا ، ويفصح لها عن شكره وتقديره، وقد استمرت هذه المعاملة تجاهها حتى السنة السابعة للهجرة عند عودته من خيبر فعلم بوفاتها ، فاستفسر عند ابنها مسروح لينال هو الآخر من بره ومعروفه إلاّ أنّه وجدته هو الآخر قد فارق الحياة ولم يترك له وارثاً¹.

إنكار موير لحادثة شق الصدر

يعرض موير الرواية الشائعة عن استرضاع الرسول لدى بني سعد من قبل "حليمة السعدية" ويصف القصص التي تروي المعجزات التي حصلت لها ولأبناء قومها من بركاته بأنّها محض أساطير مختلفة ، وهكذا يبقى هناك لمدة أربعة سنوات ، ثم تحصل له حادثة غريبة تصفها الروايات الإسلامية بصفات مختلفة ، وهذه الحادثة تتعلق بقدم ملكين إلى الرسول فشق صدره ، وغسلا قلبه بالثلج ، وهي رواية معروفة ومتواترة في المصادر الإسلامية ، ويرفضها موير مثلما رفضها أمثاله من المستشرقين ، ويرى

¹- Ibid p 18- 19 v I.

في روايتها بوادر ما ستفسر عنه تصرفات محمد في قادم الأيام ، وهكذا تعيد حليلة رضيعها إلى أمه ، وتقص عليها ما حصل لها في ربوعها¹.

موقف موير من وفاة أم الرسول صلى الله عليه وسلم وكفالة جده عبد المطلب ثم عمه أبي طالب بعد وفاة جده

ويسرد موير كيفية موت أم الرسول صلى الله عليه وسلم بالأبواء بين يثرب ومكة ، وكان عمر الرسول آنذاك ست سنوات، ثم يتحدث عن كفالة جده عبد المطلب له بعد وفاة أمه ، وكان جده يعامله معاملة خاصة تفوق معاملة أبنائه ، وكان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة ، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له ، فكان رسول الله يأتي وهو غلام فيجلس عليه ، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه ، فيقول عبد المطلب: "دعوا ابني فوالله إنَّ له شأنًا، ثم يجلسه معه على الفراش ، ويمسح ظهره بيده ، ويسره ما يراه يصنع".

واستمر الرسول في رعاية جده إلى أن بلغ الثامنة من عمره ، وفي هذه الأثناء توفي جده فحزن عليه هو الآخر حزناً شديداً، وشوهد وهو يذرف الدموع الغزار عليه ، وهكذا تلقى الرسول جرحاً غائراً لم يندمل لفقدان جده، وتكفل برعايته بعدئذ عمه أبو طالب بوصاية من والده عبد المطلب الذي كان يعامله معاملة رقيقة حتى تعدى الرسول مرحلة الطفولة².

1- ibid p 20 – 24 v i.

2- Ibid p. 27- 33 v i.

رأي موير في رحلة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الشام ولقائه ببحيرا يتعرض موير إلى واقعة اصطحاب أبي طالب للرسول في رحلته إلى الشام ، وكيفية مروره بالمدن القديمة الواقعة على طريق التجارة بين مكة والشام ، وكيف سمحت هذه الرحلة للرسول بالتأمل والتفكير في مصير الأقسام البائدة ، التي تشهد عليها مدنهم المدمرة كالبتراء ، وجرش وعمون وغيرها ، وكيف أنّ هذه المشاهدات الحسية امتزجت بالروايات اليهودية حول مصير ساكني هذه المدن التي لحقتهم لعنة السماء ، فأنزل الله عليهم العذاب والكوارث التي خربت بيوتهم، وشتت عائلاتهم وتركتهم مثلاً للذاكرين والمسافرين، ويرى موير أنّ الرسول قد اتصل إبان هذه الرحلة بالديانة المسيحية، وشاهد طقوسهم الدينية التي يؤدونها في كنائسهم ، كما اطلع على عاداتهم الاجتماعية وشؤونهم العامة ، كما لاحظ شعائرهم الدينية كدق الأجراس عند الصلوات ، وحضور الصلوات التي تلقى فيها المواعظ والتراتيل.

ويفترض موير أنّ هذه المسائل جميعاً قد أثرت بشدة في عقلية الرسول وجعلته يفكر في عبادة قومه للأصنام ويقابل بين العبادتين ، وكانت لهذه الزيارة أثرها في مشاريع محمد المستقبلية ، وقد فتحت له خياله الطفولي للتفكير في هذه المظاهر التي شاهدها وتأملها ، خاصة أنّ هذه المشاهدات قد اقترنت بواقعة أشارت إليها معظم المصادر الإسلامية ، وهي التقاء الرسول بالراهب "بحيرا"، وقد ناقش موير هذه الواقعة في هامش كتابه، وبعد أن أورد كيفية معالجة المصادر الإسلامية لها ، ثم يعلق

عليها ويحللها ، ولكنه تركها لقريحة القارئ ليستتبط منها ما يشاء ، وإن كان قد أشار في تلك الهوامش استنادًا إلى رواية الواقدي التي ورد فيها "ورجع به أبو طالب فما خرج به سفرًا بعد ذلك خوفًا عليه"¹ .

أثر سوق عكاظ على الرسول صلى الله عليه وسلم من وجهة نظر موير ثم ينتقل موير في الجزء الثاني من كتابه "حياة محمد" إلى وصف الحياة المكية بجميع مظاهرها إبان شباب الرسول ، ويصف الأسواق التجارية التي تعقد في المواسم المعينة ، وما يتخللها من مناقشات أدبية ، ومطارحات شعرية ، التي أنتجت لنا ما أطلق عليه "المعلقات السبع" ، وكيف أنه في فترة شباب الرسول الأولى اندلعت حرب الفجار بين قريش والطائف ، وقد سميت بهذا الاسم لأنها اندلعت في الأشهر الحرم التي يمنع فيها الحرب وإراقة الدماء ، وكيف أن الرسول قد حضر هذه المعارك رفقة أعمامه ، وكان يرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها² .

وهنا يورد موير نتيجة غريبة لا تتفق وأخلاق الرسول عندما ذكر أن محمدًا لم يتميز في فترة من حياته بالشجاعة الشخصية والجرأة الحربية³

ثم يشير إلى أثر سوق عكاظ على الرسول صلى الله عليه وسلم فيبين أن الرسول تعلم من سوق عكاظ الخطابة والبلاغة ، فكان يحضر هذه المواسم التي يتبارى فيها الخطباء والشعراء فيمدحون قبائلهم ، ويبرزون

1- Ibid p. 33 – 37.

2- Ibid vs p. 13 -15 .

3- Ibid v s p. 16

فضائلها ، ويهجون أعداءهم ، ويظهرون مثالهم ، وفي هذه المناسبات اشتد إيمان الرسول بوطنه ، وتعلم من أولئك الشعراء الخطباء فن الشعر وسحر البيان¹.

ولم يقتصر تعلم محمد في هذه المواسم على الشعر والخطابة ولكنه تعداهما إلى التعرف بالديانة المسيحية المتمثلة في بعض معتقياها الذين يؤمون هذه المناسبات والأماكن ويتلون فيها مواضعهم وخطاباتهم ، ويزعم موير بأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد تأثر تأثراً جلياً بخطبة "قيس بن ساعدة الأيادي" الذي حرك وجدانه ، ووجهه إلى عوالم أخرى كانت مجهولة لديه ، كما تعرف محمد إلى مبادئ الديانة المسيحية تعرف كذلك إلى الديانة اليهودية ، والتي لا يشك موير في أثرها في تفكيره ، في قادم الأيام ويسرد موير في صفحات طويلة تأثير هاتين الديانتين في تكوين محمد العقلي والديني ، مشيراً إلى أن الرسول قد تأثر بالحركة الحنيفية التي قادته إلى الوجدانية بعد استماعه لخطب ومواعظ قيس بن ساعدة الأيادي وأمثاله².

وهكذا مرت مرحلة شباب محمد دونما حوادث تذكر سوى حضوره حلف الفضول الذي أعجب به والذي كان يشيد بذكره حتى أواخر أيامه³.
وقد اشتغل الرسول إبان هذه الفترة برعي الغنم لأهل مكة ، وقد أشار إلى عمله هذا وهو بالمدينة قائلاً (ما من رسول إلا ورعى الغنم)

¹- Ibid v s p. 16.

²- Ibid v sP. 16

³- Ibid v s p. 18.

شأنه في ذلك شأن موسى وداود. وقد فعل ذلك لمساعدة عمه أبي طالب الذي كان يئن بثقل عائلته وفقر ذات يده ، وقد طورت فيه هذه المهنة حبه للعزلة والتأمل في الكون وظواهره كالسماء الصافية والشمس المشرقة ، والليل المظلم المتلألئ بالنجوم ، وقد قادت هذه التأملات إلى الوجدانية المطلقة التي دعى إليها بضراوة في قادم الأيام ، وجعلها هدفاً رئيسياً لم يجد عنه مهما كانت العقبات التي وقفت في طريقه¹.

أخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم وصفاته

يؤكد موير أخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم العالية إبان فترة شبابه وطهارته ، وابتعاده عن كل ما كان يفعله أقرانه ، وصدق الروايات الإسلامية التي وصفت الرسول بهذه الصفات الخلقية النادرة كالتواضع ، والرحمة ، والصدق ، والأمانة ، والابتعاد عن اللهو بمختلف أشكاله وألونه ، ورأى موير أن هذه الصفات تتفق وطباعه السمحة المتأملة المفكرة ، المبتعدة عن كل الشبهات².

وليم موير ورحلة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الشام للتجارة لحساب السيدة خديجة

ويتعرض موير إلى مزاولة الرسول للتجارة لحساب السيدة خديجة ، ويذكر موير أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم قد تحققت معارفه ومعلوماته عن ما شاهده وسمعه في رحلته السابقة ، ويؤكد موير أنّ الرسول صلى الله

¹ - Ibid v s p. 18 - 19.

² - Ibid v.2 P. 19.

عليه وسلم قد اختلط بالقساوسة والرهبان في سوريا ، وناقشهم في العديد من القضايا الدينية ، ويفترض موير أنّ رجال الدين المسيحي قد أكرموه واستقبلوه استقبالاََ حسناً ويبرهن على صحة افتراضه هذا بإيراد القرآن لآيات عديدة تشيد بهم وتشكرهم ولكنه لم يرضى عن مذاهبهم¹.

وكان من نتائج هذه الرحلة إلى سوريا بالإضافة إلى تأملات محمد ومشاهدته للأحوال الدينية في سوريا . لفت انتباه السيدة خديجة إلى خصاله الحميدة كأمانته وصدقه ، وما شاهده غلامها ميسرة من نبل أخلاقه ، فعرضت عليه الزواج منها ووافق هو على ذلك ، ويسرد موير قصة زواج خديجة بالرسول صلى الله عليه وسلم استناداً إلى رواية "شبرنجر" (وقيل² كيف أنّ والد خديجة قد عاقر الخمر حتى فقد رشده وعقد لابنته على محمد، وعندما استيقظ من سكره تسائل عن الاحتفال الذي يجري في بيته فأبلغ بأنّه قد عقد قران ابنته خديجة على محمد وكيف أنّه لما علم بذلك استشاط غضباً قائلاً: "كيف أزوج ابنتي لهذا الشاب الفقير ويتمناها عظماء قريش وكيف أن أصدقاء محمد "أعمام محمد" بينوا له بأنّ ابنته هي التي عرضت الزواج على ابن أخيهم ، وكيف أن الطرفين احتكما إلى السلاح إلا أنّ والد خديجة عاد إلى هدوءه ووافق على الزواج³.

¹ - Ibid V.2. P. 20 – 21.

² - هذه الرواية أخذها شبرنجر وقيل من حديث الزمخشري الذي رواه البيهقي في الدلائل بإسناد مرسل ، وقد حرّف الرواية إذا كان والد السيدة خديجة سكراناً فلن تسكره هو ليوافق على زواجه.

انظر الدلائل : 90/1 . ط1. دار الكتب العلمية، 1400هـ / 1985م.

³ - Ibid v2. p 24 – 25.

إعادة بناء الكعبة ووضع الرسول صلى الله عليه وسلم الحجر الأسود في مكانه

بعد أن يعرض موير في صفحات طويلة صفات النبي صلى الله عليه وسلم الخلقية والجسدية طبقاً لما أوردته المصادر الإسلامية يشير إلى حادثة إعادة بناء الكعبة، وما حصل من خلاف بين قبائل قريش حول من يكون الشرف في وضع الحجر الأسود في مكانه ، وكيف أنّ زعماء هذه القبائل اتفقوا على تحكيم أول من دخل لمجلسهم للاستئناس برأيه لحل هذه المعضلة التي كادت تؤدي إلى الفتنة ، وبذر بذور الشقاق ، وكيف كان أول الداخلين بعد هذا القرار هو محمد الذي صاح الجميع حال دخوله ها هو الأمين رضيناه حكماً ، وكيف أنّه بسط رداءه ووضع فيه الحجر الأسود ، وأمر زعيم كل قبيلة بحمل طرف منه وعندما وصل الحجر الأسود إلى مكان وضعه شخصياً هناك بيده الشريفة ، ولا ينكر موير حصول هذه الواقعة بجميع تفاصيلها خاصة فيما يتعلق بقرار محمد صلى الله عليه وسلم التحكيمي الذي يصفه بالتعقل والحكمة ، ويرى في هذه المهمة أنّ محمداً قد شعر من داخل أعماق ضميره ، أنّ القدرة الإلهية هي التي ساعدته على اتخاذ هذا القرار الصائب ، وأنّه ربما يكون قد شعر منذ هذه اللحظة بأنّ الله سيختاره نبياً لقومه¹.

ويستنتج موير من الحادثة السابقة غياب مكة من أية سلطة قوية لها الأمر والنهي والتصرف لتنظيم شؤون قريش ، وكيف أنّ السلطة كانت

1- C b 26 – 30.

موزعة بين زعماء القبائل الذين لم يبرز أي واحد منهم كزعيم أول تناط به إدارة شؤون البلاد ، وكيف أن النزاع كان دائم الاحتدام بين هؤلاء الزعماء ، ولكنه يشير في هذا السياق إلى قصة وصفها بالغرابة تتعلق بكيفية نظام الحكم في قريش ، وهي قصة عثمان بن الحويرث الذي تروي عنه القصص بأنه لم يكن راضياً عن ديانة قومه المتمثلة في عبادة الأصنام . وكيف أنه اتصل بالبلاط الروماني ، وتصر هناك وبعد أن تم تعميده عاد بمرسوم من الإمبراطور بتعيينه حاكماً على قريش ، ولكن قومه طردوه، ورفضوا محتوى المرسوم الذي خوله سلطة الحكم عليهم ، ففر إلى سوريا، والتجأ إلى قبيلة الغساسنة ، وحاول التأثير في التجارة القرشية في تلك الأصقاع ، إلا أن قريشاً تلافيت مهمته التخريبية بتقديم هدايا قيمة إلى أمراء الغساسنة لإبقاء طرق التجارة مفتوحة أمامها ، بل إن هذه التسوية القرشية أدت في النهاية إلى وفاته عندما مات مسموماً هناك¹.

إدعاء موير أن زيد بن حارثة وورقة بن نوفل كان لهما تأثير على الرسول صلى الله عليه وسلم بتعليمه المسيحية

ويستمر موير في سرد السيرة النبوية قبل البعثة بشيء من التفصيل الدقيق الذي يتناول جميع جزئياتها إلى أن يصل إلى كيفية تبني الرسول لابن عمه على بعد الضائقة المالية التي حلت بوالده أبي طالب ، وكيف أنه تبني زيد بن حارثة المنتمي إلى قبيلة "كلب" التي اعتنقت النصرانية ، ويؤكد موير شأنه في ذلك شأن بقية أضرابه أن هذا الطفل يحمل بعض

Ibid v 2 p 32 – 33 .¹

التعاليم والأساطير المسيحية ، وافترض موير أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم قد ناقش هذه النص مع متبنيه الذي كان يبحث عن الحقيقة في أي اتجاه ، وكان من ضمن أقارب خديجة شخص له علم بالمسيحية ، وقرأ كتبها واعتنق مبادئها وهو "ورقة بن نوفل" الذي تقول عنه المصادر الإسلامية: "أنه قد استحکم في النصرانية ، واتبع الكتب من أهلها حتى علم علماء من أهل الكتاب ، وحتى أدرك فيما طلب من ذلك أنه كان لهذه الأمة من بني إسماعيل نبياً، وأنه كان يكتب من الإنجيل بالعبراني ما شاء أن يكتب¹، ويريد موير من قوله هذا أنه يبين أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد استقى معلوماته الدينية من زيد بن حارثة ووقه بن نوفل وهذا رأي بعض المستشرقين الآخرين كما سيمر بنا.

الشبهات التي أثارها وليم موير حول السيرة من المولد إلى المبعث

وبعد هذا السرد يصل موير إلى كيفية اعتزال الرسول الناس إلى غار حراء للتحنث والتعبد فيه حتى نزل عليه اليقين وهذا ما سنبينه في الموضوع القادم إن شاء الله.

وبعد هذا العرض لما كتب موير عن السيرة النبوية المطهرة من المولد إلى المبعث نجد أنّ لوليم موير مواقف إيجابية من هذا الجزء من السيرة ، كما أنه أثار بعض الشبهات ، ويمكن تلخيص مواقفه الإيجابية في الآتي:

¹ - Ibid v 2. p .35 – 36.

- 1- تسليمه بما أجمعت عليه معظم الروايات الإسلامية أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم ولد عام الفيل سنة 570م،
 - 2- إقرار بأنّ الرسول صلى الله عليه وسلم سمي بمحمد عند مولده ، ولم يذكر أنّه سمي بغير هذا الاسم.
 - 3- تأكيده أخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم العالية ، وأنّه يتصف بالطهارة والتواضع والصدق ، والأمانة ، والابتعاد عن اللهو.
 - 4- وفاء الرسول صلى الله عليه وسلم ببره بثوية جارية عمه أبو لهب لأنها أرضعته عدة أيام قبل حليلة السعدية.
 - 5- توضيح مكانة الرسول صلى الله عليه وسلم بين أهل مكة وتسميته بالأمين ، وقبول حكمه بالكيفية التي يتم بها وضع الحجر الأسود.
- ملخص الشبهات التي أثارها وليم موير حول السيرة النبوية من المولد إلى البعثة**

- 1- زعم موير أنّ رحلة الرسول صلى الله عليه وسلم مع عمه أبي طالب إلى الشام للتجارة ولقاؤه ببجيرا أتاح له فرصة التعرف على الديانة المسيحية ، ومعرفة طقوسهم الدينية التي يمارسونها في كنائسهم.
- 2- أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم قد تعرف أيضًا على المسيحية واليهودية والحنيفية من سوق عكاظ.

3- زعم أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم عرف المسيحية من ابنه بالتبني زيد بن حارثة الذي نشأ في كنف أسرة مسيحية ، وكذلك علم المسيحية من ورقة بن نوفل.

4- زعم موير أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم تعلم الشعر والبيان من سوق عكاظ وذلك ليوحى للقارئ بأنّ القرآن من وضع محمد صلى الله عليه وسلم.

5- نفي عن الرسول صلى الله عليه وسلم اتصافه بالشجاعة والجرأة الحربية .

6- إيراده قصة زواج الرسول صلى الله عليه وسلم من السيدة خديجة وفق رواية شبرنجر، وهي بعيدة عن الواقع ، وتخالف الروايات الإسلامية.

وهذه المزاعم الباطلة والشبهات المفتريات سأرد عنها إن شاء الله بعد الانتهاء من عرض كتابات مستشركي المدرسة الإنجليزية موضوع هذه الدراسة ، هذا ويلاحظ أنّ وليم موير اتبع في كتابه هذه المناهج التالية :

1- السرد التاريخي.

2- المنهج المادي في تفسير الأحداث التاريخية ، ولهذا نجد موير قد نفى جميع الخوارق والمعجزات الحسية التي حدثت إبان مولد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكذلك حادثة شق الصدر.

3- سيره على منهج التفسير النفسي وتفسيره للآلام والنكبات التي حلت بالرسول صلى الله عليه وسلم ؛ إذ ولد يتيماً ثم فقد أمه وهو في الثالثة ، ثم جده عبد المطلب الذي كفله وهو ابن الثامنة ، فإنّ هذه الآلام قد دفعته لتعويضها بتحقيق نجاح استثنائي ، وهو ادعاء النبوة وتأسيس دين ودولة عظيمين.

موقف مرجليوث من السيرة النبوية من المولد إلى المبعث

من المعروف عن مرجليوث أنّه صاحب نظرية الشك في أي أمر يخص الإسلام ، فهو من ادعى انتحال الشعر الجاهلي ليصل إلى التشكيك في القرآن الكريم. والملاحظات على كتابات مرجليوث أنّه يلقي الكلام على عواهنه دون أن يستند على سند علمي أو تاريخي ؛ إذ نجد في كتابه تاريخ العالم العام يشكك في نسب الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويزعم أنّه مجهول الأب والأم ، فيقول : "إننا لا نعلم اسم والد النبي لأنّ لفظه عبد الله معناه في العهد الأخير الشخص المجهول ، وربما كان لها هذا المعنى عند إطلاقها على والد النبي ، وقصة يتمه التي وردت في القرآن لا يلزم أن نأخذ بها على معناها الأدبي ، والعلاقة المفروضة بين أمه وبين آل يثرب مسألة مشكوك فيها ، فالقصص التي جعلت الإسكندر الأكبر فارسياً أو مصرياً بالنسبة لوالدته¹.

¹ - مناقشة مرجليوث، مقالة نشرت في المنار ج 4، م 35، ص 35 - 303 الصادر في 1936/4/30م.

ثم نجده يناقض نفسه في الصفحة التالية يذكر أنّ النبي محمد صلى الله عليه وسلم ابن عم علي ابن أبي طالب رضي الله عنه¹ ، ويزعم مرجليوث أنّ محمدًا صلى الله عليه وسلم اعترف في بدأ رسالته بمعرفة القراءة والكتابة².

ويناقض مرجليوث نفسه في كتابه "محمد ونشأة الإسلام Mohammed and The Rise of Islam ؛ إذ يقول "لقد كان محمد هو الطفل لأبوين مكين اللذين يسميان بعبد الله (خادم الله)³، وآمنة "الأمان" وهي من بني زهرة، أمّا والده فمن بني هاشم، وقد توفي والده قبل مولده ، أمّا أمه فلم تعش كثيرًا؛ إذ توفيت ودفنت بالأبواء بين مكة والمدينة⁴ ، ونجده يتحدث عن أسرة النبي صلى الله عليه وسلم ، كحديث مؤرخي العصور الوسطى ، فيقول: "يبدو من الواضح أنّ محمدًا ينحدر من أسرة وضيعة حقيرة ، ويظهر هذا في عدة مواضع ، وتتعجب قريش في القرآن كيف أنّ النبي يبعث فيهم وهو ليس نبيل المولد⁵.

ثم يتحدث عن ذهابه صلى الله عليه وسلم لديار بني سعد حيث أخذته مرضعته السيدة حليلة السعدية ، كما يشير إلى إرضاع ثويبة جارية

1 - حمدان، نذير . (1406هـ / 1986م) الرسول صلى الله عليه وسلم في كتابات المستشرقين. ص 137. جدة . دار المنار .

2 - مناقشة مرجليوث. مرجع سابق.

3 - نلاحظ هنا يفسر معنى عبد الله بخادم الله ، بينما ينشره في كتابه تاريخ العالم العام أنّه الشخص المجهول.

4- Margiliuth Mohammed and The Rise of Islam p 45 London and New York 1927.

5 - Ibid p 51.

عمه أبي لهب ، كما نجده يتحدث بصيغة تثير الشك عند حديثه عن وفاة جد النبي صلى الله عليه وسلم عبد المطلب ؛ إذ يقول: "يقال إنّ عبد المطلب توفي عندما كان حفيده في الثامنة من عمره ، وقد تركه تحت رعاية عمه أبي طالب مشيرًا إلى أنّ عمه كان يعامله معاملة ابنه جعفر.¹

ثم يتحدث عن رعيه للغنم ، ونجده يشكك في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم في المرتين اللتين ترك فيهما قطيعه عند أحد رفاقه وأراد أن يسمر كما يسمر الشباب ، ولكن الله عصمه ونام ولم يفعل شيئاً.

ويتحدث مرجليوث عن رحلات الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويزعم أنّ أبا طالب قد صحب ابن أخيه إلى اليمن² ، كما يزعم أنّ محمدًا صلى الله عليه وسلم سافر إلى مصر ، لأنّ كلامه عن مصر يدل على ومن معرفة تامة بها³، مع أنّ المستشرق نولدكه يرد عليه ، ويقول: "إنّ محمدًا لم يعرف أنّ المطر في مصر قلة مطلقة ، ولو كان سافر إليها لعلم تلك الحقيقة التي لا تخفى على أحد⁴، كما أنّه يشير إلى أنّه زار البحرين⁵.

وقد أكثر مرجليوث من رحلات الرسول صلى الله عليه وسلم والأقطار التي زارها ، ليقول إنّ الرسول صلى الله عليه وسلم قد حصل

¹- Ibid p 51.

²- .Margoliouth, Mohammed and The Rise of Islam p. 56

³- Ibid P. 5.

⁴ - حمدان ، نذير . الرسول صلى الله عليه وسلم في كتابات المستشرقين . ص3.

⁵ . -Margoliouth, Mohammed and The Rise of Islam p. 58 .

على معلومات عن موسى وعيسى عليهما السلام عن اليهودية والمسيحية ،
وأنه عرف من زائر من نجران أنّ بين عيسى وموسى بعض آلاف السنين .
كما نجده يتحدث عن حرب الفجار ، وأنّ الرسول صلى الله عليه
وسلم كان ينتظر من هذه الحرب أن تعطيه فرصة لأن يكون رجل قريش
الأول .

كما تحدث مرجليوت عن صفات الرسول صلى الله عليه وسلم
الجسدية ، وعن زواجه من السيدة خديجة وأولاده منها ، ومن تزوج بناته
صلى الله عليه وسلم .

توماس أرنولد وحديثه عن زواج الرسول صلى الله عليه وسلم من السيدة خديجة

يتحدث توماس أرنولد في كتابه الدعوة إلى الإسلام عن مولد الرسول
صلى الله عليه وسلم وعن نشأته ، وكل ما تحدث عن حياته قبل المبعث
عن سبب زواج السيدة خديجة بنت خويلد منه صلى الله عليه وسلم ؛ إذ
يقول: "كانت خديجة زوجه المخلصة الودود أول من آمن به ، وكانت قد
طلبت له لنفسها قبل مبعثه بخمسة عشر عامًا ، حين كان ذلك الشاب الفقير
الذي يمت إليها بالقرابة يشتغل في تجارتها أجيرًا موفقًا في عمله وقالت له:
"يا ابن عم ، إنّي قد رغبت فيك لقرابتك ، وسطنتك في قومك ، وأمانتك

وحسن خلقك ، وصدق حديثك"¹، ثم يقول: "وقد نشلته من الفقر وساعدته على أن يصل إلى مستوى الطبقة الاجتماعية التي أهلته لها عراقة نسبه"².
من هذه الأسطر القليلة نجد توماس أرنولد أقر بأمانة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وحسن خلقه وصدق حديثه وعراقة نسبه وتوفيقه في عمله ، وعندما نجد أرنولد خالف مرجليوث في وصفه لنسبه صلى الله عليه وسلم بالعراقة.

¹ -أرنولد ، توماس . (1870م) الدعوة إلى الإسلام . ترجمة وتعليق د. حسن إبراهيم حسن . د. عبد المجيد عابدين . إسماعيل النحراوي. ص 34. ط3 . القاهرة . مكتبة النهضة المصرية ..

² - المرجع السابق. ص 36. Gulliume, Islam, p. 32.

مولد الرسول صلى الله عليه وسلم ونشأته الأولى من وجهة نظر الفريد

جيوم

يبدأ الفريد جيوم حديثه في التشكيك في تاريخ مولد الرسول صلى الله عليه وسلم فيقول: " ولد محمد بمكة حوالي سنة 570 م ، وأول تاريخ في حياته نستطيع أن نقطع بصحته هو تاريخ الهجرة"¹.

ثم يقول: "وقد ولد بعد وفاة أبيه عبد الله ، وهو حفيد عبد المطلب ، وأبو هاشم تزوج من امرأة من المدينة تنتمي إلى قبيلة عدي بن النجار ، وهو فرع من قبيلة الخزرج ، وهكذا نجد أنّ للرسول روابط دموية بالمدينة ، أمّا مكة فقد كانت قریش حاکمة لها ، فالرسول ينتمي إلى أسرة عريقة فيها ، وإن كانت غير ثرية ، وذلك واضح من الآية التي قيلت على لسان الكفار² : ﴿وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾³.

ويقلل الفريد جيوم من شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: "وكان واضحًا عند نزول هذه الآية أنّ محمدًا نفسه لم يكن له شأن كبير ، ولهذا فإننا نستطيع أن نقدر النجاح الذي أصابه فيما بعد تقديرًا أعظم إذا

1 - جيوم . الإسلام . ص 25.

2 - نلاحظ هنا مخالفة الفريد جيوم مرجليوث الذي وصف أسرة الرسول صلى الله عليه وسلم بأنها فقيرة ، فالثراء لا علاقة له بعراقة النسب ، ثم أنّ أسرة الرسول صلى الله عليه وسلم لم تكن فقيرة ، فقد كانت لبني هاشم السقاية والرفادة.

3 - الزخرف: 31.

عرفنا أنه استطاع أن يصرف أعداءه عن دينهم ، دون تأثير من النفوذ أو المركز الاجتماعي¹.

ثم يشير إلى وفاة والدته وهو صغير ، وكفالة جده عبد المطلب ، ثم عمه أبو طالب².

إنكار الفريد جيوم حادثة شق الصدر

يحاول جيوم أن يوهم القارئ أنّ حياة الرسول صلى الله عليه وسلم في مرحلة الطفولة لا يعرف عنها غير القليل ، وكذلك فعل غيره من المستشرقين ، كما نجده ينكر حادثة شق الصدر مثلما أنكرها وليم موير وغيره من المستشرقين ، فعند حديثه عن تولي السيدة حليلة السعدية إرضاعه وإقامته في ديار بني سعد يروي حادثة شق الصدر برواية تخالف رواية ابن سعد في طبقاته ؛ إذ يرويها جيوم كالآتي: "وقد ظل في تلك القبيلة ما يربو على العامين ، ثم تلقى زيارة روحية وصفتها حليلة ، كما يلي: "جاءني أخوه يعدو قائلاً: "إنّ رجلين في ملابس بيضاء ، أمسكا بأخي القرشي وطرحاه أرضاً وشقا جوفه ، وأخذا يستخرجان أحشاه فذهبنا إليه فوجدناه منتصب القامة ، وقد شحب لونه ، وحينما سألناه عما حدث سرد ما سبق أن قاله أخوه ، وأضاف أنّه لا يعلم عما كان يبحث الرجلان في جوفه . وقد قال زوجي أنّه يخاف أن يكون قد أصابه ضرر ، وأنّ عليّ أن أعود به إلى أهله قبل أن يتضح مرضه للجميع ، ففعلت ذلك ، وحين

¹ - جيوم . الإسلام. ص 25. Ibid.p.24.

² - المرجع السابق . ص 25. Ibid.p.24.

سألتني أمه عن رأيي في هذه الحادثة صارحتها بأنني أظن أنّ به مسًا من الجن، بيد أنّها أخبرتني بأن مخاوفي لا أساس لها من الصحة ، وذكرت لي الظروف العجيبة التي أحاطت بمولده" ثم يعلق قائلاً: "من الصعب أن نعلم ماذا يكمن وراء قصة شق بطن الرسول وغسلها" إلا أن تكون محاولة لتفسير المعنى المجازي في القرآن ﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ ومما يجدر ملاحظته أنّ الكتاب المتأخرين يعزون هذه الحادثة إلى كهولة الرسول صلى الله عليه وسلم قبل صعوده إلى السماء مباشرة¹.

نفي جيوم إصابة الرسول صلى الله عليه وسلم بالصرع لیتهمه بالوثني
يبين الفريد جيوم موقف جيل من المستشرقين في الماضي استنادًا لحادث شق الصدر، وما كان أنّ من أعراض الوحي أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم كان مصابًا بمرض الصرع ، وأنّ كاتبًا بيزنطيًا قد ألصقها به من قبل"، ثم يقول: "ومثل هذا الافتراض لا أساس له قط ، ونستطيع أن نعزوه آمنين إلى التحيز ضد النبي ، ودراسة هذه الظواهر النفسية لمثل هذه التجربة الدينية ، تجعل هذا الافتراض بعيد الاحتمال ، فالأنبياء ليسوا أناسًا عاديين ، ولكن هذا لا يتيح لنا أن نقول إنّ سلوكهم غير عادي مرده إلى حالة شاذة ، وفوق ذلك كله فإنّ محمدًا كان رجلًا لم يخنه إدراكه السلم قط . وأولئك الذين ينكرون عليه اتزانه العقلي والنفسي إنّما يتجاهلون الشواهد القاطعة الدالة على نفاذ بصيرته في الناس ، وتقديره المحكم لما يجري في العالم خلال العصر الذي عاش فيه ، كما يتجاهلون ثباته في وجه

¹ _ المصدر السابق . ص 26 . 24- 25 . Ibid, p .

المعارضة المستمرة حتى استطاع أن يجمع العرب على دين الإسلام ، وقد يكون لهذه التهمة سند لو أنّ محمدًا أنهار في ساحة المعركة أو في أثناء الجدل ، أو أنه كان يصاب بالإغماء حين تتأزم الأمور، إلا أنّ الشواهد التي لدينا تثبت عكس ذلك تمامًا. فافتراض وجود مرض الصرع ليس له أي أساس . في نظري . فضلًا عن أنه يسيء إلى جميع المسلمين ، يضاف إلى ذلك أنّ معظم الكتاب المحدثين . بعكس كتاب الجيل السابق . يتفق رأيهم مع رأيي وأخيرًا فإنّ استناده ليس له أساس تاريخي . فيما يبدو . إنّما هو جرم في حق النقد التاريخي¹ . وبعد نفي إصابة الرسول صلى الله عليه وسلم بالصرع نجد الفريد جيوم ينفي صحة كل ما كتب عن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم في السنوات الأولى من حياته ، ويقرر أنّ القصة الوحيدة الحقيقية عن السنوات الأولى للرسول موجودة في مخطوط لم ينشر حتى الآن لأول مؤرخ لحياة الرسول وهو ابن إسحاق.

والقصة التي يزعم الفريد جيوم أنّها الوحيدة الحقيقية عن السنوات الأولى لرسول صلى الله عليه وسلم تتهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالوثنية ، وهذا نصها:

"أخبرت أنّ الرسول قال حينما كان يتحدث عن زيد بن عمرو بن نفيل: إنّهُ أول من لامني على الوثنية ، ونهاني عن عبادة الأصنام ، وكنت قد قدمت من الطائف مع زيد بن حارثة حين مررنا بزيد بن عمرو والذي كان يعيش في مرتفعات مكة ، والذي جعلت منه قريشًا عبره لكل من

¹ - المصدر السابق. ص 26، 27.

تحدثه نفسه يترك دينهم ، ولذلك فقد هجر ناديهم ، ثم إنني قد جلست معه وكانت معي مزودة بها لحم كنا سنقدمه قربانًا لأصنامنا. وكان زيد بن عمرو هو الذي يحملها فأخذتها وقدمتها لزيد بن عمرو وكنت غلامًا حدثًا في ذلك الوقت، وقلت: عليك بشيء من هذا الطعام يا عمي: فأجاب: أليس ذلك جزءً من القرابين التي يتقربون بها إلى أصنامهم؟ فأجبت: نعم ! فقال يا ابن أخي لو أنك سألت بنات عبد المطلب لذكرن لك أنني لا أقرب لحوم القرابين، وليس لي رغبة في ذلك، ثم لامني على عبادة الأوثان ، وأنحى باللائمة على أولئك الذين يعبدونها ويقدمون إليها القرابين ، ثم قال: "إنها عديمة الجدوى ، لا تنفع ولا تضر أحدًا، أو قال كلمات تقرب من ذلك ، وأضاف الرسول: "وبعد ذلك لم أقرب صنمًا من أصنامهم أو أقدم له قربانًا إلى أن شرفني الله برسالته"¹.

ثم يعلق الفريد جيوم قائلاً: "وهذا الحديث يبين بجلاء كيف أن الرسول تأثر في صباه بأحد الموحدين ، وهو من لا نعلم عنه إلا القليل"².

فنلاحظ هنا أن الفريد جيوم قد نفى عن الرسول صلى الله عليه وسلم إصابته بالصرع ليجعل عقل القارئ - ولا سيما المسلم - يتقبل أنه كان يقدم القرابين للأصنام ، ويأكل من هذه القرابين ، والذي يؤكد قولي هذا أن الفريد جيوم في صفحة 56 ينسب إلى كتب التفسير أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان عرضه لنوبات الصرع ، بل يتهمه بأنه كالكهنة من الساميين

1 - المصدر السابق . ص 27 . 28.

2 - المصدر السابق . ص 28.

فيقول: "ونعلم من كتب التفاسير أنّ الرسول كان عرضة لنوبات الصرع فقد ذكر أنّه كان يشعر بمثل وقع صوت الناقوس حينما كان يأتيه الوحي ، وكان جبينه يتقصد عرقًا حتى إذا كان الجو باردًا. وقد طلب إلى زوجته في مرة من المرات أن تدثره بغطاء ، وكانت الرؤيا تبدو له في نومه في أغلب الأحيان "والصرع الديني" ظاهرة معروفة ، في أنحاء العالم في مرحلة معينة في المجتمع الإنساني ، وفي المراحل الأولى كان الرسول يلقي آياته شأن الكهنة الساميين القدماء ، وكان من علامات الكاهن العربي وضع غطاء على الرأس والتزام السجع في كلامه ، وقد لوحظ على أنبياء اليهود وأثر عنهم أنّهم كانوا أثناء انفعالهم يعانون شدة وإرهاقا ، وأنهم كانوا يبدوون "كالمأخوذ" الذي أصابه مس من الجنون أو مس من الشيطان"¹.

وبعد هذا الكم الخطير من الشبهات التي يثيرها الفريد جيوم نجده ينكر أمية الرسول صلى الله عليه وسلم.

إنكار الفريد جيوم لأمية الرسول صلى الله عليه وسلم

يقول الفريد جيوم عن أمية الرسول صلى الله عليه وسلم "قد وردت في القرآن آية يفهم منها أنّ الرسول لم يكن يستطيع القراءة حتى نهاية حياته "مع أنّ من الممكن أن يكون الكلام منصبًا على قراءته للكتب المقدسة المسيحية واليهودية" ، وهذه الآية تقطع بأنّه لم يدون القرآن بنفسه ، وإنّما قام شخص آخر بذلك بالنيابة عنه ، لأنّ الآية تذكر بعد ذلك أنّ القرآن كان يتلى على أهل مكة ، فاتهمه المكيون بأنّه يكتب الأساطير

¹ - المصدر السابق . ص 56. Ibid, p. 56.

والخرافات القديمة التي وصلت إليه من الأجانب ، ومع ذلك من المحتمل إطلاقاً أنّ يقنع الرسول بالاعتماد على معاونيه في قراءة خطاب أو بيع من البيوع في الفترة الأولى من حياته ، وإنّه لإطراء هزيل أن يسمى الرسول "بالرسول الأمي" ، كما يفعل بعض أتباعه"¹.

رحلة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الشام ولقاؤه ببحيرا

يشير الفريد جيوم في بداية حديثه عن هذه الرحلة إلى قلة المعلومات عن حياته خلال السنوات الخمسة عشر التي انقضت بين زواجه ، وبدأ دعوته ليعرف بمن اتصل وقابل ، واستطاعوا أن يمدوه بمعلومات عن اليهودية والمسيحية اللتين طالب بتصحيح كتابيهما المقدسين².

ثم يتحدث عن رحلته صلى الله عليه وسلم إلى الشام ، فيقول: "تؤكد الروايات أنه حينما كان الرسول في الثانية عشرة من عمره بينما كان مسافراً إلى سوريا مع عمه أبي طالب ، قابل راهبا يدعى بحيرا، بشره بأنه رسول الله، ويغلب على الظن أنه لا بد قد سلك طريقه إلى بلد مسيحية عندما كان يشرف على قوافل السيدة خديجة ، ولو أنه لا توجد شواهد ثابتة على ذلك ، وقد رأينا من قبل كيف أنّ بلاد العرب كلها كانت مليئة بمعتقي ديانتني التوحيد: اليهودية والمسيحية ، ولا يعقل أن رجلاً ضاق بدين قومه"³.

1 - المصدر السابق . ص 57.

2 - المصدر السابق . ص 31.

3 - المصدر السابق . ص 31.

ثم يشير إلى عمل الرسول صلى الله عليه وسلم في تجارة السيدة خديجة ، ثم زواجه منها ، وما أنجبته من أولاد وبنات؛ إذ أنجب ولدين ماتا في طفولتهما ، أمّا الأربع بنات فقد تزوجن ، فتزوجت زينب أبا العاصي ، وتزوجت رقية عثمان بن عفان وتزوجت أم كلثوم عتيبة ، وفاطمة فقد تزوجت علياً¹.

وبعد هذا العرض لما كتبه الفريد جيوم عن حياة الرسول صلى الله عليه وسلم من المولد إلى المبعث نجده يثير شبهات خطيرة وهي اتهام الرسول صلى الله عليه وسلم بالوثنية ، وتقديم القرابين للأصنام ، وأكل لحوم القرابين ، كما نجده ينفي صحة كل ما كتب عن حياة الرسول صلى الله عليه وسلم في السنوات الأولى مؤكداً صحة اتهامه بالوثنية مستنداً إلى وثيقة لا وجود لها نسبها إلى ابن إسحاق ، إذ لم يشر إلى مكان وجود هذه المخطوطة ، وهو بالتالي ينكر حادثة شق الصدر ، وأمّية الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكنه لم ينف رحلته إلى الشام ، ولقاءه ببجيرا لأنّه يريد إثبات هذا الحدث ليستطيع من خلاله أن ينشر فكرة معرفة الرسول صلى الله عليه وسلم باليهودية والمسيحية التي حرص جميع المستشرقين ترويجها وجدوا واجتهدوا في إثباتها من خلال افتراضات هم افتترضوها ، كما نجده يخدع القارئ فينفي إصابة الرسول صلى الله عليه وسلم بالصرع الذي ادعاه بعض المستشرقين ليقبل منه شبهة وثنيته ، ثم يعود ويثبت ما سبق وأن

¹ - المصدر السابق. ص32.

نفاه. فيزعم أنّ كتب التفسير تحدثت عن إصابته "صلى الله عليه وسلم" بالصرع.

هاملتون جيب يقرر أنّه لا يعرف سوى القليل عن حياة محمد صلى الله عليه وسلم المبكرة

يفصل هاملتون جيب في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم من المولد إلى المبعث ؛ إذ لم يكتب سوى بضعة أسطر وذلك لسببين من وجهة نظره:

1- أنّه لا يعرف سوى القليل عن حياة محمد المبكرة بشيء من التأكيد.

2- إنّ الأهم من معرفة حياته المبكرة هو معرفة خلفيته الاجتماعية.

لذا نجده كتب عدة أسطر جاء فيها: "أنّه ولد عام 570 م ، للابن الأصغر لفرع من بيوتات مكة ذات السيادة ، أنّه تيمم في سن مبكرة ، وتعهد بتربيته أحد أعمامه ، واشتغل في تجارة القوافل وعمل لأرملة تدعى خديجة ، ثم تزوجها وأنجب منها أطفالاً "عاش منهم أربع بنات" كل هذه الأعمال معروفة ولا تنبئ عن عظمة متوقعة ، أما التفاصيل القصصية التي وجد التراث الديني متعة في إعطائها لهذه الخطوط العريضة المجردة فلا بد من إبعادها مؤقتاً فالأهم من ذلك هو خلفيته الاجتماعية فهو كان

مواطنًا في مدينة ذات أهمية خاصة ومن الخطأ أن نصوره بدويًا يعيش بأفكار ونظرة بدوية إلى الحياة.¹

وهنا نجد أنّ جيب يذهب إلى ما ذهب إليه الفريد جيوم من قلة المعلومات عن الحياة المبكرة للرسول صلى الله عليه وسلم، إلا أنّه يختلف مع من سبقه من المستشرقين ، ومن أتى بعده بأنّ الرسول صلى الله عليه وسلم اعتبر أنّه من الخطأ أن نصوره صلى الله عليه وسلم بدويًا يعيش بأفكار ونظرة بدوية إلى الحياة.

وات يثير الشكوك في صحة سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم من المولد إلى المبعث

لقد ذهب وات مذهب الفريد جيوم ، وقبلهما مرجليوث في الوقائع والحوادث السابقة على بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم ويصفها بأنّها قابلة للجدل ، وكثير من هذه الوقائع ليست حقيقية بالمعنى الواقعي للمؤرخ ، لأنّها تحاول وصف وقائع يمكن نسبتها إلى فترات لاحقة من حياة محمد ، واستدل على رأيه بواقعة استرضاع الرسول من قبل حليلة ، ونزول الخير الصحيح عليها للبركة التي حلت عليها وعلى دوابها وحيواناتها ، وواقعة شق صدره وهو يرعى حيوانات حليلة رفقة أخوته من الرضاعة ، كما أورد واقعة سفر النبي مع عمر أبي طالب إلى الشام ومرور قافلة قريش على بحيرا الراهب ، وتنبئه بأنّ محمدًا سيكون له شأن في قابل الأيام ، وقد سرد وات هذه الوقائع طبقًا للروايات الإسلامية ، وشك في حصولها طبقًا لإيراد

H.A.B.Gibb Mohammedanism p 17 Oxford University 1911. ¹-

ابن إسحاق لها، مع أنه قد أقر بأن هذه الوقائع يعتبرها المسلمون حقائق لا يرتابون فيها وتكون ملحقا مناسباً لحياة نبيهم¹.

ثم يتحدث وات عن حياة النبي صلى الله عليه وسلم ويقول: "ولد محمد عام الفيل حين فشل أبرهة في حملته على الكعبة ، وكان ذلك نحو عام 570 م²، وربما ولد بعد وفاة أبيه، ونشأ في رعاية جده عبد المطلب ، وكان من عادة الطبقات الأرستقراطية أن تعهد بأبنائها للمراضع من القبائل البدوية لكي ينشأ الأطفال في هواء الصحراء الصافي نشأة قوية ، وحدث هذا لمحمد خلال سنتين أو أكثر ، وكانت مرضعته حليلة ، وهي امرأة من قبيلة سعد بن بكر من قبيلة هوازن الكبيرة"³.

ثم يستطرد قائلاً: "وقد توالى المصائب على اليتيم ، توفيت والدته وهو في السادسة من عمره ، ثم توفي جده ، بعد سنتين فأصبح بعد ذلك في رعاية عمه أبي طالب ، ويقال بأنّه رحل في ذلك الوقت إلى سوريا، وقعت حرب الفجار ومحمد بين الخامسة عشرة والعشرين من عمره ، ويروى بأنّه شارك في الحرب إلى جانب أعمامه ، وربما حضر أيضاً حلف الفضول ، وعبر بعد سنوات عن موافقته عليه ؛ إذ كان هدف هذا الحلف الوقوف إلى جانب مبادئ العدل ضد عدوان القبائل القوية الغنية ، وكان هذا الهدف قريباً جداً في بعض الوجوه من تعاليم القرآن"⁴.

1 - وات . محمد في مكة . ص 66.

2 - ولكنه يشكك في تاريخ مولده صلى الله عليه وسلم في كتاب محمد نبي ورجل دولة.

3 - وات. محمد في مكة. ص 65 ، 66.

4 - المصدر السابق. ص 66.

وعندما تقرأ ما كتبه وات في كتابه "محمد نبي ورجل دولة" نجده يقول "إنَّ مستقبل يتيم في مكة في القرن السادس الميلادي لم يكن بالأمر الهين فطبقا لطريقة حياة البدو القديمة ، فإنَّه من المعروف أنَّ رئيس العشيرة أو القبيلة مسؤول عن أفراد قبيلته أو عشيرته ، ولكن في مكة حيث الصراع الجنوني على أشده من أجل زيادة الثروة والغنى يصبح كل شخص يبحث عن مصالحه الذاتية متناسياً مسؤولياته السابقة ، فكان الذين تحملوا مسؤولية محمد عملوا كل ما من شأنه لمنعه من الموت جوعاً، ولكن كان من الصعب عليهم فعل أكثر من ذلك خاصة وأنَّ ثروة بني هاشم قد تناقصت في هذه الفترة ، وهكذا فإنَّ اليتيم الذي لا يرعاه أحد والذي لم يخص برعاية معينة لم يكن مهيناً لمستقبل تجاري زاهر، وكانت التجارة هي المستقبل الحقيقي الوحيد المفتوح أمامه ، وعندما سافر محمد مع عمه إلى الشام فقد اكتسب بعض الخبرات ، ولكن لقلّة رأس المال فقد كانت الفرص قليلة أمامه لاستخدام هذه الخبرة التي حصل عليها¹.

ثم يقول: "لا نعرف شيئاً كثيراً عن أحوال مكة إبان الفترة الأولى من شباب مكة ،" ويقول "وات" : "ويرى أنَّ المعلومات التي يمكن الحصول عليها متناثرة ومتضاربة وناقصة ومن الصعوبة بمكان فصل التاريخ عن الأساطير ، وهذه المعلومات تعطينا لوحة عن مدينة تتطور فيها التجارة ، ويزداد فيها القوة والنفوذ ، فقبل عام 590م ، حصلت واقعتان هامتان ارتبطتا بمحمد من قريب أو بعيد:

1- Watt, Mohammed Prophet and Statesman P 8 Oxford University Press 1969

1- سلسلة المعارك التي عرفت بحرب الفجار ، وقد حضر محمد مع أعمامه كل أو إحدى هذه المعارك بالرغم مما قيل عن دوره البسيط فيها، وقد نتج عن هذه المعارك حلف الفضول¹.

2 . ثم يسير وات شبهة خطيرة تتهم الرسول صلى الله عليه وسلم أنه تزوج السيدة خديجة لغناها فيقول: " In this world of unscrupulous business men how, was a poor orphan , however gifted, to make his way? The one possibility was to find a rich womman to marry him , do that he could, as it were, 2enter into a business partnership with her?"

وترجمة هذا النص: "وفي هذا العالم المضطرب المحكوم برجال الأعمال كيف يتمكن شاب يتيم فقير مهما كانت صفاته من شق طريقه؟ ثم يجيب عن هذا السؤال بقوله: "إنَّ السبيل الوحيد أن يجد امرأة غنية لتتزوجه ليستطيع أن يدخل معها شريكًا في الأعمال"

ويشكك وات في عمر السيدة خديجة الذي يراه أقل من ذلك بكثير، لأنها ولدت للرسول ولدين وأربع بنات ، ولو كان عمرها كما يقول الرواة قد بلغ الأربعين لما استطاعت إنجاب هذا العدد من الأطفال نظرًا لحالة النساء الجسدية في تلك البيئة وفي تلك الحقب من الزمان³.

ثم يقول وات : "وكان لهذا الزواج أهمية كبيرة بالنسبة إلى مستقبل محمد ، فقد خطا بذلك في نظر المجتمع المكي أول خطواته لارتقاء سلم

1- ibid p 8.

2 - Ibid p 10.

3 - Ibid p .12.

النجاح ، فأصبح يملك رأس مال كافٍ ليشارك نوعًا في الأعمال التجارية ، ولم نعلم أنه ذهب إلى سوريا مرة ثانية ، لكنه هو فعل ذلك.

وقد كان لهذا الزواج دور في تطور الجانب الروحي عند محمد ويرجع وات ذلك إلى ابن عم خديجة "ورقة بن نوفل" وهو رجل متدين اعتنق المسيحية ، والذي قيل عنه: "أنه قد شجع محمد لتقبل الوحي المماثل لليهود والنصارى. وكان محمد يلتجأ دومًا إلى خديجة في لحظات اليأس التي تمر به خاصة عندما شك في رسالته النبوية ، لقد كان زواجه بخديجة منعطفًا هامًا في حياته، ولم يتزوج مطلقًا عليها طوال حياتها¹.

مما سبق نجد أنّ وات قد شكك في تاريخ السيرة النبوية من المولد إلى المبعث ، كما نجده أثار شبهات حول زواج الرسول صلى الله عليه وسلم من السيدة خديجة زاعمًا أنه تزوجها لغناها ، وأنّ هذا الزواج أسهم في تطوره من الجانب الروحي لاتصاله بورقة بن نوفل.

برنارد لويس أيضًا يشكك في السيرة من المولد إلى المبعث

يزعم برنارد كغيره ممن سبقه من المستشرقين أنه لا يعرف إلا القليل عن أوائل حياة محمد صلى الله عليه وسلم ، بل نجده يزعم أنه لا يعرف إلا القليل عن نسبه ، ونجده يزعم أنّ هذا القليل قد أخذ يتناقص شيئًا فشيئًا كلما تقدم البحث الأوروبي، وأثار شبهة بعد أخرى حول المادة المضخمة في الأخبار الإسلامية، ثم يشكك في تاريخ مولد الرسول صلى الله عليه وسلم فيجعله بين 570 . 580 م ، في بيت هاشم ، ثم يقول: "وقد نشأ محمد

¹ - Ibid p .12.

نفسه يتيمًا في أحوال فقيرة ، وكان ذلك على ما يرجح في كنف جده ، وقد نال الثروة في المكانة بعدما تزوج من خديجة ، وهي أرملة تاجر غنى تكبر محمد بعدة سنوات ، ونجد صدى هذه الأحداث في الآيات القرآنية التالية ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى . وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى . وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ﴾¹ ، أما أنّه اشتغل بالتجارة فهو أمر محتمل وإن لم يكن أكيدًا ، وقد كانت مكة مدينة يتم فيها تبادل التجارة ، وترداد التشابيه والمجازات والعبارات التجارية في القرآن الكريم يوحي بأنّه كانت للنبي خبرة تجارية ، أمّا الأخبار التي تنبئ عن رحلات تجارية إلى البلاد المجاورة فتدعوا إلى التحفظ ؛ إذ من الثابت أنّ ثمة بينة ضئيلة في أقوال محمد تنبئ بمعرفته لتلك البلاد ، وتثير المشكلة الحرجة حول ما سبق له من روحانية كثيرًا من نقاط التساؤل ، فمن البين أنّه كان في ظل المؤثرات اليهودية والنصرانية ، ويؤيد هذا فكرة التوحيد والوحي نفسها ، والعناصر الكثيرة التي تعود إلى الكتاب المقدس ، ولكن محمدًا لم يسبق له أن قرأ الكتاب المقدس ، وتقول الأخبار الإسلامية أنّه كان لا يقرأ ولا يكتب ، وقد يكون الأمر هكذا وقد لا يكون ، ولكن روايته لقصص الكتاب المقدس توحى بأنّ معرفته به كانت عن طريق غير مباشر ، وربما كانت عن طريق التجارة والرحالة واليهود والنصارى² .

مما سبق يتبين لنا أنّ برنارد لويس يذهب إلى التشكيك في صحة تاريخ السيرة من المولد إلى المبعث ، فهو يشكك فيما لو كان الرسول صلى الله عليه وسلم في كنف جده عبد المطلب أم لا ، ويشكك في اشتغاله

1 - الضحى : 6-8 .

2 - لويس ، برنارد . العرب في التاريخ . ص 49 . 50 .

بالتجارة ، كما يشكك في أمية الرسول صلى الله عليه وسلم ، في حين أنّه لم يشكك فيما أسماه بالموثرات اليهودية والمسيحية.

وثمة ملاحظة أخرى وهي أنّ برنارد لويس يزعم أنّه لا يعرف إلا القليل عن نسب الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكأنيّ به يريد أنّ يدعم مزاعم مرجليوث حول نسب الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهذا ليس بمستغرب من مستشرقين يهوديين.

موقف بودلي من السيرة النبوية من المولد إلى المبعث

يختلف بودلي عن من سبقه من المستشرقين فيما ذكره عن اسم الرسول صلى الله عليه وسلم عند مولده ؛ إذ يذكر أنّ الطفل سمي عقب مولده "قثم" وبعدهما شكر عبد المطلب الآلهة أسماه محمداً¹.

كما نجده يقول إنّ أبويه غنيين²، ثم نجده يناقض نفسه فيقول: "إنّ والده لم يترك إلا داراً صغيرة وخمسة من الإبل ، وبعض الماعز وجارية تدعى بركة ، وما كانت هذه التركة كافية ليبدأ الإنسان حياته بها ، وإنّه لشيء أليم لسليل هاشم"³.

لم يذكر بودلي حادثة شق الصدر، كأنّها لم تكن ، فقد أنكر غيره من المستشرقين هذه الحادثة فذكروها ونفوا صحتها ، ولكن بودلي لم يذكرها ، ولم يذكر شيء من الخوارق والمعجزات ، وقد اعتبر بودلي أنّ

1 - بودلي . الرسول حياة محمد . ص 32.

2 - المرجع السابق . ص 28.

3 - المصدر السابق . ص 32.

بشارة الملائكة لأم النبي صلى الله عليه وسلم بقدومه قبل مولده من الخرافات فيقول: "لا توجد أسرار تحيط بمولد محمد ، إذا استثنينا عدة خرافات لا يقبلها عقل ، فما كان هناك من بشائر على أنه المصطفى من الله، فما زارت الملائكة أمه قبل مولده ، ولا بشرتها بقدومه ، حملته أمه ووضعتة كما تحمل كل أنثى وتضع"¹.

تشكيك بودلي في أمية الرسول صلى الله عليه وسلم

وفي هذا يقول : "وفي قول محمد للملك إنّه لا يعرف القراءة مجال لمجادلة أخرى، كان طرفاها كل من أعداء محمد ومريديه ، فيقول البعض إنّه أمي لا يعرف الكتابة والقراءة ، ويقول البعض الآخر بعكس ذلك ، وليس هناك ما يؤيد أو ينفي أحد الزعمين ، كانت الكتابة في تلك الأيام أمرًا عاديًا بين العرب ، بدليل أنّه علي بن أبي طالب كان كاتبًا ، فما الذي منع أبا طالب وقد علم ابنه من أن يعلم ابن أخيه ، وقد كانا يعيشان في دارٍ واحدة؟ ولمّ أهمل تعليل تعليم سليل بني هاشم وعبد المطلب سليل ذلك البيت الأرستقراطي؟، ثم يستطرد قائلاً:

"إنّ التعليل الوحيد المعقول ، هو أنّ محمدًا بدأ حياته العملية مبكرًا، فما كان أمامه فسحة من الوقت ليتعلم، ولكنه لم يبدأ ترحاله قبل الثالثة عشرة ، وعلى الرغم من ذلك فإنّهم ليؤكدوا عدم إلمامه بالقراءة والكتابة ، وإنّهم ليستندوا في ذلك على قول محمد نفسه ، فكان يعبر دومًا على أنّه يجهل القراءة والكتابة ، ولعله تبادر إلى ذهنه أنّه في إشهار أمر أميته

¹ -المصدر السابق. ص 28.

دعاية طيبة له ، فإنّ صدور كتاب القرآن عن عربي جاهل بالقراءة والكتابة يحدث ضجة تفوق ولا شك ما يحدثه صدور نفس الكتاب عن متعلم¹.

بودلي والتأثيرات اليهودية والمسيحية

كغيره من المستشرقين يحاول بودلي بشتى الأساليب أن يبين أنّه كان يوجد في مكة يهود ونصارى ، وذلك ليثبت أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم قد تأثر بهم ، وأنّ ما جاء من أخبار في القرآن الكريم استقاها من اليهود والنصارى سواء المقيمين في مكة أو الذين التقى بهم من خلال رحلاته ليصل هذا المستشرق وأمثاله في النهاية إلى أنّ القرآن ليس من عند الله ، وإنّما كلام محمد صلى الله عليه وسلم ونلمس هدف بودلي "هذا" بوضوح في العبارات التالية:

1- في سياق كلامه عن خروج الرسول صلى الله عليه وسلم إلى السوق وهو طفل بصحبة عمه أبي طالب ، وذلك في يوم خروجه السريع مع قافلة إلى الشام يقول بودلي : "وفي صبيحة يوم من الأيام صحب أبو طالب ابن أخيه ، فأشرق وجه محمد سروراً ، وكان سروره عظيماً لم يحسه قبل اليوم ، انطلقا إلى السوق وهو يموج موجاً بالإبل ، والحمير القوية والبغال الرشيقة ، والعرب السوريون والفرس والعبيد واليهود يتحدثون باللسنة متعددة².

1 - المصدر السابق. ص 59 . 60.

2 - المصدر السابق: ص 37.

2- وفي حديثه عن الراهب بحيرا، وادعائه أنّ الراهب بحيرا أخبره بعقيدة عيسى وسفه عبادة الأصنام، وأنّ محمداً صلى الله عليه وسلم اختزن في عقله ما قاله الراهب النسطوري، فإذا جد الجد وجد عنده قدراً من المسيحية استغله.

3- أنّ جاريته بركة وكانت مسيحيته نقيّة حدثته حديث المسيحية¹.

4- لم يكتف بودلي بهؤلاء فيقول: "وما كان الراهب هو المؤثر الجدير الوحيد في محمد ذلك الوقت ، فقد كانت العقائد والأديان تتشابك في سوق عكاظ في كل موسم ، فكان اليهود والنصارى، وعبدة الأصنام وعبدة النار من الفرس يتلاحمون.

5- وكان قيس بن ساعدة ، راهب نجران النصراني ، يخطب الناس من فوق جملة شارحاً عقيدته ، وكان يقضي الساعات وهو يحدث الناس عن تفاهة الحياة الدنيا ، وعظمة الحياة الأخرى ، وقد استمع محمد إلى شذرات من هذه الخطب ، وفي السنين التالية كان محمد يخطب الناس من فوق جملة ، وكان حديثه يحوي كثيراً من العظات التي كان يرددها الراهب النصراني.² ومن تناقض بودلي قوله: "إنّ أبا طالب سمع كل هذه الأقوال من قبل فما أثرت فيه ، وما كان ليفقه ما يدور حوله بينما كان ابن

1 - المصدر السابق. ص 39.

2 - المصدر السابق. ص 40.

أخيه يخصصها بانتباه أكثر مما يفعل ، ثم يقول: "لقد كان غلامًا عاديًا ، فإذا كان قد تأثر بها أكثر مما يجب فلأنّها كانت جديدة عليه"¹.

6- قوله إنّ الرحلات التي يخرج محمد صلى الله عليه وسلم من مكة كانت إلى اليمن والشام وفلسطين وفارس وهو لم يتخط سن العشرين.²

7- قوله "إنّ محمدًا أصبح أكبر تجار القوافل ، وأنشطهم في غرب بلاد العرب عند تخطيه سن الخامسة والعشرين ، ويعهد إليه كثيرون غير عمه بأمر تجارتهم ، وقد اختلف محمد عن زملائه من التجار فإنّه بعد أن ينقضي يومه ويقضي وقته في السوق أو في دار الصديق ، حيث يجتمع المغنون ورواة القصص والشعراء ، ولطالما أنصت هناك إلى الفلاسفة ورجال الأديان يتناقشون في أمور دينهم وعقائدهم" ، ثم يقول بودلي: "وترادفت رحلاته فألم خلالها بتاريخ تلك البقاع من آسيا وتقاليدها وتهيأ له ما تهيأ لأمثاله ممن يقضون أعمارهم في الرحلات من الحكمة الدنيوية"³.

وهكذا نجد بودلي قد أجهد نفسه في إيجاد مبررات ساقها من خياله ، أو نقلها من غيره من المستشرقين الذين يسعون وراء هدف واحد ، وهو تقرير ما قرره بودلي بقوله : "وإنّ الدارس لحكمة محمد لتبهره حكمته الساطعة ، وليرى محمدًا شيئاً مميّزاً لا يمت لعصره بسبب ، وإنّه ليعجب أحياناً من اعتدال أحكامه التي تعالج الأمور العامة ، كانت أفكاره سابقة

1 - المصدر السابق . ص 40.

2 - المصدر السابق . ص 41.

3 - المصدر السابق . ص 42.

لأفكار معاصريه ، وإتته لمن الطبيعي أن تجعل هذه الرحلات محمداً يفكر فيما يرى ويسمع فكان على نقيض من سبقه من الأنبياء ، فإنه لم يكتف بالمسائل الإلهية ، بل تشفت له الدنيا ومشاكلها فلم يغفل الناحية العملية الدنيوية لما جاء بدينه فوق يبين دنيا الناس ، ودينهم ولبذلك تقادى مهاوي من سبقوه ، من المصلحين الذين حاولوا إخلاص الناس عن طريق غير عملي ، وأمدت القافلة محمد بتعاليمه¹.

هذا وما يريد بودلي الوصول إليه فتعاليم الإسلام ليس من عند الله ، وإنما هي تعاليم محمد صلى الله عليه وسلم استقاها من من لاقاهم من يهود ونصارى وفلاسفة في رحلاته . وأن محمداً ما هو إلا مصلح ، وقوله هذا يناقض مسمى كتابه "الرسول . حياة محمد" .

شبهات بودلي حول زواج الرسول صلى الله عليه وسلم بالسيدة خديجة رضي الله عنها

يورد بودلي قصة زواج الرسول صلى الله عليه وسلم بالسيدة خديجة وفق رواية شبرنجر مع اختلاف بسيط ، فبودلي جعل العم هو الذي أسكرته السيدة خديجة ليتم الزواج لأنه كان معارضاً لهذا الزواج ، ويفهم من هذا أن والدها كان متوفياً، بينما رواية شبرنجر وقيل كان والد السيدة خديجة موجوداً وهو الذي أسكرته السيدة خديجة ، وعندما فاق وعلم أن الزواج ، ثم اعترض على هذا الزواج.

1 - المصدر السابق . ص 42.

الفصل الرابع

الرد على شبهات المستشرقين حول السيرة من البعثة
إلى الهجرة إلى المدينة من خلال مهاجمهم

رد شبهات المستشرقين من خلال مناهجهم

مما سبق عرضه لأهم ما جاء في كتابات ثمانية من أهم مستشركي المدرسة الإنجليزية منذ أواخر القرن التاسع عشر حتى السبعينات من القرن العشرين عن السيرة النبوية المطهرة من المولد إلى المبعث نستخلص الآتي:

أولاً - اتفق هؤلاء المستشرقون على عدم الاعتماد على المصادر الإسلامية كمصادر أساسية للسيرة والتقليل من شأنها ، والتشكيك في صحة رواياتها ، وذلك بإخضاعها لمناهجهم الغربية ليتمكنوا من إثارة ما يريدونه من شبهات ، ووضع ما يريدونه من استنتاجات واقتراحات ومن المناهج التي اتبعوها في كتاباتهم لهذا الجزء من السيرة النبوية:

1. التفسير المادي للتاريخ: وبذلك أنكروا جميع المعجزات والخوارق التي ظهرت إبان مولده صلى الله عليه وسلم ، ومنها إنكارهم لحادثة شق الصدر ، بل نجد بودلي أسقطها تماماً ولم يشر إليها ، واعتبر بشارة الملائكة لأم النبي صلى الله عليه وسلم بقدومه قبل مولده من الخرافات ، ونحن لو نظرنا إلى هذه الخوارق والمعجزات نجدها من الأمور التي لا تخضع للتفسيرات العلمية ، فهي من الأمور الخارقة للسنن الكونية المعتادة والتي لا قدرة للبشر على الإتيان بمثلها ، ويجريها الله على رسله وأنبيائه ليصدق أقوالهم بنبوتهم ، وأنهم رسل من عند الله.

المعجزة في اللغة: اسم فاعل مأخوذ من العجز الذي هو زوال القدرة عن الإتيان بالشئ من عمل أو رأى أو تدبير¹. ويقول ابن منظور: العجز: الضعف²، ومعجزة النبي صلى الله عليه وسلم ما أعجز الخصم عند التحدي والهاء للمبالغة³، ويعرفها الفخر الرازي: بأنها أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي، سالم عن المعارضة، كتحويل العصى أفعى، وإبراء الأكمة والأبرص وشق القمر⁴، ومعجزة القرآن الكريم.

أمّا الخوارق فهي التي تعطي للأنبياء وليس مقصوداً بها التحدي، كحادثة شق الصدر، ونبع الماء بين أصابع الرسول صلى الله عليه وسلم، تكثيره الطعام القليل، تسبيح الحصى في كفة، إتيان الشجر إليه، حنين الجذع إليه، وما أشبه ذلك⁵.

فالماديون الذين اعتبروا حادثة شق الصدر وغيرها من الخوارق مجرد أساطير، فهم وقعوا في خطأ كبير، لأنّ الخوارق يجب التسليم بها كما تبين لنا مخالفة السنن الكونية، وللأسف الشديد نجد بعض الباحثين المسلمين قد تأثر بتفسيرات المستشرقين المادية مع علمهم بإجماع

1- الأشقر، د. عمر . (1403هـ / 1983م) الرسل والرسالات. ص 121 . مكتبة الفلاح . ط 4 . الكويت.

2 - ابن منظور. لسان العرب، 5 / 369 . باب الزاي فصل العين . دار الفكر.

3 - المرجع السابق. ص 464.

4 - الأشقر. مرجع سابق، ص 121.

5 - المرجع السابق. ص 122.

المصادر على صحتها مثل حادثة شق الصدر، ويتساءلون لماذا تجمع المصادر الإسلامية على صحتها¹.

هذا وقد قال ابن حجر العسقلاني بشأن شق الصدر وغيرها من الخوارق "إن جميع ما ورد من شق الصدر واستخراج القلب وغير ذلك، من الأمور الخارقة للعادة مما يوجب التسليم له دون التعرض لصرفه عن حقيقته لصلاحية القدرة فلا يستحيل شيء من ذلك"³.

وأما الذين يقولون بأن الرسول لم يكن بحاجة إلى من يشق بطنه أو صدره ما دام الله قد أعده لتبليغ رسالته⁴؛ إذ اتضحت لهم الحكمة من ذلك، فلقد كانت الحادثة إعلانًا لأمر الرسول صلى الله عليه وسلم والتهيئة للعصمة والوحي منذ صغره بوسائل مادية، ليكون ذلك أقرب إلى إيمان الناس به وتصديقهم برسالته، إنها إذن عملية تطهير معنوي، ولكنها اتخذت هذا الشكل الحسي المادي ليكون فيه ذلك الإعلان الإلهي بين أبصارهم وأسماعهم⁵.

1 - انظر: الحاج. الظاهرة الاستشراقية. 3/ 89.

2 - انظر محمد أبو شهبه. السيرة في ضوء الكتاب والسنة. ط1. ص 199. 203. وقد ناقش المفكرين شق الصدر والمشككين فيه.

3 - رزق الله، د. مهدى. (1412هـ/ 1982م) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية. ص 118. ط1 الرياض. مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات.

4 - الحاج، د. ساسي. الظاهرة الاستشراقية. 3/ 89.

5 - البوطي، د. محمد سعيد رمضان. فقه السيرة. ص 52. ط7. دار الفكر.

وأياً كانت الحكمة فلا ينبغي . وقد ثبت الخبر ثبوتاً صحيحاً . محاولة البحث عن مخارج لنخرج منها بهذا الحديث عن ظاهره وحقيقته ، غير أنّ قبولنا للخبر هو صدق الرواية وصحتها فإذا اثبت ذلك فلا بد من قبوله¹ .

2 . قلبهم الوقائع والأحداث بوصفهم زواج الرسول صلى الله عليه وسلم من السيدة خديجة رضي الله عنها بأنّه زواج مصلحة ، وأنّه لم يكن أمامه صلى الله عليه وسلم من وسيلة لكسب رزقه ، وشق طريقه للوصول والنجاح إلا من الزواج من هذه الأرملة الغنية ، وإن كانت تكبره بخمسة عشر عاماً .

فهنا قد قبلوا الوقائع والأحداث ، فالرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن هو المبادر بالخطبة وطلب الزواج ، فهو لم يتقدم لخطبتها إلا بعدما أرسلت له نفسية بنت ضية ، وألمحت إليه برغبة السيدة خديجة الزواج منه ، بعدما حكى لها خادمها ميسرة . الذي رافقه في رحلته إلى الشام بتجارة لها . عن أمانته وعن ما رأى وما سمع ، مما يؤكد أنّه نبي ، فأعجبت بأمانته وكرم أخلاقه .

ثم إنّ الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن من طلاب المال والشهرة والغنى ، وكان معروفاً عنه اعتماده على نفسه في جميع أموره والبحث عن العمل الشريف لكسب رزقه ، فقد اشتغل بالرعي ثم بالتجارة ، وكان قانعاً بذلك² .

1 - المرجع السابق . ص 52 .

2 - الحاج ، د . ساسي . الظاهرة الاستشراقية ، 3 / 101 .

ثم إنَّ محمدًا من بني هاشم ، وهم في الذروة من قريش نسبًا وشرفًا ، وقد صدع بها أبو طالب في مجمع حافل بالسادات فما نازعه فيها منازع¹.

ومثل الرسول صلى الله عليه وسلم في شبابه الفتى ، ورجولته النادرة ، وخلقه الكامل ، ممن يتشرف بمصاهرته الأشراف ، وها هو أبو سفيان وهو في عداوته للنبي وبني هاشم لما بلغه أنَّ النبي تزوج السيدة أم حبيبة ابنته ، ولم يكن أسلم بعد قال هذا الفحل لا يقدر أنفه².

3. اتباعهم منهج الشك الذي ابتدعه عالم الاجتماع ديكرت ، وكان أول من طبقه على الدراسات التاريخية والأدبية الإسلامية مرجليوث في مقاله الشهير "أصول الشعر العربي" لذا نجد جميع المستشرقين شككوا في تاريخ السيرة من المولد إلى المبعث بصورة عامة ، وبصورة خاصة التشكيك في:

نسب الرسول صلى الله عليه وسلم، فمنهم من شكك في أبوي الرسول صلى الله عليه وسلم وقال إنَّه مجهول الأب والأم "مرجليوث" ، ومنهم "وليم موير" شكك في انتسابه إلى سيدنا إسماعيل عليه السلام ، أمَّا "برنارد لويس" فزعم أنَّه لا يعرف إلا القليل عن نسبه.

وهذه المزاعم والشبهات لا تستند على أي أسانيد تاريخية أو روايات صحيحة ، بل تخالف ما ورد في القرآن الكريم والسنة الشريفة ، وكتب السيرة والأنساب ، وما جاء في التوراة والإنجيل.

¹ أبو شهبه. مرجع سابق . 1 / 221.

² - المرجع السابق . 1 / 221.

بل هي أكثر الأمم اهتمامًا بالأنساب ، وهم أول من عرف علم الأنساب ، فكيف يزعم برنارد لويس أنه لا يعرف عن نسبه صلى الله عليه وسلم إلا القليل ، وهو يعيش بين أمة تولي كل هذا الاهتمام بالأنساب؟.

وقد سبق أن بينت بطلان إدعاء وليم موير طبقًا لما جاء في الحديث الشريف . وكتب السيرة¹

كما نجد التوراة قد أشارت إلى نسبه إلى إسماعيل عليه السلام ، فقد جاء في سفر أشعيا 60 : 1 . 7، وهذا نصه: "قومي استتيري، لأنه قد جاء نورك ومجد الرب أشرق عليك ، لأنه ها هي الظلمة تغطي الأرض والظلام الدامس الأمم ، أمّا عليك فيشرق الرب ، ومجده عليك يرى ، فتسير الأمم في نورك ، والملوك في ضياء إشراقك ، ارفعي عينيك حواليك ، وانظري ، قد اجتمعوا كلهم ، جاءوا إليهم يأتي بنوك من بعيد، تحمل بناتك على الأيدي، حينئذ تنظرين وتتيرين ، يخفق قلبك ويتسع ، لأنه تتحول إليك ثروة البحر، ويأتي إليك غنى الأمم، تعطيك كثيرة الجمال بكران مديان ، وعيفة كلها تأتي من شبا تحمل ذهبًا ولباسًا وتبشر بتسابيح الرب كل غنم قيذار² تجتمع إليك ، كباش بنايوت تخدمك وتصعد إليك مقبولة على مذبحي وأزين بيت جمالي".

وفي سفر أشعيا 42 : 10 . 13 "وغنوا للرب أغنية جديدة ، تسبيحة من أقصى الأرض ، أيها المنحدرون في البحر ومائة والجزائر وسكانها ،

1 - راجع ما سبق ذكره في بداية هذا الجزء .

2 - قيذار هو ابن سيدنا إسماعيل عليه السلام اقرأ تكوين 25 : 12 . 18 ، تكوين 21 : 13.

لترفع البرية ومدنها صوتها الديار التي تسكنها قي دار ، لتترنم سالف¹ من رؤوس الجبال ليهتفوا ، ليعطوا مجداً ويخبروا بتسبيحه في الجزائر ، الرب كالجبار يخرج كرجل حروب ينهض غيرته يهتف ويصرخ ويقوى على أعدائه ."

وتظهر لنا صلة الرسول صلى الله عليه وسلم من بنايوت بن إسماعيل بن إبراهيم عليهم أفضل الصلوات والسلام ، وهذه السلسلة النبوية الكريمة يدونها موسى عليه السلام هكذا: "وهذه أسماء بنى إسماعيل حسب بنايوت بكر إسماعيل، وقي دار اثني عشرة قبيلة"².

ويزداد الأمر وضوحاً وإشراقاً بذكر رموز خاصة "كثرة الجمال" "يأتي إليك غنى الأمم" "غنم قي دار" "كباش بنايوت" "تصعد مقبولة على مذبحي" إشارة إلى يوم النحر بمنى، "وجبل عرفات بمكة" "الجزائر وسكانها" الديار التي سكنها قي دار" "الرب كالجبار يخرج كرجل حروب ينهض" ولقد قال الغرب إن الإسلام قام غازياً كجبار، يهتف ويصرخ ويقوى على أعدائه³.

التشكيك في أمية الرسول صلى الله عليه وسلم مع أن القرآن الكريم أوثق المصادر وأقواها أكد على أمية الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ إذ يقول جل شأنه : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾⁴ وقوله تعالى في الآية التي تليها من السورة

¹ - في القاموس : سلع جبل بالمدينة ، و سلع بالتصغير جبل في المدينة، وجبل سلع قبالة جبل أحد.

² - سفر التكوين 25 : 13.

³ - أحمد ، إبراهيم خليل محمد صلى الله عليه وسلم في التوراة والإنجيل والقرآن ص 71.

⁴ - الأعراف : 157.

ذاتها ﴿ فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾ وعندما فسر علماء اللغة والمفسرون هذه اللفاظ من الناحية اللغوية والموضوعية قصروا معنى الأمية على الشخص الذي لا يكتب ولا يقرأ ، فقد أخبر الحق سبحانه وتعالى أنّ النبي الأمي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل ، ففي سفر التثنية 18 : 18،19 جاء هذا النص :

"أقيم لهم نبيًا من وسط أخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به".

ومعنى "واجعل كلامي في فمه" أي يكون نبيًا أميًا، والأمي منسوب إلى الأمة الأمية التي هي على أصل ولادتها: أي العرب بنو إسماعيل ، ونبي الإسلام واحد منهم أي مثلهم ، لقوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾^{1،2}.

ويقول الشيخ رحمة الله هندي: "واجعل كلامي في فمه" إشارة إلى أنّ ذلك النبي ينزل عليه الكتاب ، وإلى أنه يكون أميًا حافظًا للكلام"³.

فالرسول صلى الله عليه وسلم معروف في كتب أهل الكتاب أنه أمي ، وأنه يتيم ، وأنه من بنى إسماعيل ولكن المستشرقين يخفون هذه الحقائق وهم يعلمونها ، ومنهم المنصرون والرهبانيون ، فوليم موير الذي أنكر

1 - الجمعة : 2.

2 - السقا ، د. أحمد حجازي . البشارة بنبي الإسلام في التوراة والإنجيل . ص 238.

3 - هندي رحمة الله . إظهار الحق . 205/2.

انتساب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى سيدنا إسماعيل عليه السلام كان منصرًا ، وألف كتابه شهادة القرآن على الكتب اليهودية والمسيحية لهدف تنصيري واضح ، وكذلك كتابه "حياة محمد"¹.

أما مرجليوث الذي يزعم أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم مجهول الأب والأم ، وأنّ قصة يتمه الواردة في القرآن لا يؤخذ بها ، فهو أيضًا ينكر حقائق يعرفها ، وهو يهودي ، ثمّ تنصر ، وانخرط في سلك الرهبنة بزواجه من جسي بين أسميث ابنة أسقف كانترميري ، وبصورة عامة فالمستشرقون بلا شك درسوا الكتاب المقدس ، لأنّ كتاباتهم عن الإسلام ، وعن القرآن الكريم منسوبة ، ومركزة بصورة خاصة على التأثيرات اليهودية والمسيحية ليلغوا أصالة الإسلام ، فلو كان هؤلاء المستشرقون يتصفون بالروح العلمية المجردة والنزاهة الموضوعية ، لما شكّوا في نسب الرسول صلى الله عليه وسلم وأهميته بل سيرته من المولد إلى المبعث.

أمّا قول مرجليوث أنّ محمدًا أعترف في مبدأ رسالته بمعرفة القراءة والكتابة ، ولعله يقول ذلك لقوله صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام عندما قال له اقرأ؟ فأجابه الرسول صلى الله عليه وسلم "ما اقرأ" و "ما اقرأ"؟ لا تعني ماذا اقرأ؟ وإنما تعني "لا اقرأ" فما هنا نافية ، ولعل الله جل شأنه أراد أن يؤكد أمية الرسول صلى الله عليه وسلم تأكيدًا علميًا وواقعيًا ملموسًا بهذه الواقعة ، لأنّها تكررت ثلاث مرات ، والله جل شأنه يعرف أنّه لا يقرأ ، ولكنه أراد أن يقدم دليلًا ماديًا ملموسًا للذين يحاولون الدس في الدين.

¹ - انظر الفصل الثاني من هذه الدراسة، ترجمة وليم موير.

أمّا افتراضات معرفة الرسول صلى الله عليه وسلم للقراءة والكتابة طالما كان تاجرًا ناجحًا ، فهو افتراض ليس في محله ؛ إذ ليس بالضرورة أن يكون التاجر الناجح ملماً بالقراءة والكتابة ، فإنّه يوجد في عصرنا الحالى تاجر ناجحون وهم أميون لا يقرءون ولا يكتبون ، فكيف قبل أربعة عشر قرنًا؟ أمّا ما ذهب إليه بعض المستشرقين أمثال ردنسون من القول بأنّ لفظ "أمي" بالحبشية الشخص الحكيم وليس من لا يعرف القراءة والكتابة ، وأنّ هذه الكلمة مشتقة من الحبشية ، ثم نقلت إلى العربية ، محاولاً بذلك إدخال المنهج الفيولوجي "فقه اللغة" الإسلام¹.

وهو أحد المناهج التي استخدمها المستشرقون في الدراسات الإسلامية. وعندما رجعت إلى بعض معاجم اللغة وكتب التفسير لم أجد ذكرًا بأنّ أصل كلمة "أمي" حبشي ، وعادة المفسرون بصورة خاصة يذكرون أصل الكلمة إن كانت أعجمية أم عربية.

فالقرطبي مثلاً يقول في تفسير قوله تعالى ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾²

يقول القرطبي في تفسير هذه الآية: "ومنهم أميون" أي من اليهود ، وقليل من اليهود المنافقين أميون ، أي من لا يكتب ولا يقرأ وأحدهم أمي ، منسوب إلى الأمة الأمية التي هي على أصل ولادة أمهاتها لم تتعلم الكتابة

1 - الحاج. الظاهرة الاستشراقية . 96 / 1 .

2 - البقرة : 78 .

ولا القراءة ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم "إنّا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب"¹.

ويقول الطبري: "الأمي عند العرب هو الذي لا يكتب وقيل للأمي أمي نسبة له بأنه لا يكتب إلى أمه ، لأنّ الكتاب كان في الرجال دون النساء ، فنسب من لا يكتب ولا يخط من الرجال إلى أمه في جهله بالكتابة دون أبيه ، كما ذكرنا عن النبي صلى الله عليه وسلم من قوله "إنّا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب"².

وأما ابن كثير فيقول في معنى قوله تعالى "ومنهم أميون" ومن أهل الكتاب قاله مجاهد : الأميون جمع أمي ، وهو الرجل الذي لا يحسن الكتابة.³

تلك القرابين لزيد بن عمرو بن نفيل ليأكل منها فرفض ، ونهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن ذلك.

والفريد جيوم عندما أورد هذه الرواية لم يذكر لنا أين وجد هذه المخطوطة ، وفي أي مصحف أو مركز للمخطوطات نجدها؟

والغريب أنّه يقرر أنّها الحقيقة الوحيدة في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم قبل بعثته!.

¹ - القرطبي. الجامع لأحكام القرآن الكريم المجلد الأول. 2. 6. ار الفكر لبنان ، الشوكاني فتح القدير . 1 / 134.

² - الطبري. جامع البيان عن تأويل آي القرآن. ص 528 . ط1. "دار الفكر . لبنان".

³ - ابن كثير . تفسير القرآن العظيم . 1 / 120 . دار المعرفة . لبنان.

وهذه الرواية بلا شك هي من اختلاق الفريد جيوم ، لأنه لو كتبها ابن إسحاق ، فلماذا لم يوردها في السيرة الخاصة ، وأنه فصل في الحديث عن زيد بن عمرو¹ .

ثم إن هذه الرواية تتناقض تمامًا عن ما أخرجه البخاري من حديث عبد الله بن عمر أنّ النبي صلى الله عليه وسلم لقي زيد بن عمرو بن نفيل بأسفل بلدح² ، وذلك قبل أن ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم الوحي ، فقدم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم شفرة لحم ، فأبى أن يأكل منها، ثم قال: إنّي لا آكل ممّا تذبجون على نصابكم ولا آكل إلا ما ذكر اسم الله عليه"³.

فليس في هذه الرواية أنّه صلى الله عليه وسلم ذبح على النصب أو أمر بذلك ، ولعل زيد ظن أن ذلك اللحم مما كانت قريش تذبجه لأصنامها فامتنع لذلك ، ولم يكن الأمر كما ظن زيد⁴.

أما قول زيد "على أنصابكم" فالأنصاب يعني الحجارة التي ليست بأصنام معبودة ، وإنّما هي من آلات الجزار التي يذبح عليه ، لأنّ النصب

1 - انظر سيرة ابن هشام . ص 224 . 232 . ط1 . "مؤسسة علوم القرآن . جدة"

2 - بلدح . هي مكان في طريق التنعيم [العسقلاني . ابن حجر . فتح الباري . 7 / 526] وهو وادي مكة الثاني يبدأ من نهاية حي الشهداء . وينتهي بالحديبية الشمسي ، ويسمى اليوم وادي أم الدود ، وغير إلى أم الجدد [عبد الغني ، عادل عبد الغفور . "دراسة في مرويات العهد المكي من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم . ط1 ص 309 . رسالة ماجستير" شعبة السنة . الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة . إشراف أ . د . أكرم العمري سنة 1408 هـ .]

3 - صحيح البخاري . كتاب الذبائح والصيد باب ما ذبح على الأصنام حديث 5499 / 4 1770 "المكتبة العصرية . بيروت .

4 - دراسات مرويات العهد المكي . مرجع سابق . ص 309 .

في الأصل حجر كبير، ومنها ما يكون عندهم من جملة الأصنام فيذبحون له وعلى اسمه، ومنها ما لا يعبد بل يكون من آلات الذبح فيذبح الذابح عليه لا للصنم، أو كان امتناع زيد منها صمًا للمادة¹، وقال الخطابي، كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يأكل مما يذبحون عليها للأصنام، ويأكل ما عدا ذلك، وإن كانوا لا يذكرون اسم الله عليه، لأنّ الشرع لم يكن نزل بعد، ولم ينزل الشرع بمنع أكل ما لم يذكر اسم الله عليه إلا بعد المبعث بمدة طويلة².

وقال السهيلي فإن قيل فالنبي كان أولى من زيد بهذه الفضيلة، فالجواب أنّه ليس في الحديث أنه صلى الله عليه وسلم أكل منها، وعلى تقدير أن يكون أكل، فزيد إنّما كان يفعل ذلك برأي لا بشرع بلغته، وإنّما كان عند أهل الجاهلية بقايا من دين إبراهيم، وكان في شرع إبراهيم تحريم الميتة لا تحريم ما لا يذكر اسم الله عليه، وإنّما نزل تحريم ذلك في الإسلام، والأصح أنّ الأشياء قبل الشرع لا توصف بحل ولا بحرمة، مع أنّ الذبائح لها أصل في تحليل الشرع، واستمر ذلك إلى نزول القرآن، ولم ينقل أنّ أحدًا بعد المبعث قد كف عن الذبائح حتى نزلت الآية "ولا تأكلوا ما لم يذكر اسم الله عليه"³.

هذا وقد قال البطال: "كانت السفرة لقريش فقدموها للنبي صلى الله عليه وسلم فأبى أن يأكل منها، فقدمها النبي صلى الله عليه وسلم لزيد بن

1 - العسقلاني، ابن حجر . فتح الباري بشرح صحيح البخارى . 7 / 527.

2 - المرجع السابق. ص 526.

3 - السهيلي . الروض الأنف . 1 / 256 ، 257 . دار الفكر.

عمرو فأبى أن يأكل منها ، وقال مخاطبًا لقريش الذين قدموها أولًا: إننا لا نأكل ما ذبح على أصنامكم.¹

وأنا أميل إلى هذا التفسير لأنّ صحيح الحديث يتفق مع ما أجمعت عليه المصادر بأنّ الله قد عصم رسوله صلى الله عليه وسلم من كل أمور الجاهلية.

فقد روى أنّ الله عصمه مرتين عندما حاول أن يسمر سمر الشباب ، وقد صححه الحاكم والذهبي²، كما عصمه الله من العرى ، وهو فتى ينقل مع أقرانه حجارة يلعبون بها، وقد رفعوا أزرهم فأمر أن يشد عليه إزاره³. ولقد ثبت أنّه نهى عن رفع إزاره وهو رجل لما جدت قريش بناء الكعبة ، فقد اشترك مع عمه العباس في نقل الحجارة ، فاقترح عليه العباس أن يرفع إزاره ويجعله على رقبته ليقويه أثر الحجارة ما دام بعيدًا عن الناس ، فلما فعل سقط على الأرض مغشيًا عليه ، فلما أفاق طلب أن يشد عليه إزاره⁴. وكان عمره عند تجديد بناء الكعبة خمسة وثلاثين سنة⁵. ولم يكن التعري مستكرًا عند العرب في الجاهلية ، فقد كانوا يطوفون بالبيت العتيق عراة

1 - ابن حجر . فتح الباري . 7 / 526 .

2 - رزق الله ، د . مهدي . السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية . ص 126 .

3 - ابن إسحاق بدون إسناد: وقد ضعفها د . العمري لأنّ في سنده مبهم .

4 - أخرجه الشيخان . فتح الباري وصحيح مسلم بشرح النووي . من حديث جابر بن عبد الله وأورده ابن عبد البر في الدرر ، ص 30 .

5 - سيرة ابن هشام من كلام ابن إسحاق بدون إسناد . ص 192 . والذهبي . السيرة النبوية . ص 32 ، وأورده عبد الرازق في المصنف بإسناد صحيح .

إلا الحمس¹، كما أنّ التعري في الطواف استمر حتى منعهم الرسول صلى الله عليه وسلم في السنة التاسعة من الهجرة ، وقد بلغ أمره هذا أبو بكر الصديق رضى الله عنه.²

وخالف الرسول صلى الله عليه وسلم قومه من أهل الحرم الذين عرفوا "بالحمس" ؛ إذ كان يفيض مع الناس من عرفات حين كانت الحمس تفيض من مزدلفة ، وقد تعجب جبير بن مطعم من الرسول صلى الله عليه وسلم لهذا الفعل ، وكان ذلك توفيقاً من الله تعالى كما قال جبير بن مطعم بعد إسلامه³.

وجاء الإسلام فوضع الله أمر الحمس ، وما كانت ابتدعته قريش قال تعالى ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾⁴.

وروى البيهقي¹ من حديث زيد بن حارثة أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم ما استلم صنماً قط وكان ينهي عن ذلك في الجاهلية ، ورفض أن يمس صنم إنسان أو نائلة عند طوافه ، كما كانت عادة أهل الجاهلية.

1 - الحمس: هم أهل الحرم ومن ولدوا من العرب ساكني الحل والحرم ومن دخل معهم من العرب مثل كنانة وجديلة ، رأوا أنّ لهم منزلة فوق منزلة العرب ، ولذلك ميزوا أنفسهم عنهم ، بأن تركوا الوقوف على عرفة والإفاضة منها "انظر: البخاري. فتح الباري. باب الوقوف بعرفة حديث 1665. وصحيح مسلم ج2. كتاب الحج . باب الوقوف حديث 1219، 1220. و سيرة ابن هشام . 199/1.

2 - العمري. د. أكرم . (1416هـ / 1995م) السيرة النبوية الصحيحة . ص 115. ط1. الرياض . مكتبة العبيكان .

3 - البخاري. فتح الباري. ج4. باب الوقوف بعرفة حديث رقم 1664. صحيح مسلم. كتاب الحج، باب الوقوف. حديث 1220.

4 البقرة: 199، وفي سبب نزولها انظر صحيح مسلم حديث 1219، وابن إسحاق بدون إسناد وابن هشام، 199/1.

ورفض الرسول صلى الله عليه وسلم أن يعتكف عند صنم بوانة حيث كان لقريش عيد عنده مرة كل عام ، فغضب منه عمه أبو طالب وعماته غضباً شديداً، فعندما هم بمطاوعتهم عصمه الله من مس الأصنام ، حيث تمثل له رجل أبيض منعه من مسها ، فلم يشارك في عيد لهم في حياته².

وجاء في مسند أحمد بإسناد صحيح³ أنه "كان جاره صلى الله عليه وسلم هو وخديجة يحدث أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو يقول لخديجة "أي خديجة: والله لا أعبد اللات والعزى أبداً، والله لا أعبد العزى أبداً. فنقول خديجة خل اللات ، خل العزى".

وحفظه الله عز وجل من الشياطين في الجاهلية والإسلام.

فهذه الشواهد جميعها تثبت بيقين لا يقطعه شك أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم لم يأكل ما ذبح على الأنصاب ، وإن ورد حديث بهذا المعنى فسنده معتل ، وأعني به حديث الإمام أحمد الذي جاء في مسنده: قال الإمام أحمد ثنا يزيد⁴ ثنا المسعودي⁵ عن نفيل⁶ بن هشام بن سعيد بن

1 - دلائل النبوة. 2 / 134. الذهبي . السيرة النبوية . (ت. سنة 718 هـ / 1318م) ص 42. ابن كثير.

السيرة النبوية . (ت. سنة 774 هـ / 1372م) ص 28. مؤسسة المعارف.

2 - ابن سعد . الطبقات . 1 / 17.

3 - ابن حنبل ، أحمد . المسند . ج 6 حديث 17969 "مسند الشاميين. ص 279. ط. دار الفكر . بيروت.

4 - هو عبد الرحمن بن عبيد الله بن عتبة بن عبد الله بن مسعود الكوفي كان ثقة وأختلط بآخره [ابن حجر. تهذيب التهذيب . 6 / 191].

5 - ابن هارون بن زاذان وهو ثقة.

6 - نفيل بن هشام وأبيه، لم تثبت عدالتهما.

زيد بن عمرو بن نفيل عن أبيه¹ عن جده قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة هو وزيد بن حارثة فمر بهما زيد بن عمرو بن نفيل فدعوه إلى سفرة لهما، فقال: يا ابن أخي إنني لا آكل مما ذبح على النصب"².

والحديث سنده فيه إعلال لعدم ثبوت عدالة نفيل بن هشام وأبيه فلم يوثقهما غير ابن حيان وهو معروف بتوثيق المجهولين ، وقال ابن معين في الأول لا أعرفه ، والثاني ترجم له البخاري في تاريخه ، ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلاً، ولم يذكر عنه راويًا غير ابنه نفيل فمثلهما لم يخرجوا عن حد الجهالة ، أما توثيق الهيثمي لهما فاعتمادًا على توثيق ابن حيان³.

وأخرج أبو نعيم في دلائل النبوة من طريق يعقوب بن محمد الزهري قال ثنا عبد الله ابن محمد بن يحيى بن عروة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: سمعت زيد بن عمرو وبن نفيل يعيب أكل ما ذبح لغير الله ، فما ذقت شيئًا مما ذبح على النصب حتى أكرمني الله عز وجل بما أكرمني من رسالته"⁴.

وهذا إسناد ضعيف جدًا فعبد الله بن محمد بن يحيى بن عروة بن الزبير ، فقد قال عنه ابن حيان: يروى الموضوعات عن الثقات ، وقال أبو حاتم الرازي متروك الحديث ، وساق ابن عدي له أحاديث ، ثم قال:

1 - نفسه

2 - قد أورد الذهبي في السيرة النبوية. ص 447.

3 - عبد النبي ، عادل عبد الغفور . دراسة مرويات العهد المكي . ص 311.

4 - الأصفهاني ، أبو نعيم . دلائل النبوة. ص 146. دار الوعي بحلب.

عامتهما مما لا يتابعه عليه الثقات¹، أمّا يعقوب بن محمد الزهري ، فهو صدوق كثير الوهم والرواية عن الضعفاء ، وقال صالح بن محمد عن ابن معين أحاديثه تشبه أحاديث الواقدي ، وقال الساجي منكر الحديث².

وهكذا نجد حتى الروايات الضعيفة التي وردت بشأن هذه لم يرد فيها ما يتفق مع رواية الفريد جيوم المنسوبة لابن إسحاق ؛ إذ لم يرد في تلك الأحاديث قول الرسول صلى الله عليه وسلم أنّ زيد بن عمرو بن نفيل لام الرسول صلى الله عليه وسلم على وثنيته ، وقول الرسول صلى الله عليه وسلم أنّها كانت مزودة بها لحم كان سيقدّمها قرباناً للأصنام ، وقوله صلى الله عليه وسلم أنّ زيدا لامه على عبادة الأوثان ، وقوله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك لم أقرب صنماً من أصنامهم أو أقدم له قرباناً إلى أن شرفني الله برسالته ، وأنّ الرسول صلى الله عليه وسلم كان قادماً من الطائف مع زيد بن حارثة ومرا بزيمير بن عمرو بن نفيل الذي كان يعيش في مرتفعات مكة.

فالرواية من أولها إلى آخرها لا أساس لها في الروايات الإسلامية ، ولا حتى في الضعيفة منها.

مما يؤكد أنّ الرواية من وضع الفريد جيوم نفسه ونسبها إلى ابن إسحاق مدعيّاً أنّها واردة في مخطوطة لم تنشر غير مبين لمكان وجود هذه المخطوطة.

1 - الذهبي. ميزان الاعتدال في نقد الرجال. 2 / 486 - 487. تحقيق علي الجاوي. دار المعرفة.

2 - ابن حجر . تهذيب التهذيب . 11 / 345.

وهذا يؤكد لنا أنّ المستشرقين لا يسيرون وفق مناهج علمية موضوعية ، وإنّما يسيرون وفق ميولهم وأهوائهم.

ثانياً: الأخذ بالروايات الضعيفة وتحويرها ، كما رأينا في قصة زواج الرسول صلى الله عليه وسلم من السيدة خديجة التي رواها وليم موير وبودلي والذي أخذها كما يبدو من شبرنجر وفيل وهي رواية ضعيفة من مراسيل الزهري ، وقد أوردها البيهقي في دلائله على النحو التالي، وذلك بعدما خطبها الرسول صلى الله عليه وسلم وكانت معها أختها "فانطلقت . أختها" إلى أبيها خويلد بن أسد وهو يشمل من الشراب ، وقالت له هذا ابن أخيك محمد بن عبد الله بن عبد المطلب يخطب خديجة ، وقد رضيت خديجة فدعاه فسأله عن ذلك وخطب إليه . فأنكحه. قال فخالفت خديجة أباهما، فحلت عليه حلة فدخل عليه بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما صحا الشيخ من سكره قال: ما هذا المخلوق وما هذه الحلة؟ قالت أخت خديجة ، هذه حلة كساها ابن أخيك محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، أنكحته خديجة ، وقد بنى بها فأنكر الشيخ ثم صار إلى أن سلم واستحيا "1.

وقد اختلف العلماء في الذي تولى زواجها ، فقد ذكر البيهقي² أنّ الذي زوجه إياها هو أبوها خويلد، وهو سكران ، وفي نهاية الخبر يقول الراوي . المؤملي . عمر بن أبي بكر، (المجتمع أنّ عمها عمرو بن أسد

1 - البيهقي. دلائل النبوة، 1/ 91.

2 - دلائل النبوة . 1 / 91 وإسناده ضعيف جداً [رزق الله. مهدي . حاشية صفحة 134]

الذي زوجها) وقد ضعّف الهيثمي هذا الخبر لأنّ فيه عمر بن أبي بكر المؤملي وهو متروك ، وذكر ابن إسحاق¹، إنّ الذي زوجها هو أبوها خويلد ، وقال السهيلي²، وابن كثير³، وابن حجر⁴، والشامي⁵، أنّ ابن إسحاق ذكر في السيرة أنّ أباها عمرو بن خويلد هو الذي زوجها ، ولكن لم يوجد ذلك في المطبوع من سيرة ابن إسحاق⁶.

نخلص من هذا أنّ ما أورده وليم موير وبودلي نقلًا عن شبرنجر وفيل عن قيام السيدة خديجة بإسكار أبيها ليوافق على زواجها من الرسول صلى الله عليه وسلم لا أساس له من الصحة ، فإن كان أبوها هو الذي عقد لها فقد كان سكرانًا وذلك، وفق الرواية الضعيفة ، ولم تسكره هي.

ثالثًا: الزعم بتأثر الرسول صلى الله عليه وسلم بالديانتين اليهودية والمسيحية لإلغاء أصالة الإسلام ولترويج مزاعمهم الباطلة عن أنّ القرآن الكريم من تأليف محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد سعوا لإيجاد كثير من المؤثرات عن طريق تحوير الأحداث ومن الأحداث التي استغلوها:

1 . سفره صلى الله عليه وسلم إلى الشام وهو طفل مع عمه أبي طالب وقصته مع الراهب بحيرا فقد أصطحب أبو طالب النبي صلى الله عليه وسلم في سفرة تجارية له إلى الشام وكان عمر النبي في التاسعة أو

1 - سيرة ابن هشام . 2 / 190 .

2 - السهيلي . الروض الأنف ، 1 / 214 .

3 - البداية والنهاية . 22 / 701 . طبعة دار المعرفة .

4 - الفتح الباري . 7 / 512 .

5 - سبل الهدى والرشاد . 2 / 225 نقلًا عن ابن كثير طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية .

6 - لقد أجمعوا أنه أورد هذا في آخر الكتاب .

العاشرة أو الثانية عشرة من عمره على اختلاف الروايات¹، وقد دعا راهب يدعى بحيرا². في مدينة بقرى رجال القافلة القرشية إلى طعام حيث تعرف على النبي من خلال صفاته وأحواله فعرف أنه يتيم ، وأنه يحمل خاتم النبوة بين كتفيه ، ورأى الغمامة تظله من الشمس وفي الشجرة يميل عليه عندما ينام إليها ، وتختتم الرواية القصة بتحذير الراهب لأبي طالب عم النبي من اليهود والروم³.

إنّ أقوى طرق هذه القصة ورد عند الترمذي في جامعه⁴ ، وقال عنه الترمذي: "وهذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه".

وهذا نص الحديث الذي أورده الترمذي عن طريق أبي موسى الأشعري: قال: "خرج أبو طالب إلى الشام وخرج معه النبي صلى الله عليه وسلم في أشياخ من قريش ، فلما أشرفوا على الراهب هبطوا فحلوا رحالهم ، فخرج إليهم الراهب ، وكانوا قبل ذلك يمرون به فلا يخرج إليهم ولا يلتفت ، قال فهم يحلون رحالهم ، فجعل يتخللهم الراهب حتى جاء ، فأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: هذا سيد العالمين، هذا رسول رب

1 - ابن سيد الناس. عيون الأثر 1/ 52 . بيروت . منشورات دار الآفاق الجديدة .

2 - المعلومات عن بحيرا متضاربة لا تكاد تتفق على شيء بشأنه بل هي متضاربة في اسمه فمرة جرجيس، وأخرى جرسى ، وثالثة سرجيس ، ورابعة سرجس ، ومرة أنه مشتق من الأرامية معناه المنتخب ، وأخرى من السريانية معناه العالم المتبحر، ومرة ينسب لقبيلة عبد القيس ، فهو عبد قيسى ومرة هو نصراني وأخرى يهودي [د . العمري . السيرة النبوية الصحيحة . ص 110 . 111] .

3 - المرجع السابق . 1/ 106 . 107 .

4 - سنن الترمذي . كتاب المناقب . باب ما جاء في بدء نبوة محمد صلى الله عليه وسلم . 5 / 550 .

العالمين ، يبعثه الله رحمة للعالمين ، فقال له أشياخ من قريش ما علمك ، فقال: إنكم حين أشرفتم من العتبة لم يبق شجر ولا حجر إلا خر ساجداً ، ولا يسجدان إلا لنبي ، وإني أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه ، من التفاحة، ثم رجع فصنع لهم طعاماً، فلما آتاهم به ، وكان هو في رعية الإبل قال: أرسلوا إليّ ، فأقبل وعليه عمامة تظله ، فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فيء الشجرة فلما جلس مال فيء الشجرة عليه ، فقال: انظروا إلى فيء الشجرة مال عليه ، قال: فبينما هو قائم عليهم وهو يناشدهم ألا يذهبوا به إلى الروم ، فإنّ الروم إذا عرفوه بالصفة فيقتلونه ، فإذا بسبعة قد أقبلوا من الروم فاستقبلهم ، فقال: ما جاء بكم؟ قالوا جننا لأنّ النبي خارج في هذا الشهر، فلم يبق طريق إلا بعث إليه بأناس، وإنّا قد أخبرنا خبره بعثنا إلى طريقك هذا . فقال: هل خلفكم أحد هو خير منكم؟ قالوا: إنّما أخبرنا خبره لك لطريقك هذا ، قال: أفرايتم أمراً أراد الله أن يقضيه هل يستطيع أحد من الناس رده؟ قالوا: لا . قال : تبايعوه وأقاموا معه. قال: أنشدكم الله أيكم وليه؟ قالوا: أبو طالب ، فلم يزل يناشده حتى رده أبو طالب وبعث معه أبو بكر بلالاً وزوده الراهب من الكعك والزيت".

**موقف أئمة الحديث من حديث الترمذي عن لقائه عليه الصلاة والسلام
ببحيرا في رحلته مع عمه إلى الشام**

إنّ حديث الترمذي الذي سقت نصه قبل قليل كان لأئمة الحديث وعلمائه موقف منه فقد صححه الحاكم¹ والألباني¹.

¹ - رزق الله ، د. مهدي . السيرة النبوية. مرجع سابق . ص 120"

أما ابن سيد الناس (ت. 734هـ / 1333م) قد تعقب رواية الترمذي ونبه على ما في متنها من نكارة ، ولكنه حصر النكارة في إرسال أبي بكر مع النبي صلى الله عليه وسلم بلالاً الذي ورد في آخر الرواية².

ولكن الإمام الذهبي انتقد السند بقوله عن عبد الرحمن بن غزوان . راويها . له مناكر ، ثم قال: "أنكر ما له حديثه عن يونس بن أبي إسحاق في سفر النبي صلى الله عليه وسلم وهو مراهق مع أبي طالب إلى الشام" ، أما انتقاده للمتن فهو يتفق مع ابن سيد الناس بأنه حديث منكر جداً لذكر أبي بكر وبلال في نهاية الحديث وزاد عليه ؛ إذ يقول الإمام الذهبي متسائلاً بصيغة الاستتكار: "أين كان أبو بكر وكان ابن عشر سنين ، فإنه أصغر من رسول الله صلى الله عليه وسلم بسنتين ونصف ، وأين كان بلال في هذا الوقت؟ فإن أبا بكر لم يشتره إلا بعد المبعث ، ولم يكن ولد بعد ، وأيضاً فإذا كان عليه عمامة تظله كيف يتصور أن يميل فيء الشجرة؟ لأن ظل العمامة يعدم فيء الشجرة التي نزل تحتها ، ولم نر النبي صلى الله عليه وسلم ذكر أبا طالب قط بقول الراهب، ولا تناقلته قريش ولا حكته أولئك الأشياخ مع توفرهم ودواعيهم على حكاية مثل ذلك فلو وقع لاستشهر بينهم أيما اشتهار ، ولبقي عنده حسن من النبوة ، ولما أنكر مجيء الوحي إليه أولاً بغار حراء ، وأتى خديجة خائفاً على عقله.. وأيضاً فلو أثر هذا الخوف في أبي طالب ورده ، كيف كانت تطيب نفسه أن يمكنه من السفر إلى الشام تاجرًا لخديجة ، وفي الحديث ألفاظ منكورة ، تشبه ألفاظ الطريقة

1 - حاشية فقه السيرة للغزالي. ص 66 . دمشق . دار العلم .

2 - ابن سيد الناس. (1402هـ / 1982م) عيون الأثر. 1 / 55 . بيروت . منشورات دار الآفاق الجديدة،

مع أنّ ابن عائذ قد روى معناه في مغازيه دون قوله : "وبعث معه أبو بكر بلالاً"¹.

وقال ابن كثير²: "فيه من الغرائب أنّه من مراسلات الصحابة ، فإنّ أبا موسى الأشعري إنّما قدم في سنة خيبر سنة سبع من الهجرة ، وعلى كل تقدير فهو مرسل... إنّ العمامة لم تذكر في حديث أصح من هذا ، ثم اعترض على ذكر أبي بكر وبلال ، كما اعترض من قبله ابن سيد الناس والذهبي.

أمّا ابن القيم فلقد أنكر إرسال بلال معه ، وقال: "هو الغلط الواضح فإنّ بلالاً؛ إذ ذاك لعله لم يكن موجوداً ، أو كان فلم يكن مع عمه ولا مع أبي بكر، وذكر البزّاز في مسنده هذا الحديث ، ولم يقل وأرسل معه بلالاً ولكن قال رجلاً"³

أمّا ابن حجر فقد قال بعد أن نقل توثيق النقاد لقراد: "وله عن الترمذي حديث من رواية أبي موسى الأشعري ، فيه ألفاظ منكورة⁴. وعقب عن ذكر أبي بكر وبلال بأنّ هذه اللفظة مدرجة في هذا الحديث مقتطعة من حديث آخر، وفي الجملة هي وهم من أحد رواته⁵.

1 - الذهبي. السيرة النبوية. ص 28 . 29.

2 - ابن كثير . البداية والنهاية. 2 / 690.

3 - ابن القيم. زاد المعاد. 17/1. الطبعة المصرية ومكتبتها.

4 - العمري . السيرة النبوية الصحيحة . 1 / 109 نقلا عن هدى الساري. انظر ترجمة عبد الرحمن غزوان المعروف بقراد.

5 - ابن حجر . الإصابة في تمييز الصحابة . 4 / 266 . 295 . تهذيب التهذيب 6 / 222 . 242 . التقريب ص 290.

مما سبق يتبين لنا أنّ نقد الأئمة لرواية الترمذي كان منصباً على المتن ولا سيما الفقرة الأخيرة من الرواية التي تذكر أبا بكر وبلالاً ، وقد بين الألباني أنّ الجزري صحح الإسناد ، وقال: "وذكر أبي بكر وبلال فيه غير محفوظ"، وعقب الألباني بذكر ما ورد في رواية البزار: "وأرسل معه عمه رجلاً" مما يجعل احتمال التصحيف في عبارة حديث الترمذي قوياً بين "رجلاً" و "بلالاً" لكن تبقى صعوبة تصحيف "أبي بكر إلى عمه"¹ ، وعلى أية حال فإنّ وجود النكارة في الفقرة الأخيرة لا يعنى ضعف سائر الرواية ، ما دام السند صحيحاً ، وقول ابن حجر في قراد "له مناكير" لا يؤثر في توثيقه لأنّ الثقة قد تقع في رواية المناكير، ويحتمل منه ذلك إن لم يكثر منها ، وأما توسع الذهبي في رد سائر الرواية لمجرد احتمالات قابلة للنقاش ، ولا تصلح أدلة للطعن في سائر الرواية فلا مبرر له².

ويمكن أن تطمئن النفس إلى إثبات سفره صلى الله عليه وسلم مع عمه إلى بصرى وتحذير الراهب بحيرا لعمه من يهود الروم بالاعتماد على رواية الترمذي³؛ إذ لم يرد أمثال الترمذي والحاكم وابن سيد الناس والجزري وابن كثير وابن حجر والسيوطي والألباني وغيرهم من القدماء والمحدثين⁴.

أمّا ما ذهب إليه المستشرقون من أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قد تلقى علم التوراة من بحيرا فهذه مجازفة علمية منكرة ، فإن كان أئمة

1 - وإن كنت أرى أنّ التصحيف هنا ممكناً بين "أبي بكر" و "أبي طالب"

2 - العمري ، د. أكرم . السيرة النبوية الصحيحة 1/ 109.

3- المرجع السابق. 1/ 109.

4 - المرجع السابق نفسه.

الحديث أنكروا ما جاء في الرواية من ذكر لأبي بكر وبلال فهل يقبلون التصديق بأنّ النبي صلى الله عليه وسلم تلقى في سن الثانية عشر علم التوراة في ساعة الطعام التي التقى خلالها ببخيرا وهو أمي لا يحسن القراءة والكتابة! إضافة إلى حاجز اللغة ؛ إذ لم يكن قد وُجِدَ في ذلك الوقت توراة ولا إنجيل باللغة العربية ، وإذا كان المقصود رد أصول الإسلام إلى التوراة ، فأين أثر تعاليم التوراة تلك في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وما بين لقائه ببخيرا وبعثته ثمانية وعشرون سنة؟¹

ثم إنّ موقف الأئمة من حديث الترمذي يبين لنا مدى موضوعية علمائنا وتدقيقهم ، وعدم قبول الروايات على علاتها وحرصهم على سلامة صحة السند والمتن ، على خلاف المستشرقين الذين يضيفون إلى الروايات الإسلامية ما يريدون فرضه على الأحداث وجعله حقيقة واقعة وبناء عليها أحداث ونتائج.

وبالرغم من إدراك المستشرقين لدقة أئمة الحديث وصرامتهم في تطبيق علم الجرح والتعديل إلا أنّهم يصرون على استبعاد الروايات الإسلامية ، أو التقليل من شأنها وكتابتهم السيرة وفق مناهجهم الأوروبية وكتابات من سبقهم من المستشرقين مع الأستئناس ببعض الروايات الإسلامية الضعيفة أو الشاذة أو المفردة لتؤيد ما يريدونه.

¹ رزق الله. السيرة النبوية من مصادرها الأصلية. ص 121.

عمومًا فإنّ هذا الحديث وحسب رواية المستشرقين ورواية الترمذي يؤكد حقيقة ثابتة وهي أنّ محمدًا صلى الله عليه وسلم نبي مرسل من عند الله وفق بشارة بحيرا.

2- تبنيه صلى الله عليه وسلم لزيد بن حارثة: فزعم المستشرقون أنّه صلى الله عليه وسلم قد تأثر بزيد بن حارثة الذي أهدته له خديجة ، وهو صبي صغير فتبناه وسمع منه بعض التعاليم والأساطير المسيحية.

وهذا افتراض تعسفي واه خال من كل منطق سليم ودليل علمي. بل هو يبين سوء النية لنفي كل أصالة عن الإسلام والقرآن الكريم ؛ إذ كيف يصدق أنّ طفلاً صغيراً من قبيلة "كلب" القاطنة في أعماق الصحراء العربية والتي يشتغل أفرادها برعى الأغنام أو كأدلاء للقوافل التجارية أن يتبحر في الديانة المسيحية ، وأن يستوعبها ويتشرب تعاليمها ، وهو لم يتعد العاشرة من عمره . ونحن نعلم مدى تعقيد عقيدة التثليث لدى المسيحيين . ثم يتعرض لسطو إحدى القبائل المغيرة، وهو في هذه السن المبكرة ، ويؤتى به مقيداً بأصفاد الرق والعبودية إلى مكة ، ويبيع في أسواقها ، ثم يهدى إلى الرسول صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه فيعتقه ثم يتبناه ، ثم يستقي من معارفه عن الديانة المسيحية ومذاهبها وعقائدها وطقوسها وتعاليمها التي يعجز عن فهمها المتخصصون ، فما بالك بصبي صغير لا يعقل ولا يفهم من هذه الأمور شيئاً ، ثم إنّه لو كان الأمر كذلك لما سكنت قريش عن

التنديد بهذه العلاقة الثقافية المزعومة التي ربطت الرسول صلى الله عليه وسلم بزيد¹ .

إنّ هذا الزعم الاستشراقي يبين لنا كيف نهم يفترضون افتراضات لا يقبلها عقل ولا منطق ولا أساس لها ولا سند علمي ، بينما يشكون في نسبه صلى الله عليه وسلم وفي أميته ، بل يشكون في سيرته من المولد إلى المبعث!.

3- جاريته بركة أم أيمن ، فقد زعم بودلي أنّها أخبرت الرسول صلى الله عليه وسلم عن المسيحية ولو كان هذا صحيحاً لأشارت المصادر الإسلامية إلى ذلك فنحن عندما نقرأ سيرتها لم نجد إشارة إلى مسيحيتها ، أو تعليمها للرسول صلى الله عليه وسلم شيئاً من المسيحية².

4. الزعم بتأثره صلى الله عليه وسلم بخطب قيس بن ساعدة الأيادي ، التي كان يلقيها على جملة في سوق عكاظ وكذلك بورقة بن نوفل ، لم نجدهم زعموا بوجود كثرة يهودية ومسيحية في مكة ، وأنّ الرسول صلى الله عليه وسلم قد تأثر بكل يهودي ومسيحي كان بمكة.

وقد بينت سابقاً "في هذا الفصل" أنه لا وجود يذكر لليهود والمسيحيين في مكة وفق ما أثبتته المصادر والوقائع ، ولنا أن نرجع إلى القرآن الكريم فالسور المكية لم تشر إلى اليهود كما في السور المدنية.

1 - الحاج. الظاهرة الاستشراقية . 3 / 103.

2 - العسقلاني. الإصابة في تمييز الصحابة. كتاب النساء . 8 / 358. ترجمة أم أيمن مولاة النبي صلى الله عليه وسلم وحاضنته.

كما نجد الفريد جيوم أخذ برواية شاذة ومفردة للأزرقى¹ لم يذكرها أحد غيره ليثبت للمسيحية وجودًا في مكة المكرمة ، فيقول: "وقد يكون صحيحًا² ما ذكر من أنه حين دخل الرسول صلى الله عليه وسلم مكة منتصرًا كانت لا تزال ترى صور للمسيح والعدراء مريم ضمن صور أخرى على الحوائط الداخلية للكعبة ، وقد أمر الرسول بنزع جميع هذه الصور ما عدا صورة العدراء مريم وطفلها ، وقد رأى هذه الصورة شاهد عيان حتى آخر سنة 683م ، حينما دمرت النار أجزاء كبيرة من الكعبة وتطلب الأمر إعادة بنائها"³.

رابعًا: لقد ركز المستشرقون في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم قبل البعثة النبوية على تأثيرات الحرب والسياسة في المجتمع المكي على نبوته المستقبلية ، وأشاروا بالخصوص إلى حلف الفضول الذي حضره الرسول شخصيًا، والذي لا يزال يذكره بخير حتى آخر حياته ، ويتأسفون على عدم معرفة المؤرخين تفاصيل واسعة عن هذا الحلف الذي يروونه قد لعب دورًا هامًا في حياته المستقبلية. مع أنّ المعلومات التاريخية حول هذا الحلف متوفرة ومعروفة ، ولا داعي للتأسي على عدم معرفة التفاصيل الدقيقة عنه⁴.

1 - يقول عنه الدكتور مصطفى هدارة على أن الأزرقى ليس من الثقات الذين تؤخذ عنهم مثل هذه الرواية.

2 - يقصد ما ذكره الأزرقى، انظر أخبار مكة 1 / 165 . 168.

3 - جيوم. الإسلام. ص 15.

4 - د. الحاج. الظاهرة الاستشراقية. 3 / 91.

وحلف الفضول كان نتيجة مباشرة لحرب الفجار التي اندلعت بين كنانة وقريش من جهة وبين قيس غيلان وهوازن من جهة أخرى ، وسميت كذلك لأنها اندلعت في الأشهر الحرم التي يحرم فيها القتال ، وكانت الحرب سجلاً بين الطرفين ، ولكنها انتهت إلى انتصار قيس غيلان وهوازن على كنانة وقريش ، نظراً لطبيعة قيس غيلان وهوازن البدوية التي تعيش على الغزو والقتال ، بينما كانت قريش قبيلة حضرية ، مستقرة اتخذت من التجارة مهنة ، فكانت لا تميل إلى الحرب والنزال وتجنح عادة للسلم والاستقرار ، وكان الرسول قد حضر المعركة الأخيرة من حرب الفجار ، ورمى فيها بسهم ، وكان ينبى على أعمامه ، وكان عمره يوم أن حضرها عشرين عاماً ، وكانت حرب الفجار بعد عام الفيل بعشرين سنة¹ ، وقد انتهت هذه الحرب بصلح ، وتعاهد كل من بني هشام وبني زهرة وبني تميم على أن يكونوا مع المظلوم حتى يؤدي إليه حقه ، وقد سمي هذا الحلف بحلف الفضول لأنه قام به رجال من جرهم كلهم يسمى الفضل فقبل حلف الفضول جمعاً لأسماء هؤلاء ، وقيل إنه سمي كذلك لأن قريشاً قالت: هنا فضول من الحلف ، فسمي حلف الفضول ، وقيل لأن قريشاً تعاقدوا فيما بينهم على مواساة أهل الفاقة ممن ورد مكة بفضول أحوالهم².

1 - انظر حرب الفجار: سيرة ابن هشام . 1 / 184 .

2 - د. الحاج. الظاهرة الاستشراقية . 3 / 91 .

فغاية هذا الحلف إنصاف المظلومين من أهل مكة من الضعفاء
والمساكين ومن لا يجد له عوناً ليحميه ويدافع عن حقوقه ، وكذلك إنصاف
الغرباء والوافدين على مكة من التجار والحجاج وعابري السبيل¹.

خامساً: لقد استخدم المستشرقون التفسير النفسي في تفسيرهم لبعض
الأحداث في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ إذ نجدهم ركزوا على
الآلام النفسية التي قاساها الرسول صلى الله عليه وسلم بفقد أهله ليصلوا
أنها من خلال تحليلاتهم النفسية أنه أراد أن يفوق تلك الآلام إلى إدعاء
النبوة وإلى تأسيس دين ودولة عظيمين.

كما نجدهم وضعوا حالة الرسول صلى الله عليه وسلم النفسية التي
دعته إلى الزواج من سيدة أكبر منه سنًا بحجة أنه كان نوعًا من التعويض
عن فقد أمه في سن مبكرة².

والم تأمل في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم يجد أن الأحداث
الأليمة التي مرت عليه في طفولته حولت حياته إلى رقة وحب وعطف
وحنان ، فهو عطوف على الفقراء والمساكين ولطيف مع أصحابه واتباعه
وحنون على الأطفال ، ولطيف مع أصحابه واتباعه ، فقد وصفه عز وجل
في قوله تعالى ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ
عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾³

¹ - د. الحاج. الظاهرة الاستشراقية . 3 / 91.

² - المرجع السابق . 3 / 101.

³ - التوبة : 128.

وهكذا نجد المستشرقين قد عالجوا السيرة النبوية قبل البعثة بمنهج الشك في كثير من دقائق السيرة وتفصيلها ولست أدري ما قيمة الدراسات التي يقومون بها إذا كانت المصادر الأساسية لهذه الدراسات لا قيمة لها لديهم ولا اعتبار، ويثيرون الشك حول كل ما ورد فيها ، فإن كان هذا المنهج الذي سوف يتبع في الدراسات التاريخية ،فمعنى هذا أنّ التاريخ كله سوف تثار حوله الشكوك ، فإن صدق كل الروايات التاريخية الخارجة عن نطاق التسجيل المادي ، وسوف نشكك في كل الوثائق المكتوبة بحجة إمكانية تزويرها والعبث بها ، وبناءً على هذا المنهج الاستشراقي فإنّه علينا أن نطرح تاريخ البشرية برمته.

ولكن الملاحظ أنّ هذا المنهج لم يطبقه المستشرقون إلا على السيرة النبوية في الوقائع والأحداث التي يريدون إنكارها ، لأنّهم اعتبروا تاريخ اليهودية والمسيحية حقائق مسلم بها ، وهو الأصول التي يرجعون إليها، كما نجدهم اعتمدوا الروايات الضعيفة والشاذة المفردة ، بل اعتبر الفيولوجي "فقه اللغة" الرواية التي نسبها لابن إسحاق هي الحقيقة الوحيدة الصحيحة في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه ، كما نجدهم جدوا واجتهدوا في رد معطيات السيرة إلى أصول نصرانية أو يهودية بروايات موضوعة أو ضعيفة وشاذة لنفي كل أصالة عن الدين الإسلامي. بل اعتبروا الدوافع النفسية هي التي قادت الرسول صلى الله عليه وسلم إلى اختراع منهجية للتبشير بديانة جديدة مستمدة أصولها من الديانات السماوية

السابقة لها، كما نجدهم اعتبروا الإسلام ما هو إلا من نتائج البيئة العربية بأخلاقها.

الفصل الخامس

موقف المستشرقين الإنجليز من السيرة النبوية من
البعثة إلى الهجرة

تمهيد

عند الحديث عن موقف المدرسة الاستشراقية الإنجليزية من السيرة النبوية من البعثة إلى الهجرة نجد هؤلاء المستشرقين قد ركزوا على الآتي:

1- الوحي: وكيفية نزوله ، وتطوره لدى الرسول صلى الله عليه وسلم . بسبب زعمهم . واجتهدوا في تفسيره مع اختلافهم في هذا التفسير .

2 - الفترة السرية للبعثة وعمن أول من أسلموا مع تحليل أسباب إسلامهم من وجهة نظر هؤلاء المستشرقين .

2. الدعوة الجهرية: وما شهدته هذه الفترة من اضطهاد

قريش للمسلمين ، وما ترتب على هذا الاضطهاد من نتائج:

أ . حصار المسلمين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في شعب أبي طالب لمدة ثلاث سنوات .

ب . هجرة المسلمين إلى الحبشة .

4 . قصة الغرانيق التي ابتدعها المستشرقون ، وقد أسماها وات

الآيات الإبلية

5 . أثر وفاة السيدة خديجة رضي الله عنها وعمه أبو طالب على

رسول الله صلى الله عليه وسلم .

6 . عرض الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه على القبائل .

7 . الإسراء والمعراج .

8 . بيعتا العقبة الأولى والثانية.

9 . بواعث الهجرة إلى يثرب.

هذا وسأبين موقف المستشرقين الذين هم موضع هذه الدراسة من كل حدث من هذه الأحداث ، وبعد الانتهاء من بيان مواقفهم منها جميعاً ، سأتولى الرد على ما أثاروه من شبهات ، وما رددوه من مزاعم باطلة مع توضيح المناهج التي نهجوها في كتاباتهم لهذا الجزء من السيرة النبوية.

أولاً : موقف المدرسة الاستشراقية الإنجليزية من الوحي

لم يختلف المستشرقون عن عمر النبي صلى الله عليه وسلم منذ نزول الوحي عليه ، ولم يختلفوا أيضاً على الطريقة التي نزل بها الوحي ، ولا على المكان الذي نزل فيه ، ولا على الآيات القرآنية التي نزلت عليه عند مبدء الوحي إلا حسب ما اختلفت عليه الروايات الإسلامية في هذا الصدد، ولكنهم اختلفوا اختلافاً جوهرياً في تفسيرهم لظاهرة الوحي¹، وسيوضح لنا هذا الاختلاف عند عرض رأي كل واحد منهم ، وسأعرض آراءهم وموقفهم حسب ترتيبهم الزمني ، ودائماً تكون البداية مع وليم موير، فيتحدث عن ظاهرة الوحي بقوله "عندما بلغ محمد الأربعين من عمره أصبح دائم التفكير، ومحب إلى الخلوة ، متأملاً في الظواهر الكونية المحيطة به إبان تحنثه في غار حراء ، مفكراً في مصير قومه ، ومشككاً في عبادتهم ، وفي التعاليم اليهودية والنصرانية التي لم ترضي شعوره الديني والتي كانت تؤثر بشدة على عقليته ، وهذه الأمور مجتمعة قادت

¹ - د. الحاج. الظاهرة الاستشراقية . 3 / 109.

إلى الوحدة في غار حراء يتأمل مفكرًا في إيجاد حلول لها ، وأحيانًا كانت زوجته الوفية ترافقه إلى هذا المكان ، وبدلاً من أن تطمئنه هذه الخلوة والوحدة وتحذ من قلقه ، جعلته أكثر قلقًا وأكثر تلهفًا على الوصول إلى ما يطمئن ضميره ، وأصبح خائفًا من أن يدركه الموت ، كما أدرك زيد بن عمرو بن نوفل قبل أن يصل إلى الحقيقة التي يبحث عنها¹ .

ويعتمد موير على العديد من السور والآيات القرآنية التي حاول خلالها إيضاح عقلية الرسول صلى الله عليه وسلم ، وطريقة تفكيره ، ونوع الرسالة التي جاء بها ، وعلاقة أفكاره بالطبيعة المحيطة بها وتأثيرها في مصير دعوته ، وكيفية تطورها ليصل في النهاية إلى نتيجة مفادها أنّ محمدًا قد شغل بكل هذه القضايا جميعًا ، ومن خلال تفكيره فيها عبر عنها بهذه الآيات التي قال عنها: أنّها موجهة إليه من عند الله ، بل إنّ "موير" ذهب إلى أبعد من ذلك حينما قال : " إنّ محمدًا قد فكر مليًا في هذه الأمور وعبر عنها بلغة تشبه القرآن قبل عدة سنوات من بعثته"².

ثم يفسر موير الرسالة الإسلامية باعتبارها انعكاسًا لرغبات المجتمع المكي فيقول : عن أهل قريش كانوا يغبطون اليهود والنصارى وكانوا يرونهم أهل ديانة سماوية ، ولديهم أنبياء أرسلوا إليهم من بينهم. وكان أهل

¹ - Muir Life of Mohammed V2 P 37 ، ترجمة الدكتور ساسي الحاج: أنظر الظاهرة

الاستشراقية ، 3 / 126 .

² - ترجمة د. الحاج. الظاهرة الاستشراقية ، 3 / 126-42. Ibid p37

مكة يقولون لو أرسل إلينا نبي لاتبعناه ، ولأصبحنا مساويين لليهود والنصارى بل لأصبحنا أهدى منهم¹.

ثم يقول موير شعر محمد بقوة هذه الحجة وأهميتها ، وقد توافق هذه الآراء مع تفكيره الذي تطور تدريجيًا في عقله حتى قاده ذلك التطور إلى اعتقاده أن الله أرسله نذيرًا وبشيرًا لقومه ، ولكن مفهوم رسالته لم تكن واضحة منذ البداية في ذهنه ومن هنا كان ذلك الشك فيها حتى حاول الانتحار وحتى أصابه مرض عصبي من جراء ذلك².

ويستمر موير في تحليله لفكرة الوحي على هذا السياق متعرضًا للسيرة طبقًا للروايات الإسلامية المختلفة ، ويفسرها طبقًا بالمفهوم الغربي ، ولعل ما يتميز به إيراده للعديد من الآيات القرآنية مستشهدًا بها على تطور الدعوة الإسلامية محاولًا تفسيرها باعتبارها برهانًا عقليًا ونقلًا عن تطور تفكير الرسول صلى الله عليه وسلم والمصاعب التي واجهها والشك الذي اعتراه بداية في طبيعة رسالته ، وعندما عالج موير كيفية نزول الوحي على الرسول صلى الله عليه وسلم لم يخرج فيما سرده عن الروايات الإسلامية ، فقد بدأ الوحي بالرؤيا الحقيقية ، وكان قبل ذلك يتحنّث في غار حراء ، ويقضي فيه الأيام والليالي ، ثم يعود إلى أهله ، وكان أحب شيء إليه هذه الخلوة ، وبينما كان ذات يوم بإجباد رأى ملكًا بين السماء والأرض يقول له "يا محمد أنا جبريل" ، وقد خاف منه محمد فرجع إلى خديجة مضطرب

1 - المرجع السابق، ص 127.

2 - ترجمة الدكتور ساسي الحاج. المرجع السابق. ص 127.

الفؤاد وأبلغها بما حصل له ، ثم يتعرض موير إلى سرد السيرة بالكيفية التي سرد بها بقية المستشرقين ، غير أنه يؤكد في أكثر من مقام ذكر الجن ومدى تأثيرهم في العقلية العربية في ذلك الأوان ، حتى خشى محمد أن يكون ما حصل له من الوحي عبارة عن مس من الجنون أو بفعل الجن والأرواح الشريرة الأخرى ، وربط هذا المفهوم بتساقط النجوم واحتراقها عند اقترابها من غلاف الجو الأرضي مع اعتقاد العرب الذين يرون أنها كانت رجماً للشياطين ، ولعل ما ترسخ في طفولة محمد من هذه الروايات ظهر جلياً في العديد من الآيات القرآنية¹.

ويتحدث موير عما يسميه بتطور الوحي ويحاول تحليله بإرجاعه إلى حالة العرب الداخلية ، وما يعانونه من قسوة في الحياة وسيطرة كل من فارس وبيزنطة عليهم ، إضافة إلى النزاع القبلي الذي كان لا يقطع بينهم ، وظروف جغرافية محيطة بهم تقدم لهم آفاق مستقبلية لعيش أفضل ممّا هم عليه ، ويرى موير أنّ هذه الأمور مجتمعة قد كونت الفكرة الحقيقية للدعوة الإسلامية التي وصفها بأنها تعبير صريح عن طموحات محمد الشخصية، وهذه الطموحات الممتزجة بفكرة التعاليم الإلهية الواردة إليه من السماء هي التي أدت في النهاية إلى انتشار الإسلام بصورته المعروفة لدينا ، وقد ارتبط هذا الطموح الشخصي كذلك باعتقاد راسخ في ذهن محمد أنه مبعوث العناية الإلهية لإخراج قومه من الظلمات إلى النور، ومن هنا كان انتظاره الوحي كل مرة تتراءى له قضية يجب عليه البث فيها ، وهذا الوحي هو

¹ - ترجمة الحاج . مرجع سابق. ص 127 . 128 ، وانظر: . 53 - 45 p Ibid

الذي يوجهه إلى الطريق المستقيم ، وهكذا يزوره جبريل ، كما زار من قبل
ذكريا ومريم عندما أبلغهما بمجىء المسيح إلى العالم¹.

وأهم ما ذكره موير في هذه الفترة من السيرة النبوية أنه حاول إرجاع
الأصول الإسلامية كغيره من المستشرقين إلى عوامل خارجية وداخلية .

إنّ العديد من الأفكار المحمدية وبعض السور القرآنية المبكرة لم
تحفظ لأنه لم يفهم منها ظاهرياً على أنّها من وحي الله إليه ، ولكنها ربما
تكون قد سجلت من قبل "ورقة" أو علي" وهو لا يزال صبيًا، أو زوجته
خديجة أو من بعض أقاربها الذين تعلم عنهم أنّهم كانوا من الباحثين عن
الدين الحقيقي ولهم علاقة بمعنى أو بآخر باليهودية والمسيحية ، إنّ
أصدقاء محمد وبعض أقربائه يستمعون بتوقير وتبجيل كبيرين إلى تحذيراته
وتبشيراته كخديجة زوجته وابن عمه علي وصديقه أبي بكر وورقة الذي رأى
في رسالة محمد انعكاساً لأفكاره، وكان من بين اتباعه المبكرين ويرى
شبرنجر أنّ خديجة كانت تقرأ الكتب المقدسة ، ولها اطلاع على تاريخ
الأنبياء .

وقد استند موير وشبرنجر في ذلك إلى تاريخ الطبري المكتوب باللغة
الفارسية والذي ورد فيه ذلك².

وهكذا نجد أنّ موير يرى أنّ الوحي عبارة عن انعكاس آمال وأحلام
وطموحات الرسول التي حاول من خلالها إخراج قومه من ذلك الوضع

1 - د . الحاج . مرجع سابق / 3 / 128 .

2 - المرجع السابق ، 3 / 128 .

المتردّي اقتصاديًا واجتماعيًا وسياسيًا الذي كانوا يعيشون فيه ، وأنّه كان يعتقد مخلصًا في رسالته ، وأنّها آتية إليه من الله مباشرة عن طريق جبريل ، وأنّه قد شك بداية في مصدر هذا الوحي ، وخشى أن يكون ذلك من الجن أو الشياطين أو الأرواح الشريرة ، وأنّه قد خاف أن يكون قد أصابه مساً من الجن ، ولكن الآيات القرآنية المتتالية طمأنته وأعادته إلى صوابه ، وأكدت له قدسية رسالته ، ويعتقد موير أنّ العوامل الخارجية هي التي أثرت في نفسية الرسول صلى الله عليه وسلم حتى قادته إلى ما وصل إليه¹.

وخلاصة القول : إنّ موير ينكر أنّ رسالة الإسلام رسالة سماوية ، وأنّ الوحي من عند الله ، وأنّ دعوة الإسلام والقرآن الكريم كل هذا من عند محمد ، وأنّ للعوامل الداخلية والخارجية وما مر على حياته من أحداث وطموحات للرسول صلى الله عليه وسلم هي التي دفعته للإتيان بهذا الدين الجدي.

أمّا مرجليوث فهو يصف الرسول صلى الله عليه وسلم عندما أتاه بأنّه كان يبدو كالكاهن واصفًا حالته عند نزول الوحي عليه بأنّها حالة صرع².

ثم يرجع أسباب الوحي كتنظيره موير إلى الظروف التي مر بها محمد صلى الله عليه وسلم معتبرًا أنّ الوحي من إنتاج محمد صلى الله عليه وسلم زاعمًا أنّه صلى الله عليه وسلم قد اتبع في إعلانه الوحي الطريقة

¹ - المرجع السابق . 3 / 129 .

² - D. S. Margoliouth Mohammed and The Rise of Islam p. 85 .

التي كان مطلعاً عليها من الكتب السابقة ، ومن بعض الرهبان الذين لقيهم في رحلاته ومن بعض العرب مثل قيس بن ساعدة ؛ إذ أعلن أنه معجزة¹.

ونجد السير توماس أرنولد كان متحفظاً في موضوع الوحي فلم ينكر الوحي ، ولم يقره فلقد عبر عن موقفه بقوله: "ولما اقتنع محمد آخر الأمر بعد قلق ونزاع نفسي طويلة بأنه مكلف بحمل رسالة دينية من قبل الله وجه أول جهوده إلى إقناع قومه بصدق الدين الجديد ، فمن هذه الحقائق البسيطة التي طلب أن يبايعوه عليها ، وحدانية الخالق ونبذ عبادة الأصنام والتسليم لإرادة الله².

سبق وأن بينت موقف الفريد جيوم من الوحي ؛ إذ نفى إصابة الرسول صلى الله عليه وسلم بالصرع³، ليثبت أنه كان وثنياً يقرب القرابين للأصنام ويأكل لحومها ، ثم عاد وزعم أن كتب التفسير قد ذكرت أنه كان عرضة لنوبات الصرع⁴، يقول الفريد جيوم بعد ما ذكر أن هناك تشابهاً بين سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وبين سير أنبياء اليهود: "ذكروا أنه كان من عادته أن يترك مجتمعات الناس، ويعكف في الجبال وسلم نفسه للصلاة والعبادة ، وبينما هو نائم ذات ليلة، جاءه الملك جبريل ومعه قطعة من الحرير مكتوب عليها بضع كلمات فقال له اقرأ فقال ما أنا بقارئ فكرر عليه ذلك الأمر ثلاث مرات وهو يستمر في جذبه إليه بشدة حتى قال

1- Ibid p. 86 – 87.

2 - الدعوة إلى الإسلام. ترجمة د. حسن إبراهيم حسن. ود. عبد المجيد عابدين . ص 34.

3 - جيوم. الإسلام . ص 27.

4 - جيوم. الإسلام . ص 56.

الملك ﴿أَقْرَأَ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * أَقْرَأَ وَرَبُّكَ
الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾¹.

وحينما أفاق الرسول بدا له أنّ هذه الكلمات قد نقشت على قلبه ، أو أنّها طبعت في ذهنه ، وقد خطر له أنّه ربما تحتم عليه أن يكون شاعراً ، أو أنّه قد أصابه السحر . هو الذي كره مثل هؤلاء الناس كرهاً عميقاً ، حتى إنّ لم يكن يحتمل روايتهم . وهو الذي لم يكن ليستطيع تحمل فكرة اعتباره فرداً من أفراد قبيلته . ولو كان هذا الاعتبار من جانب قبيلته نفسها . ولكن هذا قد حدث فعلاً فيما بعد ، وما كاد يغادر المكان ، وفي نيته أن يلقي بنفسه من فوق الجبل حتى سمع صوتاً من السماء يدعو باسم رسول الله ، فأجال بصره فرأى شخصاً يعترض الأفق ، حوله عن غايته وجعله يتسمر في مكانه ، وظل هكذا مدة طويلة حتى عاد الرسول إلى زوجته القلقة ليخبرها أنّهم لم يعثروا له على أثر² .

يلق الفريد جيوم على الرواية التي أوردها ، فيقول : "ومن الواضح أنّ هذه القصة تحت إلى عالم الرؤيا والأحلام ، وأيما كان الرأي في حقيقة تلك الرؤى والأحلام من الناحية الموضوعية ، فلا يشك إنسان قط في قيمتها الذاتية بالنسبة لأولئك الذين يتعرضون لتجربتها وهذه الرؤية الأولى قد بلغ من تأثيرها في دعوة محمد صلى الله عليه وسلم - في المراحل

¹ - العلق : 1 . 5 .

² - الإسلام . ص 30 .

الأولى على الأقل - وفي محمد نفسه درجة يمكن معها الاعتقاد بأنه كان نبياً حقاً.

ومحور الرسائل المحمدية من البداية للنهاية - يدور حول القوى المطلقة لله - وواجب الإنسان في طاعته ، كما يدور حول اقتراف الإثم والقصاص. وقد ظهر بجلاء شعور الرسول بالمعاناة في تلك الرؤيا التي أُجبروا فيها الملك على التكلم . وقد عمد بعض كتاب السيرة إلى حذف بعض الفقرات التي تفصح عن شكوكه ومخاوفه ، ولعلها هي أقوى عناصر القصة امتناعاً ، وهذه الشكوك والمخاوف فيما عدا تفكير الرسول في الانتحار . تذكرنا تذكيراً قوياً بشكوك أرميا التي ساورتها سواء كان ملهماً حقيقة ، أو أنه كان من طبقة أدعياء النبوة في عصره ، وسنرى فيما بعد أنّ ثبات الرسول قد أمتحن ، بما قوبل به من عدا وسخرية وإغراء واتهامه بأنه كان يدعو لتعاليم أجنبية¹.

ثم يتجه الفريد جيوم إلى محاولة إثبات أنّ القرآن من عند الرسول ، وأنّ ما جاء فيه من معلومات استقاها من اليهود والنصارى ، فيقول "جيوم" : "لقد أعلن محمد أنّه أتى برسالة من عند الله يؤيد فيها ما أنزل على اليهود والنصارى ، ويبدو طبيعياً افتراضنا أنّه - وهو يبحث عن الله كارهاً وثنية أهل مكة ساخطاً عليها - . تتبه إلى وجود الإله المعروف لليهود والنصارى . لذلك اتجه إليهم حين جاهر بنبوته ، ليطلب تأييدهم ، وكان لابد له أن يفعل ذلك بوصفه أحد أفراد قبيلة وثنية يدعو إلى التوحيد ،

¹ - الإسلام. ص 31.

وعلى أية حال فإنّ الطابع العربي الخالص لدعوته قد اختلط تدريجيًا ، بالإشارة إلى أشخاص معروفين في التوراة ، ثم بالإشارة إلى المسيح وحوارييه بعد ذلك ، وهنا تثار نقطة هامة: ما مدى اهتمام المكين "بكتب موسى وإبراهيم"؟ وماذا كانوا يعرفون عن نوح وسفينته ، وفرعون ، وزيارة الملائكة لإبراهيم ، وتبشيرهم إياه بسلام فقد بلغ من السن عتياً ؟ كل ذلك وكل ما يتعلق بما جاء في التوراة يدلنا على وجود مستمعين من اليهود ، أو وجود جماعة لها إمام بالخطوط الرئيسية لقصص التوراة. وحين أخذت دعوة محمد تتمو، نجده يلجأ إلى هذا المصدر، أكثر من ذي قبل ، حتى أنّه يتبين لنا من سورة يوسف أنّه على علم لا بقصة عزيز مصر ، كما وردت في سفر التكوين فحسب ، بل كان يعلم أيضًا بالزيادات التي أدخلها اليهود على القصة ، وقد أصبحت معارضة اليهود للرسول في المدينة عائقًا هامًا لنفوضه ؛ إذ استهزئ به اليهود وأبوا أن يجيبوا عن أسئلته ، وكان محمدًا قد عرف في ذلك الوقت أنّ إبراهيم جاء قبل موسى وعيسى ، وأنّه كان أبًا لإسماعيل وهو بذلك جد العرب ، وهو يجعل إبراهيم وإسماعيل مشتركين في بناء الكعبة ، كما أنّه يعلن أنّ إبراهيم كان مسلمًا ، وبهذا استطاع أن يحدد الطابع المبدئي لرسالة الإسلام ، ولا توجد أدلة تاريخية تؤكد أنّ إبراهيم أو إسماعيل قد جاء إلى مكة. وحتى إذا وجدت مثل هذه الأدلة ، فينبغي حينئذ أن نفسر كيف ضاع كل ذلك لذلك الاسم السامي القديم إسماعيل الذي كان معروفًا بصورته الصحيحة في المخطوطات العربية مبدوءً بحرف الياء ، وربما أخذت صورة هذا الاسم الموجودة في

القرآن عن المصادر اليونانية أو السريانية إسحاق وإسرائيل أمثلة لهذا الأخذ من تلك¹.

الصور الكتابية ليونس وإلياس مأخوذة بالطبع من اليونانية ، ولو كان أحد من هؤلاء المشاهير معروفًا لمن كانوا يصغون إلى محمد فلا يمكن أن نعقل أن تلقى إليهم هذه الأسماء في صورتها اليونانية أو الآرامية ، وإذا كانوا يعرفون هذه الأسماء فلا بد أن يكونوا قد سمعوها من اليهود أو النصارى ؛ ولهذا فإن أهل مكة حين اتهموا الرسول بتأليف القرآن بمساعدة أجنبى يكتبون له أساطير الأولين ليل نهار ، كان لديهم ما يبرر هذا الاتهام ، وذلك حينما نجد دليلاً لغويًا واضحًا إلى جانب الأساطير الموجودة في التلمود مثل رفض الشيطان السجود لآدم ، وهذه القصة من أصل أجنبي فكيف يدعي أنّ القرآن عربيًا أصيل ، ولهذا فإنّ الدليل على أنّ كثيرًا من الكلمات الموجودة في القرآن لا يمكن تفسيرها على أنّها عربية، يحتاج إلى استقصاء مصادرها في اللغة العبرية والسريانية قبل الوصول إلى معنى ثابت لها ، وهذا الموضوع هام إلى حد كبير ، خصوصًا وأنّ القرآن يدعي أنّه عربي نزل للعرب خاصة بلسان عربي مبين ، وسيجد كل من يتصدى لقراءة التفسيرات العربية للقرآن ، أنّ هناك كلمات كثيرة لم يستطع المفسرون فهمها ، وليس معنى هذا أنّها لم تكن مفهومة بالنسبة لمن كانوا يستمعون إلى الرسول ، فكثيراً منهم كانوا على صلة باليهود والمسيحيين ، كما أنّهم قد زادوا محصولهم اللغوي عن طريق رحلاتهم في قوافل قريش التي كانت

¹ - المصدر السابق . ص 63.

تخرج من مكة إلى جميع الجهات في بيزنطة وفارس ، وحدود اليمن ، ولعل الاتصال باليمن يفسر لنا وجود كلمات حبشية في القرآن .

وهكذا نجد أنّ الفريد جيوم بعد ما نفى إصابة الرسول صلى الله عليه وسلم بالصرع يثبت أنّ الرسول كان وثنيًا نجده ينسب إلى المفسرين أنّهم ذكروا أنّه كان صلى الله عليه وسلم عرضة لنوبات الصرع. وقد حاول إثبات أنّ القرآن من عنده صلى الله عليه وسلم ، وأنّ ما جاء في القرآن من معلومات مستقاة من اليهود والنصارى .

ننتقل الآن إلى المؤرخ أرنولد توينبي ففي فصله المقتضب عن الإسلام ومحمد صلى الله عليه وسلم نجده لم ينكر قيام جبريل عليه السلام بتبليغ النبي صلى الله عليه وسلم الوحي ، وكان جبريل ينقل الوحي إلى محمد ، وأصل الرسالة هو التوحيد أي لا إله إلا الله ، وفكرة الوحدانية كانت قائمة في أجواء الجزيرة العربية يومها ، كما أنّها انتشرت عملياً في أنحاء الإمبراطورية البيزنطية خلال القرن الرابع ، وهو القرن الذي اعتنق في مطلع الإمبراطور قسطنطين الأول المسيحية سنة 312 م ، وبموجب الرسالة التي حملها محمد إلى اتباعه فإنّ أول ما يطلبه الذين يعتنقون الرسالة هو إسلام النفس لله ، وهذا معنى كلمة الإسلام في العربية¹.

في هذا النص نجد توينبي قد سلم بأنّ جبريل كان ينقل الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكننا نجده عندما تحدث عن التوحيد كأصل رسالة الإسلام تحدث عن الوحدانية وقيامها في الجزيرة العربية

¹ - توينبي . تاريخ البشرية . 2 / 84 . ترجمة نقولا زيادة .

وانتشارها في الإمبراطورية البيزنطية ، ولعله يريد بهذا القول الإيحاء بوجود التأثيرات اليهودية والمسيحية.

أما هاملتون جيب فهو لم يتحدث عن الوحي بصورة مباشرة ، ولكنه يتحدث عن الإسلام بأسلوب خطير زاعماً أنه يتناقض بمرور التاريخ ، بل أنه لم يستمر مزدهراً سوى خلال الجيل الأول ، ثم يشير إلى ما قيل عن الرسول صلى الله عليه وسلم وعن إصابته بالصرع ، ويشير إلى رفض العلماء لهذه الاتهامات .

يقول هاملتون جيب : "يقال إنّ الإسلام نشأ في وضوح نهار التاريخ ، وفي خلال جيل واحد أخذ ضوء ذلك النهار يتناقص في وضوحه بصورة مطردة ، وفحص الناقد يبين لنا أنّ أسس التقليد القديم تحولت إلى ألغاز وفرضيات ، صحيح أنّ القرآن لم يطرأ عليه أي تغيير ، وأنّ الإطار التاريخي المجرد لا زال باقياً ، غير أنّ المعجزة بين الحقائق المجردة والنتائج الهائلة ، السبب والنتيجة لأبد من سدها بشكل أو بآخر ، لذلك نجد أنّ عدد النظريات عن محمد لا تقل عن عدد كتب سيرته ، فقد صورته هؤلاء مثلاً بالمريض بالصرع ، وبمثير الشغب الاشتراكي وبالنموذج الأول لحركة المرمون الدينية، وجميع هذه الصور المتميزة والمتطرفة يرفضها عامة العلماء ويرون بطلانها ، ولكن نجد من الاستحالة بمكان أن نتفادى إدخال شيء من العناصر الذاتية ، أو غير الموضوعية في أي سرد لقصة حياته ، أو أعماله"¹.

Gibb Mohammedanism p 16. - 1

ويتضح موقف هاملتون جيب من القرآن الكريم والوحي في كتابه "الاتجاهات الحديثة في الإسلام" ؛ إذ نجده يقول عن القرآن الكريم "إنّ قاعدة التفكير الإسلامي هي القرآن بالطبع ، والقرآن بخلاف الإنجيل ليس مجموعة من الكتب تعود إلى تواريخ مختلفة اشتركت فيها أيدي عديدة متنوعة ، بل هو مجموعة من الخطب ألقاها محمد طيلة العشرين سنة الأخيرة من حياته ، أو براهين ساقها ضد خصومه ، أو تعليقات على حوادث العصر فضلاً عن بعض التعليمات على الصعيدين الاجتماعي والقانوني ، وكان محمد نفسه يعتقد أنّ جميع تلك الأقوال موحى بها ، لأنها لا تعود في شكلها إلى عقدة الظاهر ، وهكذا اعتقد محمد تلك الأقوال ، وتبعه في ذلك جميع مسلمي عصره والعصور اللاحقة ، إنها كلمة الله المباشرة تلاها على محمد الملاك جبريل."

وليس من الضروري بعد التحليلات التي قالها البرفسور "دانكان بلاك وماكدونالد" عن الاستعداد الطبيعي الذي لدى الساميين لتقبل تلك الفكرة ، نظراً لأنّ فكرة العالم غير المنظور شائعة لديهم ، وأنّ لهم مفهوماً خاصاً عن النبوة ، ليس من الضروري بعد ذلك أن نسهب في هذا الموضوع¹.

وهنا اتضح لنا موقف هاملتون جيب من الوحي ، وهو لا يختلف عن وليم موير ومرجليوث والفريد جيوم. وإن كان رفض تعليل أعراض

¹ - جيب ، هاملتون. الاتجاهات الحديثة في الإسلام . ص 27 . 28. ترجمة هاشم الحسيني. بيروت. منشورات دار مكتبة الحياة.

الوحي بمرض الرسول صلى الله عليه وسلم بالصرع ، فهو يرى أن القرآن الكريم عبارة عن خطب ألقاها الرسول صلى الله عليه وسلم خلال عشرين عاماً وفق مقتضيات الأحداث، وأنه عليه السلام كان يعتقد بأنها وحي من عند الله في حين نجد أنّ أرنولد توينبي أقرانه جبريل عليه السلام كان ينقل الوحي إلى الرسول صلى الله عليه وسلم .

أمّا المستشرق الإنجليزي الوحيد ممن هم موضع هذه الدراسة الذي أقر بأنّ القرآن الكريم من عند الله هو المستشرق آرثر أربري ؛ إذ أفرد فصلاً عن القرآن الكريم في كتابه مظاهر الحضارة الإسلامية Aspect Of Islamic Civilization بعنوان كلام الله The Speech Of Alla وقد أقر بأنّ الله قد اختار محمد ليكون نبيه ومبلغاً لرسالته ، بل نجده أقر بأنّ رسالة الإسلام ليست للعرب فقط بل للبشرية جمعاء¹.

هذا وقد سبق وأن بيّنتُ هذا عند الحديث عن ترجمة القرآن الكريم لأربري²، أمّا مونتجمري وات وهو يتعرض إلى السيرة النبوية بعد البعثة باستناده على الروايات الإسلامية ، ومبتدأ برواية الزهري المرفوعة عن النعمان بن راشد عن عروة عن عائشة رضی الله عنها أنّها قالت: (كأنّ أول ما ابتدئ به رسول الله من الوحي الرؤيا الصادقة كانت تجيء مثل فلق الصبح ، ثم حُبب إليه الخلاء فذهب يتحنث الليالي الطوال في غار حراء ثم يرجع إلى أهله حتى أتاه الحق ، وأبلغ بأنّه رسول الله، ثم عودته إلى

1- Aarbery : Aspects of Islamic Civilization p 32.

2 - انظر الفصل الثاني المدرسة الاستشراقية الإنجليزية: ص 51.

خديجة مضطرب الفؤاد يقول لها "زملوني زملوني" حتى ذهب عنه الروح ووصف كيف تبدى له جبريل وطلب منه القراءة ثلاث مرات حتى أقرأه الآيات الأولى من سورة العلق بعدما قال له "يا محمد أنا جبريل وأنت رسول الله" ثم تحدث عن كيف ذهبت به السيدة خديجة إلى ورقة بن نوفل وأخبره بما حدث ، فقال له ورقة "هذا أن الناموس الذي نزل على موسى بن عمران إلى آخر الرواية ، وهكذا استمر وات في سرد الروايات الإسلامية عن الفترة الأولى من الوحي ثم عن فترة الوحي وانقطاعه موردًا رواية الزهري عن محاولة الرسول صلى الله عليه وسلم أن يلقي نفسه من فوق الجبل لحزنه الشديد على انقطاع الوحي)^{1.2}.

هذا وبعد ما سرد وات تلك الروايات الإسلامية الصحيحة والمرسل منها والضعيف قام بتحليل هذه الروايات وما توصل إليه من نتائج والتي يمكن تلخيصها في الآتي:

1 . أنه لا يشك في أنّ دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم قد بدأت برؤيا حقيقية وهذه الرؤيا، كما يراها تختلف عن الأحلام³.

2 . تفسيره للآيات من 1 . 18 من سورة النجم تفسيرًا مغايرًا لتفسير المسلمين الذين يعتقدون أنّ هذه الآيات تتحدث عن رؤيا جبريل ، بينما وات يعتقد أنّ محمدًا صلى الله عليه وسلم قد فسرها على أنّها رؤيا الله نفسه

1 - وات. محمد في مكة. ص 75 . 77.

2 - هذه الرواية مرسلّة وضعيفة وتتعارض مع عصمة النبي صلى الله عليه وسلم.

3 - المصدر السابق . ص 99.

، وحجته في ذلك أنه لا يرى أي ذكر لجبريل في القرآن حتى في الفترة المدنية¹.

وقوله صلى الله عليه وسلم: ثم أتاني ، فقال : يا محمد أنت رسول الله ؛ إذ يربط هذا بالحديث عن جابر أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، قال: "سمعت صوتاً يناديني ، فتلفت حولي فلم أر أحداً ، فرفعت رأسي ، فرأيتَه هناك جالساً على عرش"².

ثم يعود ويشير إلى الآية 103 من سورة الأنعام ﴿تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾³ مؤكداً أن قوله تعالى ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾⁴ لا يعني رؤيا ال اله ، ولذلك فإنه يرى أنه ربما المقصود من آيات سورة النجم هو أن ما رآه الرسول كان آية ، أو رمزاً لجلال الله ، ثم يزعم وات أن الآية 17 من سورة النجم ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ ربما أضيفت فيما بعد لتوحي بتطور لاحق لهذه النظرية. أي حينما كانت الأنظار ترى الآية أو الرمز كان القلب يدرك الشيء الذي يرمز إليه⁵.

2. يرى وات أن زيارة الرسول صلى الله عليه وسلم لجبل حراء ليست مستحيلة معللاً تلك الزيارة . الفرار من حر مكة. أو يرجع ذلك إلى التأثير

1 - المصدر السابق. ص 99..

2 - المصدر السابق . ص 80.

3 - محمد في مكة . ص 80.

4 . النجم : 18.

5 - المصدر السابق. ص 80 ، 81.

اليهودي والمسيحي مثل الرهبان وتجربة شخصية لمحمد أن يكون قد أثار فيه الحاجة للخلو والرغبة فيها¹.

3. يأخذ وات بتفسير هـ . هيرشفلد لمعنى "تحنث" بأنها مشتقة من كلمة عبرية "تحنوٲ" الذى يعنى الصلاة لله ، ثم يحلل هذه الكلمة تحليلًا آخر ، ويفترض أنّها ربما قد تكون مشتقة من أصل عربي ، لأنّها تعني في هذه اللغة نقض القسم والعهد ، أو للعجز عن تنفيذه ، كما تعني بالمعنى العام الخطيئة ، والتحنث يعني القيام بعمل للفرار من خطيئة أو جريمة ، واستعمال كلمة التحنث هنا ربما كان دليلًا على أنّ المادة قديمة فهي بذلك صحيحة².

4- ويتعرض وات إلى تحليل العبارة الواردة أربع مرات في روايات الزهري ، وهي التي وجهها جبريل إلى محمد واصفًا إياه بـ "أنت رسول الله" من أنّ هذه العبارة تعني الدعوة إلى النبوة، بينما العبارات الأولى مثل "يا محمد" أنا جبريل وأنت رسول الله ، وما ورد من وصف النبي لجبريل من أنّه بينما كان يمشي يومًا؛ إذ رأى الملك الذي كان يأتيه بحراء على كرسي بين السماء والأرض ، فجاء منه رعبًا ورجع إلى خديجة ، وقال "زملوني" ويرى وات أنّ ذكر جبريل لا يستحق الثقة في البدء ، لأنّه لا يوجد له ذكر في القرآن ، ثم نجد وات يفترض افتراضات ويرجح بعضها ، فيقول: "ويمكن أن تكون الرؤيا من ناحية ثانية ، دعوة لطلب الوحي ، كما يمكن

1 - المصدر السابق. ص 82.

2 - المصدر السابق. ص 82.

أن يكون محمد قد عرف شيئاً ما عن الرسائل الخاصة لإثارته والافتراض الأخير هو الأقرب" ويجب أن نلاحظ بصدد هذا أنّ ما كان يوحي إليه كان "مسلكه العملي" الذي يسير عليه ، ومعنى الرؤيا في هذه الحالة معنى عام يتفق تماماً مع النص ، "أنت رسول الله"، تعبيراً خارجياً، كما يمكن أن لا تكون تعبيراً خيالياً ، أو تعبيراً فكرياً ، أي أنه لم يسمع ولم يخيل إليه أنه يسمع ؛ إذ أن هاتين الكلمتين كانتا تعلنان عن رسالة وصلته بدون كلمات ، فصورة الكلمتين لاحقة للرؤيا"¹.

5. لقد أوردت عدة روايات إسلامية حول فعل الأمر "اقرأ" الذي أمر به جبريل الرسول ، ورد عليه الرسول صلى الله عليه وسلم بعدم معرفته القراءة والكتابة ، ويرى وات أنّ المفسرين المسلمين استخدموا عبارة "ما أنا بقارئ" كدليل على أمية الرسول ليجدوا أساساً للعقيدة التي تريد أنّ محمداً لم يعرف الكتابة للتدليل على طبيعة القرآن المعجزة ، بينما رواية ابن هشام تورد عبارة "ما أقرأ؟" و "ماذا أقرأ؟" حيث التعبير الثاني لا يعنى إلا "ماذا أتلو؟" ثم يعيد كلمتي أقرأ وقرآن إلى المسيحية التي أدخلتها إلى الجزيرة العربية ، وتعنى قرأ مثلاً نصوصاً مقدسة "بينما قرآن" هي "كريانا" السورية استعملت للدلالة على "القراءة" ودرس من الكتابات المقدسة ، كما بينما أصبح معنى اللفظ الثاني "قرأ" فإنّ له في هذه السورة ، كما يبدو معنى "تلا عن ظهر قلب" أي من الذاكرة التي وصلته بصورة خارقة ، ويرى وات أنّ التفسير الطبيعي لكلمة "اقرأ" لا يعد أمر محمد بأن يتلو ما

¹ - المصدر السابق. ص 83، 84.

تبع ذلك كجزء من عبادة الله الشكلية ، وأنّ هذه الكلمة قد وجهت إلى محمد بمفرده ، وإن لم يكن صعبًا جعلها موجهة إلى اتباعه ، وأنّه ليس هناك من اعتراض على رأي فقهاء الإسلام القائل: "إنّ هذه السورة هي أول ما أوحى به من القرآن"¹.

6- وعندما يتحدث وات عن انقطاع الوحي وأثره على الرسول صلى الله عليه وسلم، يفسر وات قلق الرسول صلى الله عليه وسلم وخوفه بأنّه عليه الصلاة والسلام كان خائفًا من ظهور الله أو حضوره ، وما تملكه من يأس أولًا ، ثم ساورته أفكار الانتحار ثانيًا ، ثم يفسر وات خوف الرسول صلى الله عليه وسلم من الاقتراب من الله بأنّ له جذرًا في العقلية السامية القديمة ، كما جاء في العهد القديم ، وأنّ لفظ المزمّل تعني خوف الرسول من الله ، لأنّ الخوف أمام الانبثاق الإلهي كان منتشرًا ، فكان على محمد أن يشعر به².

7- . ولا يستنكر وات ذهاب السيدة خديجة رضي الله عنها مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى ورقة إبان نزول الوحي عليه للاستفادة برأيه ، لأنّ هذا ساعد على الافتراض أنّ محمدًا كان قد عقد صلوات مستمرة مع ورقة منذ وقت مبكر وتعلم أشياء كثيرة ، وقد تأثرت التعاليم الإسلامية اللاحقة كثيرًا بأفكار ورقة³.

1 - المصدر السابق. ص 85 ، 86.

2 - المصدر السابق. ص 90 ، 91.

3 - المصدر السابق. ص 90.

8- لقد أشار مونتجمري وات إلى أنّ الوحي على مدى ثلاث سنين كان ينزل بها على يد إسرافيل ، وزعم أنّه استند على رواية الطبري التي أوردها في تاريخه¹. فيقول: "ونسمع في مكان آخر أنّه قبل السنوات العشر في مكة حين نزل الوحي على محمد بواسطة جبريل مضت ثلاث سنين كان الوحي ينزل فيها على يد إسرافيل².

9- يقرر وات أنّ رؤيا الرسول صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام أنّها رواية خيالية، وهذا يتناقض مع المنهجية التي ادعاها ، فيقول: "فإنّ الوحي كان عندئذ كما يبدو من نوع التعبير الخيالي ، ولكنه مصحوب بدون شك برؤيا عقلية أو خيالية لجبريل ، ويوحى قول الحديث "على صورة إنسان" بأنها كانت رؤيا خيالية³.

10- ويدعي وات بأنّ القرآن من تأليف محمد ، فيقول: "ولا شك أنّه قام ببعض الجمع والتأليف للمادة الموحى بها ، كما عين الآيات المصححة لبعض الأمور حيث كان يشعر أنّ مقطعاً ما يتطلب تصحيحاً، وهذا جزء من النظرية الإسلامية السنية أنّ بعض الآيات قد نسختها آيات أخرى⁴.

أما برنارد لويس فهو لم يتعرض بالحديث عن الوحي.

1 - لم أجد هذه الرواية في تاريخ الطبري.

2 - المصدر السابق . ص 88.

3 المصدر السابق . ص 100.

4 - المصدر السابق . ص 95.

ننتقل الآن إلى بودلي الذي يعود في الفصل الرابع من كتابه "الرسول - حياة محمد" وفي حديثه عن الوحي ليؤكد على التأثيرات اليهودية والمسيحية معتبراً أنّ النبي صلى الله عليه وسلم كان مسلماً دينياً، وصاحب نظرية ، فيقول بودلي: "وكان ورقة أول من عضد محمد لما استولت عليه فكرة الرسالة ، ولا يعرف حقيقة اعتقاد ورقة في محمد ، فقد ولد ورقة وثنيًا ثم اعتنق اليهودية ، ثم تنصر أخيراً، وتتسب إليه أول ترجمة عربية للعهدين القديم والجديد¹ ، وكان معظم ما عرفه محمد عن التوراة والتلمود والإنجيل نتيجة محاورات محمد وورقة ، وما التقطته أذناه في رحلاته ، وإن هذه المعلومات مجتمعة هي التي جعلت محمد يشرد أثناء عمله ، ويتكاسل فوق راحلته"².

ثم يزعم أنّ النبي صلى الله عليه وسلم كان وثنيًا يعبد الله وشركاءه اللات والآلهة الأخرى فيقول: "وكان وزوجه وثنيين بحكم التقاليد يعبدان الله وشركاءه اللات والآلهة الأخرى ، وما كان ليقلق محمد أنّ هذه الآلهة قد نحتت من حجارة ، فقد وجد آباءه يعبدونها ، والظاهر أنّ محمدًا لم يفكر في الأمر كثيرًا ، فما كان عنده فسحة من الوقت ليفكر فيها ، إذ ما استثنينا فترة رعيه للغنم ، أمّا الآن وقد توافر له الفراغ ، فقد جعل يفكر فيما قاله ورقة ، وما قاله الراهب نسطوري في بصرى من عدة سنين ، وما قاله

¹ - يذكر بودلي في الفصل السادس "العقيدة" ، وعلى الرغم من وجود تعاليم ومعتقدات قديمة ، يقوم محمد بتفسيرها الآن ، فالزعم بأنّه قد سرق الإنجيل زعم باطل ، فما رآه أبدًا ، والقول باطلاعه على ترجمة الإنجيل الناقصة التي قام بها ورقة لا يضع أمامه إنجيل ليراه ، وحتى هذه الترجمة لم يرها فإن أول ترجمة عربية

رسمية للعهدين القديم والجديد ظهرت بعد موت محمد بقرون [بودلي ، ص 84]

² - بودلي. "الرسول - حياة محمد" . ص 53.

حبر نجران ، وما سمعه في مدن آسيا الصغرى البعيدة ، فبدت له الكعبة وما تحويه ، كأنما ينقصها شيء¹.

ثم يعود بودلي ليؤكد على مسألة الإصلاح الديني ليثبت فكرة أنّ محمدًا مصلح ديني ، فيقول: "وتصرحت فترة تقاس بالسنين أمحت فيها الأفكار العميقة ، وتولدت أفكار جديدة تحوي عناصر البقاء ، أفكار واضحة تهدف إلى الإصلاح الديني ، وراح يناقش أفكاره في غموض ، ثم أخذت تتفتح في شيء لهذا الترتيب².

ويقول بودلي في موضع آخر: "ولذلك استمر في تأمله وتفكيره في إصلاح مكة الديني ، ولطالما عاودته ذكريات ما سمعه في أيام رحلاته³.

ويعود بودلي ثانية يكرر أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، صاحب نظرية ، فيقول: ". ولم يرجع محمد في تقرير ذلك إلى الأصنام ، فلم يأخذ صنمًا منها ليطابق نظريته ، ولم يكن الله اسم منهم كالكالات والعزى ، ولكنه كان اختصار الآلهة⁴.

ويضيف بودلي على ما ذكره قائلًا: "وأوصلته تأملاته إلى نتيجة ثانية: "لقد أفسد الناس عقيدة آدم البسيطة النقية ، فأرسل الله أنبياء كثيرين ، ليهدوا الناس إلى الصراط المستقيم ، ومن هؤلاء الأنبياء نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم ، وقد أعجب محمد بشخصية إبراهيم الذي كان

1 - المصدر السابق. ص 53.

2 - المصدر السابق. ص: 54.

3 - المصدر السابق. ص 57.

4 - المصدر السابق. ص 54.

يختلف عن باقي رسل الله لم يأت بتعاليم خاصة ، بل كان حنيفياً .. لا مسيحياً ولا يهودياً¹.

ثم يستطرد مستنتجاً: "هدت هذه النظريات محمد إلى أفكار أخرى ، لقد مر على موت المسيح ستمائة سنة ، أفما آن الأوان لظهور نبي ليهدي العالم؟ إنَّ الأصنام الثلاثمائة والستين المحتشدة في الكعبة كانت الباعث على مثل هذا السؤال"² ، ثم يقول: (ولمّا أن تركنت هذه الفكرة محمداً حتى عزف عن العمل ، بل ماتت فيه كل رغبة في العمل ، وأصبح ملازماً العزلة)³.

ثم يقول بودلي عن حال الرسول صلى الله عليه وسلم بعد ذلك أي بعد فترة التأمل والعزلة "، فكان يرى في أثناء نومه الخفيف رؤى غريبة كان يتذكرها جيداً حينما يصحو، وكان يقصها على زوجته ، وكثيراً ما فقد وعيه ، وسقط على الأرض كأنه فارق الحياة ، وكان يتشنج أحياناً، وهذه الحالات هي التي أدت إلى الظن أنّ محمداً كان مصاباً بالصرع ، وهناك كثيرون يؤكدون أنّ هذه الإغماءات كانت حقيقية ليثبت من أنّ هناك ما هو أفضل وأعلى من تعاليم الكعبة"⁴.

ثم يأتي بودلي برواية عن السيدة خديجة رضي الله عنها لم يبين مصدرها، فيقول: (وحقيقة ما كان ينتاب محمد حسب ما روى عن أخبار

1 - المصدر السابق . ص 57.

2 - المصدر السابق . ص 57.

3 - المصدر السابق . ص 57.

4 - المرجع السابق . ص 58.

عصره ، وما جاء على لسان خديجة ، هو أنه قبل أن يبلغ الأربعين ظهر له الوحي لأول مرة ، وكان في التاسعة والثلاثين ، فكان من ذلك الوقت إلى أن انقطع الحي بموته ، إذا جاءه الوحي ثقل تنفسه ، واهتز جسمه ، وتفصد عرقه ، وتبلل به جبهته ، حتى في أقصى حالات البرودة وكان ينام أحياناً مدة طويلة وعيناه مقفلتان وهو يتأوه)¹.

ثم يستطرد بودلي قائلاً: (وكان محمد يعلم أنّ هذه النوبات تنتابه ، فكان شديد الحس من ناحيتها ، فلم يره وقد انتابته هذه الحالة إلا خديجة ، وأزواجه اللائي أعقبها ، وما كان محمد ليتفوه بأشياء ذات أهمية خلال هذه النوبات ، وقد أملت كل من كلمات القرآن عقب صفاء ذهنه من أثر الوحي ، ويؤكد الأطباء أنّ المصاب بالصرع لا يفيق منه وقد نخر عقله بأفكار لامعة ، وأنه لا يصاب بالصرع من كان في مثل الصحة التي يتمتع بها محمد ، حتى قبل مماته بأسبوع واحد ، وليس هناك ما يمنع من القول بأنّ هذه النوبات إن هي إلا نتيجة للملاريا ، أو أي حمى أخرى ، وربما كانت النتيجة المباشرة لإحلال الوحي فيه)².

ثم يقول: (من كانت تنتابه هذه الحالات في الأزمنة الغابرة يعتبر مجنوناً أو به مس من الجن ، ولو كان هناك من يوصف بالعقل ورجاحته فهو محمد)³.

1 - المصدر السابق. ص 58.

2 - المصدر السابق. ص 58.

3 - المصدر السابق. ص 58.

ثم يروي بودلي كيف نزل الوحي ، فيقول: (نزل الوحي عليه سنة 610 م ، في شهر رمضان، لما ذهب إلى غار حراء ليتحنّث ، وقد غربت الشمس عن ليلة القدر، وليلة القدر كما جاء في القرآن خير من ألف شهر سلام هي حتى مطلع الفجر، ويقول العرب إنّ الملائكة تزور الأرض وأنّ جبريل يأتي بأحكام من السماء) ثم يصف حال الرسول صلى الله عليه وسلم لحظة نزول الوحي عليه ، فيقول: "كان محمد ملتقاً في عباةته ، وكان مضطجعا على الصخرة يقظاً نائماً فسمع فجأة صوتاً واضحاً لم يسمع مثله من قبل ، فانتبه مزعوراً ، وارتفع الصوت ففرغ محمد ، وانتابه الخوف ، ثم أغمى عليه، فلما أفاق رأى ملكاً في صورة إنسان منتصباً أمامه ، وسرى إليه نفس الصمت مرة أخرى قال الملك إقرأ: فأجاب محمد مأخوذاً: ما أقرأ، فقال الملك في إصرار إقرأ فقال محمد: ما أقرأ؟ فقال الملك ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾¹

فراح محمد يكرر هذه الآيات في نشوة حتى حفظها ، فلما انتهى قال الملك: يا محمد أنت رسول الله حقاً ، وأنا جبريل ، واختفي الملك على الأثر².

ثم يجادل بودلي في مسألة القراءة، مشككاً في أمية الرسول صلى الله عليه وسلم وسبق أن بحثت هذه النقطة.

1 - اقرأ : 1-5.

2 - المصدر السابق. ص59.

بعد هذا العرض لمواقف مستشركي المدرسة الإنجليزية من الوحي
يتبين لنا الآتي:

1. لقد أرجع المستشرقون ظاهرة الوحي إلى عوامل نفسية خاصة
بالرسول صلى الله عليه وسلم ، وإلى مؤثرات داخلية خارجية.

2. انفرد آريبي بالتصريح بأن الرسول صلى الله عليه وسلم نبي
مرسل من عند الله ، وأن القرآن الكريم كلام الله ، بينما كان توماس أرنولد
متحفظاً ، فلم يقر الوحي ولم ينكره ، وقد أقر توينبي أن جبريل كان ينقل
الوحي إلى محمد ، في حين اعتبره مرجليوث من إنتاج محمد صلى الله
عليه وسلم وقد وصف الرسول صلى الله عليه وسلم بالكاهن وبالكاهنة
، مثلما وصفه كارل بروكلمان¹.

أما الفريد جيوم فيرجعه إلى عالم الرؤى والأحلام ، في حين يصف
هاملتون جيب القرآن الكريم بأنه خطب ألقاها محمد طيلة العشرين سنة أو
براهين ساقها ضد خصومه أو تعليقات على حوادث العصر ، وأن محمداً
كان يعتقد أن تلك الأقوال موحى بها ، ولكن وات يعتبر الوحي رؤيا خيالية
، أما بودلي فكان ملتوياً في أسلوبه ، فقد قدم للحديث عن الوحي بمقدمة
طويلة أسمى الرسول صلى الله عليه وسلم خلالها ، بأنه مصلح ديني وبأنه
صاحب نظرية ، ونظريته تستدعي ظهور نبي كأنبيا بني إسرائيل.

3. لقد تباينت آراء المستشرقين في الحالة التي كانت تنتاب الرسول
صلى الله عليه وسلم عند الوحي ؛ إذ اعتبرها مرجليوث أنها حالة صرع

¹ - بروكلمان ، كارل . تاريخ الأدب العربي . 1 / 134.

بينما نفي حالة الصرع كل من هاملتون جيب ووات وبودلي ، أمّا الفريد جيوم فلقد نفاه ، ثم عاد ونسب إلى المفسرين المسلمين قولهم بأنه كانت تنتابه نوبات صرع.

4. اتفق المستشرقون أنّ جبريل هو الذي كان مبلغ الوحي ، وأنّ وات أختلف عنهم بقوله إنّ الله هو الذي كان يبلغ الوحي بناءً على استنتاجات وافتراضات خاصة به.

5. انفرد كل من وات وبودلي بالقول بأنّ إسرافيل كان هو الذي يبلغ الوحي على مدى ثلاث سنوات ، وآثار وات شبهة أنّ الرسول في بداية الوحي يزعم أنّه رأى الله.

6. أنّ استناد الفريد جيوم ووات وبودلي على رواية مرسلّة تزعم أنّ الرسول هم بالانتحار أكثر من مرة عندما فتر الوحي عنه.

7. أجمع المستشرقون بأنّ هناك تأثيرات يهودية ومسيحية على ما جاء في القرآن ، وأنّ القرآن من تأليف محمد باستثناء آبري الذي أعلن أنّ القرآن كلام الله.

8. لقد حاول وات تفسير كلمة تحنث وفق المنهج الفيولوجي "فقه اللغة" ، وهي محاولة من المستشرقين لتفسير كلمات وإرجاعها إلى لغات أخرى لإعطائها معانٍ مخالفة لمقاصدها.

9. انفرد بودلي بقوله إنّ كان هناك وحيًا يسبق الوحي الذي نزل بسورة العلق.

10. لقد زعم وات أنّ مصدر الوحي اللاوعي الجماعي collective unconsciousness ، أي أنّ موضوعات الوحي كانت موجودة في اللاوعي عند محمد صلى الله عليه وسلم هي مستقاة من المحيط الجماعي الذي عاش فيه قبل البعثة ، وما كان الملك جبريل إلّا خيالاً أدى إلى حضور تلك الموضوعات إلى وعيه في الحالة التي يسميها وحي ، وهو بهذا يذهب إلى ما ذهب إليه توينبي ؛ إذ قال : "إنّ مصدر الوحي "اللاوعي" للنبي ، وأنّ المشاهدة القابلة للفهم على السطح الشعري من اللاشعور تسمى بالنبوة."

موقف مستشرفي المدرسة الإنجليزية من الدعوة سرًا

يتبين لنا من حديث وليم موير عن المسلمين الأوائل أنه يرمي إلى الإيماء بأن هؤلاء لم يسلموا إلا لصلوات القرابة أو الصداقة التي تربطهم بالرسول صلى الله عليه وسلم.

يرى موير أنّ محمدًا عندما بلغ الأربعين من عمره اعتقد في قرارة نفسه أنه بشير ونذير لقومه مبعوث لهم من قبل العناية الإلهية لإخراجهم من الظلمات إلى النور، وتجمع حوله منذ الوهلة الأولى مجموعة من الأشخاص متحمسين لدعوته ومعتقدين صدق رسالته، فهذه خديجة زوجته التي شاركتها في أبحاثه منذ البداية اعتنقت ديانتها، وربما تكون بذلك أول مسلمة، وقد وعدّها الرسول بقصر من اللؤلؤ في الجنة، وهذا زيد الرقيق السابق وزوجته أم أيمن حاضنة الرسول صلى الله عليه وسلم قد آمنا برسالته، وقد أصبح زيدًا حرًا قبل الدعوة الإسلامية عندما اعتقه محمد وجعله ابنه بالتبني، وبذلك يعتبر من المسلمين الأوائل، وهذا الصبي علي، البالغ من العمر ثلاث عشر والذي اتسمت حياته المبكرة بالحكمة والتعقل، قد آمن به أيضًا، وكان يتمتع بشجاعة فائقة وحيوية متدفقة، وقد قدم للإسلام خدمات جليلة لا تنسى، وربما كانت تربيته في بيت الرسول صلى الله عليه وسلم، واتصاله به هو الذي دعاه إلى الإيمان به بهذه السرعة، وقد أورد "موير" قصة أبي طالب عندما رأى ابنه عليًا يصلي مع الرسول صلى الله عليه وسلم، واستشار عن هذا الدين وشرح الرسول طبيعته، وأمر عليًا بتتبع دين ابن عمه، ووعدّه للرسول صلى الله عليه وسلم

بحمايته له ، وذلك طبقًا للروايات الإسلامية الواردة في سيرة ابن هشام والطبري وغيرهما.

وقد أضاف موير شخصًا آخر إلى هذه الجماعة التي آمنت مبكرًا بالدعوة الإسلامية ، وهو ورقة بن نوفل ، الذي كان يعتنق النصرانية ، ولكنه أي موير شكك في إسلام ورق عندما قال: "إنه من الصعوبة ضرورة إضافة السن ورقة ابن عم خديجة إلى مجموعة العائلة".

ومع ذلك فإنه يستشف من عبارته الغامضة هذه أن ورقة لم يكن قد اعتنق الإسلام ، أو أنه قد فعل ذلك لاتفاق أفكاره مع ما بشره الرسول ، ولكنه مات قبل أن يعلن الرسول دعوته¹

ثم يتحدث عن إسلام أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، فيقول: "ويضاف إلى عائلة الرسول أبو بكر صديق محمد الشخصي من قبيلة بنى تميم ، وقد كان يقطن في ذات الحي الذي تسكنه خديجة ، ونظرًا لصداقته الحميمة ، فقد آمن برسالته حالمًا أبلغه بها، وقد وصف "موير" أبا بكر بصفات النبل والكرم والصدق والإخلاص حتى أطلق عليه الرسول "الصديق" ، وقد أطال في وصفه من الناحية الجسدية والأخلاقية طبقًا للروايات الإسلامية ، وذلك لأهمية هذا الشخص على مستقبل الدعوة الإسلامية ، ثم يشير "موير" إلى اعتناق كل من سعد بن أبي وقاص والزبير بن العوام وطلحة الذين دخلوا الدين الإسلامي عن طريق أبي بكر

¹ - 2. 56 - 55 p Muir , Life of Mohammad ترجمة الدكتور ساسي الحاج/ انظر الظاهرة

الاستشراقية: 3 / 129 - 130.

الصديق لما لهم من علاقة القربى والصدقة ، وكان رابع هؤلاء عثمان بن عفان الأموي الذي زوجه الرسول ابنته رقية بعد أن قطعت علاقتها بعتبة بن أبي لهب ، وكان خامس هؤلاء عبد الرحمن بن عوف من بني زهرة ذلك التاجر الناجح الذى يسيل المال بين يديه¹.

ثم يستمر موير في تسمية المسلمين الأوائل من قريش والموالى والأرقاء طبقاً للروايات الإسلامية ودونما تعليقات تذكر ، حتى وصل هؤلاء الأشخاص قبل انتقال الرسول صلى الله عليه وسلم إلى دار الأرقم نحو ثلاثين شخصاً².

ويطرح موير عدة تساؤلات مفادها بأية درجة وتحت أي تأثير وغرض وحجة وفي أية فترة محددة اعتنق هؤلاء الإسلام وآمنوا بدعوة محمد.

ويجيب موير قائلاً: "لا نستطيع أن نعطي إجابة محددة عن ذلك ، وربما نستطيع أن نحدد الفترة الزمنية بثلاث سنين ، وذلك قبل أن تصبح الدعوة الإسلامية علنية، ولكن من الصعوبة إيجاد أرضية صحيحة لهذه النظرية ، إذا ما قابلناها بالسور القرآنية ، وربما كانت فترة البحث والشك التي سبقت نزول الوحي قد اختلطت مع هذه الفترة التي كانت الدعوة الإسلامية اتخذت فيها الصبغة السرية ، ولكننا متأكدون أن قرار القراءة بسم الله قد تم إقراره عندما كان محمد في الأربعين من عمره ، وفي تلك الفترات

1 - ترجمة الدكتور ساسي الحاج. الظاهرة الاستشراقية. 3 / 130 v2. 58 - 57 p ibid

2 - ترجمة وتلخيص الدكتور ساسي الحاج 3 / 130 v2 59- 58 p ibid

اللاحقة على ذلك كان من الطبيعي أن تتوجه جهوده إلى القناعات والاستعطافات الفردية ، إلا أنه ليس هناك ما يمنع أن تقتصر الدعوة في هذه الفترة المبكرة على هؤلاء النفر ، أو أنها بقيت في كنف السرية حتى لا تتسرب إلى أهل مكة¹.

أمّا السير توماس أرنولد فقد تحدث عن أوائل المسلمين وفي الروايات الإسلامية ، فقد تحدث عن السيدة خديجة أول من أسلم ، وعن استعدادها الدائم لأن توأليه بعطفها ، وتخفف عنه وتغمره بتشجيعها ، كلما قاسى من اضطهاد خصومه وأعداءه ، أو عذبتة الشكوك والهواجس ، ثم أورد رواية ابن إسحاق "وكانت أول من آمن بالله ورسوله وصدق بما جاء منه، فخفف الله بذلك عن نبيه صلى الله عليه وسلم لا يسمع شيئاً مما يكرهه من رد عليه وتكذيب له ، فيحزنه ذلك إلا فرج الله عن نبيه صلى الله عليه وسلم بها إذا رجع إليها ، تثبته وتخفف عنه ، وتصدقه ، وتهون عليه أمر الناس"².

ثم يتحدث عن أول من اعتنق الإسلام ، ويذكر أن زيد بن حارثة ، وعلي بن أبي طالب ، وكان الرسول قد تنبأهما والصديق أبو بكر ، وطالما كان النبي يشيد بذكره قائلاً: "ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة ونظر وتردد ، إلا ما كان من ابن أبي قحافة ، ما علم عنه حين ذكرته له ، وما تردد فيه" وكان أبو بكر تاجراً موسراً مبعجلاً في قومه ،

1 - ترجمة الدكتور ساسي الحاج . الظاهرة الاستشراقية . 3 / 131 . Ibid v2 p 61.

2 - أرنولد ، توماس . الدعوة إلى الإسلام . ص 35 . P . 16 . V2 .

لكمال خلقه ورجاحة عقله وكنايته، أنفق بعد إسلامه كل ثروته في شراء الموالي من المسلمين الذين اضطهدهم سادتهم لمشايعتهم دين محمد ، وكان لأبي بكر أثر كبير في تحول خمسة من المسلمين الأولين إلى هذا الدين وهم: سعد بن أبي وقاص ، الذي تم على يديه فيما بعد فتح بلاد الفرس ، والزيير ابن العوام ، أحد أقرباء النبي وزوجته ، وطلحة بن عبيد الله الذي استشهد فيما بعد بفروسيته ، وعبد الرحمن بن عوف، التاجر الموسر، وعثمان بن عفان ، ثالث الخلفاء الراشدين، الذي تعرض في حياته الأولى للعذاب ، فقد أخذه عمه فأوثقه ، وقال أترغب عن ملة آباءك إلى دين محمد؟ والله لا أصلك أبداً حتى تدع ما أنت عليه من هذا الدين. فقال عثمان: والله لا أدعه أبداً ولا أفارقه ، فلما رأى عمه صلابته في دينه حل وثاقه ، وبفضل هؤلاء وجماعة أخرى من الموالي والفقراء بوجه خاص ، أفلح النبي في أن يجمع حوله فئة قليلة من اتباعه في السنين الثلاث الأولى من البعثة¹.

أمّا الفريد جيوم فهو يطرح موضوع المسلمين الأوائل بطريقة مغايرة فهو نظر إلى دخول أبي بكر للإسلام من ناحية مادية بحتة ؛ إذ قال عنه كان مهماً بالنسبة للرسول أن يدخل في الإسلام تاجر ثري محترم من الناس محبوب بينهم كأبي بكر، ثم يقول: "وكان محمد موهوباً في الحصول على تأييد الناس وحبهم ، وقد أطلق على رفقاءه الأولين تمجيذاً لهم اسم "الأصحاب" ، كما نلاحظ أنّ الفريد جيوم يصر على اعتبار الرسول صلى

1 - المصدر السابق . ص 35 ، 36.

الله عليه وسلم بأنه مصلح ديني ، فيقول: "وينبئنا التاريخ أنّ أي مصلح ديني يريد هدم النظام القائم في المجتمع لابد أن يقابل بمعارضة من جانب أصحاب المصالح المهددة بأفكاره الحديثة، والجماعات التي تتمتع في ظل دين راسخ بمزايا مالية ودينية واجتماعية ، لا يمكن أن تتخلى عنها دون مقاومة ، وهي على استعداد في النهاية لقتل من يتعرض لها"¹.

ثم يشير إلى دور السيدة خديجة رضي الله عنها في هذه الفترة بأنه كان صلى الله عليه وسلم مستنداً إلى تأييدها وإيمانها.²

ومع أنّ هناك بعض المستشرقين لم يتحدثوا عن هذه الفترة مثل برنارد لويس نجد "مونتجمري" يتحدث عن ظروف الدعوة الإسلامية في مرحلتها المبكرة بتفصيل كبير ، وحلل العوامل التي أدت إلى انتشار الإسلام في المجتمع المكي ، ودرس بالتفصيل المسلمين الأوائل وظروفهم ، وسبب هجرتهم إلى الحبشة ، ويرى هو الآخر أنّ خديجة أول من آمنت برسالة زوجها ويشير إلى اختلاف الروايات الإسلامية حول الرجل المسلم الأول أهو علي أم أبي بكر أو زيد ابن حارثة ، ويرجح وات الرواية التي رشحت علياً لهذه المرتبة باعتباره كان صغيراً ، وكان يعيش في كنف محمد ، ولكنه يرى طرح هذا الرأي من وجهة نظر المؤرخ الغربي ، ويستند وات إلى رأي الطبري حول المسلمين الخمسة الأوائل ، وهؤلاء الخمسة كانوا من

1 - المصدر السابق. ص 31.

2 - المصدر السابق . ص 32.

المرشحين للخلافة بعد عمر ، فربما كان سبق إسلامهم هو الذي هياهم إلى هذه المكانة الرفيعة.¹

ويفصل وات في تسمية المسلمين الأوائل من كل قبيلة استنادًا إلى ما ذهب إليه "كايتاني" في حولياته ، والذي يهمننا تحليلاته حولها منها:

1- أنّ هناك مسلمين أوائل من جميع هذه القبائل بلا استثناء ، وأنّ هناك شبابًا من أفضل هذه العائلات قد اعتنق الإسلام منذ اللحظات الأولى من انبعاثه.²

2- اعتناق رجال مستقلين عن كل قبيلة للإسلام كحلفاء قریش من القبائل الأخرى ، وهم الذين أطلق عليهم ابن سعد "الشباب" أو "المستضعفين" لعدم وجود قائل لهم تجمعهم.³

3- إنّ الإسلام الفتى كان حركة شباب في أساسه ، لأنّ معظم المسلمين الأوائل لم يتجاوزوا الأربعين من أعمارهم عند الهجرة ، وكثير منهم من اعتنق الإسلام منذ ثماني سنوات.

4- أنّ الإسلام لم يستمد قوته من "طبقة مستضعفة من حثالة الناس ، أو من طفيليين صعاليك أو من رجال الدرجة السفلى ، بل أنّهم كانوا من الطبقة الوسطى الذين أدركوا الفرق بينهم وبين أصحاب الامتيازات

¹ - وات. محمد في مكة . ص 144 ، 145

² - المرجع السابق . ص 147 . 158.

³ - المرجع السابق. ص 159 . 160.

في الذروة فأخذوا يصفون أنفسهم بأنهم أقل امتيازاً منهم فنشأ صراع ليس بين الملاكين والمعوزين ، بل بين الملاكين والذين هم أقل منهم¹.

ثم يتعرض وات إلى الأسباب التي دفعت هؤلاء المسلمين إلى اعتناق الدعوة المحمدية ويرجعها إلى انتشار الحنيفية التي كان اتباعها يؤمنون بالتوحيد ، وهذه الحركة ذات ميول خلقية أكثر من ميول دينية ، وإن كان "وات" يستشهد ببعض أهل هذه الملة التي اعتنقت الإسلام في مراحلها المبكرة مثل عبيد الله بن جحش الذي اعتنق المسيحية بعد هجرته إلى الحبشة، وسعد بن زيد بن عمر ، وعثمان بن مظعون ، كما أنّ العوامل الاقتصادية والدينية كان لها أثرها في انتشار الدعوة الإسلامية بين هؤلاء الشباب ، كما أشار وات إلى العوامل القبلية والعائلية التي ساعدت بعض أهل مكة على دخول الإسلام كحمزة الذي اعتنق الدين الجديد انتقاماً لإصابة ابن أخيه وحمية له ، وكإسلام عمر الذي أراد أن يمسح العار الذي لحق بقبيلته عندما سمع باعتناق أخته وزوجها للإسلام ، ويضيف وات سبباً آخر لإسلام عمر بن الخطاب رضى الله عنه من وجهة نظر وات ، وهو أنّه أحس بالضيق بسبب مكانة قبيلته - الضعيفة - بمكة ، ولا يستبعد أنّ شعوره بالضيق قد ضاعف حقه على زملائه الذين كانوا يتولون قيادة القبيلة خشية أن يؤدي اعتناقهم للإسلام إلى تدهور حالة القبيلة العامة².

1 - المرجع السابق . ص 160.

2 - المصدر السابق . ص 162 . 163.

ويرى وات أن السبب الذي دعا "المستضعفين" إلى اعتناق الإسلام يرجع إلى العوامل الاقتصادية والسياسية ، ويرى أن عددهم لم يكن كبيراً ، لأنّ محمدًا لم يكن قط مصلحًا اجتماعيًا، بل كان مؤسس ديانة جديدة¹.

ويتحدث بودلي عن المسلمين الأوائل فنجد ذكر زيدًا وعليًا، ولم يذكر أبي بكر ثم ذكر الخمسة الذين أسلموا وهم سعد بن أبي وقاص ، والزبير بن العوام وطلحة بن عبد الله ثم عثمان ابن عفان وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم ، ثم قال: "فجمع حوله في الأربع سنين الأولى من دعوته أربعين صحابيًا إلى من تبعه من أهل بيته ، وكان اتباعه غالبًا من التجار المخفقين أو الرجال الساخطين ، وما دعا هؤلاء الرجال إلى اعتناق الدين الجديد، أنه قد جاء بحل سهل لمعضلات الحياة ، فهو على نقيض ذلك يتطلب تضحيات كثيرة كذا وعناد ، بل لأنهم قدم لهم شيئًا محسوسًا طبيعيًا².

ثم تحدث عن إشادة الرسول صلى الله عليه وسلم بأبي بكر وفق الروايات الإسلامية³.

1 - المصدر السابق. ص 165.

2 - بودلي : الرسول . حياة محمد . ص 67 ، 68.

3 - انظر . بودلي، ص 68.

موقف المدرسة الاستشراقية الإنجليزية من الدعوة جهراً

لقد أشار موير إلى إعلان الرسول صلى الله عليه وسلم عن دعوته ر، ونتائج ذلك الإعلان الذي تمثل في دخول الأقلية من قريش إلى دين الإسلام من جهة ، ومعارضة الغالبية القرشية لهذا الدين من جهة أخرى ، ولقد أسهب موير في الحديث عن المعارضة القرشية التي وصفها بأنها قائمة على تمسكها بعبادة الأصنام ، ولم تكن لها جذور اقتصادية أو عائلية أو اجتماعية ، ويقول في هذا الصدد: "إنّ السبب الرئيسي لهذه المعارضة هو التعلق الموروث بالأصنام ، وعبادة الأجداد ، وممّا أسبغ على مكة من قدسية عرفت بها في الجزيرة العربية كلها¹".

يضاف إلى ذلك أنّ الدعوة الإسلامية خالية من المعجزات المعروفة لدى الديانات الأخرى، وليس هناك من دليل على صدقها إلاّ قول الرسول ، وإذا كانت الأصنام ربما لا تصلح للعبادة، فإنّه ليس هناك ما يمنع من أن يكون الإسلام مضللاً من وجهة نظر عبدة الأصنام ، وهذا هو السبب الحقيقي والرئيسي للمعارضة القرشية للإسلام والتي دامت سنين طويلة ، مضافاً إليها بدون شك عوامل الغيرة والبغضاء والحزازات.

ويقول موير "إنّ الاضطهاد قدم لمحمد خدمات جليلة ، فقد وحد بين المسلمين الأوائل للدفاع عن أنفسهم وعقيدتهم حتى قبل الهجرة ، وخلق بينهم تلك الروح المتسمة بالتضحية والفداء عن معتقداتهم ، وجعلتهم أكثر تصميمًا على تحقيق أهدافهم ، كما خلقت هذه المعاملات القاسية ردود فعل

¹ - ترجمة د. ساسي الحاج : انظر الظاهرة الاستشراقية . 3 / 131 . Muir Life of Mohammed V2

لدى بعض العشائر والعائلات التي نظرت بعين العطف إلى الإسلام ومعتقيه ، بل أدت ببعض منهم إلى اعتناق الإسلام ، ولعل في قصة إسلام حمزة أكبر دليل على ذلك¹.

ويذكر موير أنّ المعارضة الفعالة لم تنظم ضد محمد خلال الثلاث أو الأربع السنوات الأولى من بعثته ، بل إنّها لم تكن كذلك عندما أعلن عن دعوته وتعدد اتباعه وكثير معتقوه دعوته ، ولكن عندما بدأ الرسول "صلى الله عليه وسلم" يندد بأصنام قريش ويسفه أحلامها ، ويشتم آباءها ويعيب ديانتها ، فيسب آلهتها ، ويفرق جماعتها انتظمت المعارضة القرشية ضده ، فأصبحت أقوى مما هي عليه ، وهكذا عندما تترأى العداوة فإنّها تصبح متمثلة في أفعال العنف والشدة.

ويروي "موير" قصة سعد وأضرابه الذين يفرون بدينهم إلى أحد شعاب مكة للصلاة بها ليستخفوا بصلاتهم من قولهم ، وكيف كانوا ذات يوم كذلك إذا ظهر عليهم قوم من المشركين وهم يصلون ، فناكروهم وعابوا عليهم ما يصنعونه حتى قاتلوهم، فضرب سعد بن أبي وقاص يومئذ رجلاً من المشركين تلحى بغير فشجه فكان أول دم أريق في الإسلام².

ثم يتحدث عن السنة الرابعة للبعثة التي يؤكد فيها أنّ اضطهاد قريش للمسلمين قد زاد وتفاقم ، وهي السنة التي تحول فيها الرسول صلى الله عليه وسلم إلى دار الأرقم بن أبي الأرقم ، وكانت داراً بمكة تقع على

1 - ترجمة د. ساسي الحاج. 3/ 131 ، 132.

2 - ترجمة د. ساسي الحاج. الظاهرة الاستشراقية، 3/ 131 ، 132.

الصفاء على مسافة قريبة إلى الشمال من بيته ، فكان يجتمع فيها مع أصحابه يعلمهم تعاليم دينهم بهدوء وسكينة ، ثم أخذ موير يعدد المسلمين الأوائل الذين اعتنقوا الإسلام وما لحقهم من عذاب واضطهاد خاصة الموالي والعبيد منهم ، وأشار إلى حالة بلال وصهيب وسمية ، وياسر وغيرهم ، من المستضعفين ، كما أشار إلى أولئك النفر من المسلمين الذين فتنهم عائلاتهم وعذبتهم ليرجعوا عن الإسلام ، ولا يهمننا في هذا السياق ما أورده موير من هذه الحوادث التاريخية المثبوتة في كتب التراث الإسلامي إلا ما يحاول تفسيره من خلال رؤيته للسيرة النبوية ، فهو يرجع أسباب الاضطهاد إلى العوامل الاقتصادية والطبقية كما فعل بعض أضرابه ، من المستشرقين ، وإنما فسر هذه المعارضة بتمسك قريش بآلهتها ، وعبادة أسلافها ، ولكن بعدما استعرض حوادث الاضطهاد المختلفة أشار إلى العوامل الاجتماعية التي أدت إلى انتشار الإسلام بين العبيد والموالي ، ويرى موير أنه بعد انتقال الرسول إلى دار الأرقم فقد انضم إليه العديد من الأرقاء مثل "يسار" و "جبر" اللذين أشار إليهما القرآن في قوله ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾¹ مدعيًا كما ادعت قريش من قبله أنه كان يستقي منهما القرآن ، وصهيب بن سنان الرومي أو اليوناني من الموصل ، والذي كان متضلعا في الدراسات اليونانية ، وافترض موير كعادة أقرانه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد استقى منه العديد من المعارف والمعلومات المسيحية².

1 - النحل : 103.

2 ترجمة د. ساسي الحاج . 3/ 132 ، 133.

ثم يتحدث عن شعور قريش بخطر الإسلام حينما بلغ عدد المسلمين خمسين شخصًا ، فبلغ الاضطهاد أقصاه ضد الأرقاء والغرباء ، وعلى ذوي الطبقات الضعيفة الذين لا حامي لهم يحميهم من اضطهاد أعدائهم ، ووصف موير هذا الاضطهاد بجميع أشكاله وألوانه طبقا لما هو مسطر في الروايات الإسلامية ، وأورد قصة اضطهاد بلال بالتفصيل ، كما أورد قصة استشهاد ياسر وسمية على يد أبي جهل ، ولكن "موير" أشار إلى سلامة الرسول من هذا الاضطهاد ، وبسبب حماية عمه له ، وكذلك كانت حلة بعض المسلمين من ذوي النفوذ والعائلات القوية الذين سلموا من الاضطهاد مثل أبي بكر ، والوليد بن المغيرة ، وهشام بن الوليد بن المغيرة وأضربهم من المسلمين الذين حمتهم عائلاتهم من اضطهاد قريش¹.

وعندما ازداد اضطهاد قريش للمسلمين أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه بالهجرة إلى الحبشة ، وكانت هذه أول هجرة للمسلمين إلى أرض النجاشي ، ومن هذه الهجرة نحو الجنوب الشرقي انبثقت فكرة الهجرة الكبرى إلى الشمال ، إلى يثرب حيث تأسست الدولة الإسلامية ، ويقول موير في هذا الصدد "إنّ الهجرة إلى الحبشة قربت محمداً ، ووجهت انتباه أكثر فأكثر إلى الديانة المسيحية ، ولو كان العرب لم يقدموا له حق اللجوء ، فلربما قد هاجر هو الآخر إلى الحبشة ، ولتضاءلت الديانة الإسلامية إلى هرطقة مسيحية سريعة الزوال ، كما حصل للعقيدة المونتيسمية² ، ولكنه أقر بهجرتين إلى الحبشة.

1 - ترجمة د. ساسي الحاج . 3 / 132 ، 133 .

2 - ترجمة د. ساسي الحاج . 3 / 133 .

ننتقل الآن إلى مرجليوث ؛ إذ يقول "عندما أعلن محمد عند الكعبة أن لا إله إلا الله¹ ، كانت النظرة السائدة في مكة نحو محمد أنه مجنون ، أو تحت تأثير جني ، وهو أحد الكائنات التي تتكلم من خلال الشعراء والسحرة²، ثم تحدث مرجليوث عن التعذيب الذي تعرض له المسلمون المستضعفون³، وعن الهجرة إلى الحبشة⁴، وزعم أن هناك تأثيرات يهودية ومسيحية على الإسلام وذكر أمثلة على ما حرّمته اليهودية ثم حرّمه الإسلام متأثرًا باليهودية⁵.

أمّا توماس أرنولد فهو عندما يتحدث عن الدعوة الجهرية لم يشر أنّ هذا جاء بأمر من الله ولكنه يرجع بسبب الجهر بالدعوة إلى نجاح الرسول صلى الله عليه وسلم في جمع حوله فئة قليلة من اتباعه خلال الثلاث سنوات الأولى من البعثة ، فحفزه على التفكير في اتخاذ أساليب أقوى أثرًا من الأساليب الأولى ، فبدأ يجهر بدعوته ، وأحجم قومه عنه إلا عليًا الذي أعلن أنّه وزيره فضحك قومه عليه ، وهذا لم يخفق محمدًا من الاستمرار في الجهر بدعوته ، ولكن إنذاره لقومه لم يزداهم إلا سخرية وازدراء⁶.

ثم تحدث عن محاولات كفار قريش إقناع عمه أبي طالب ليرجع ابن أخيه عما يدعو إليه ، وقال لعمه قولته الشهيرة "يا عم والله لو وضعوا

1- Margolious , Mohammed and The Rise of Islam P. 126.

2- Ibid , p. 121.

3- Ibid p .122.

4- Ibid , p. 124.

5- Ibid p. 126.

6 - الدعوة إلى الإسلام . ص 36.

الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته" (فأثر ذلك في نفس أبي طالب وقال له: أذهب يا ابن أخي، فقل ما أحببت ، والله لا أسلمك لشيء أبداً)¹.

ثم يتحدث أرنولد عن موقف قريش لما أفرزه الإسلام من تقدم ، وما لجأوا إليه ما أمكن من وسائل الوعد والوعيد ، وعرضوا على الرسول صلى الله عليه وسلم كثيراً من شرف الدنيا وجاهاها لعله يعدل عما عقد العزم عليه².

ثم يتحدث عن سبب إسلام عمه حمزة بن عبد المطلب ، فيقول: "وقيل أنّ ما لقي محمد من سوء المعاملة كان سبباً في أن يجتذب إلى جانبه شخصاً عظيماً دخل في الإسلام ، ذلك هو عمه حمزة ، فإنه عندما سمع قصة الإهانة التي لحقت بابن أخيه واحتملها صابراً، تملكّت عاطفة الغضب روحه التي جبلت على البطولة والفروسية ، فأحالتها من عدو عنيد إلى متعصب غيور على الإسلام ، ولم يكن هذا الحادث هو المثل الوحيد لما أثاره التنكيل بالمسلمين من شفقة في نفوس هؤلاء الذين شاهدوا ما قاساه أولئك من اضطهاد ، ولا شك أنّ كثيراً من الناس قد دخلوا سرّاً في الدين الجديد، ولكنهم لم يجهروا بإسلامهم حتى يحين يوم انتصار الدين³.

1 - المصدر السابق . ص 36.

2 - المصدر السابق . ص 36.

3 - المصدر السابق . ص 36.

ويرى توماس أرنولد أنّ سبب عداوة قريش للإسلام يرجع إلى تأكدهم من أنّ انتصار الدين الجديد معناه تحطيم دين العرب الموروث والعبادة القومية، وضياع ما كان يتمتع به سدنة الكعبة المقدسة من ثروة ونفوذ¹.

ويتحدث توماس عما تعرض له الموالى من أذى وتعذيب مثل بلال مشيراً إلى موت اثنين من المسلمين من جراء التعذيب².

كما يتحدث عن شجاعة عبد الله بن مسعود وجراءته حين قرأ القرآن في فناء الكعبة نفسها ، وتعرض له قوم من قريش كانوا في أنديةهم ، وجعلوا يضربون وجهه ، ولكنه استمر يتلو القرآن وقتاً ما قبل أن يضطروه إلى السكوت³.

ونتيجة لشدة معارضة قريش فقد اتخذ الرسول صلى الله عليه وسلم في السنة الرابعة من البعثة في دار الأرقم وهو أحد السابقين إلى الإسلام ، ويذكر توماس أنّ الفترة التي قضاها محمد صلى الله عليه وسلم في هذه الدار فترة هامة في الدعاية الإسلامية بمكة ، حتى أنّ كثيراً من المسلمين يؤرخون دخولهم في الإسلام من تلك الأيام التي كان الرسول يبيت فيها الدعوة بدار الأرقم⁴.

ثم يتحدث توماس عن الهجرة إلى الحبشة وأسبابها ، وإنّها كانت في السنة الخامسة للبعثة 615 م ، وعدد المهاجرين أحد عشر رجلاً وأربع

1 - المصدر السابق . ص 37.

2 - المصدر السابق . ص 37.

3 - المصدر السابق . ص 37.

4 - المصدر السابق . ص 38.

نسوة حيث لقيهم النجاشي حيث رحب بهم ، كما أورد قصة مصعب بن عمير ، وكيف أسلم في دار الأرقم وأخفى إسلامه عن أهله وعشيرته ، وعندما علموا بإسلامه حبسوه فتمكن من الهرب منهم إلى أرض الحبشة¹.

ويتحدث توماس أرنولد عن ملاحقة المسلمين المهاجرين في الحبشة ولكن بصيغة الشك فيقول: " (ويقال إنَّ سخط قريش قد لحق بهؤلاء الهاربين حتى بأرض الحبشة) ثم يستمر في عرض الأحداث وفق الروايات الإسلامية ، مبيِّنًا كيف قبل النجاشي شكاية المسلمين ورجع رسل قريش مقهورين"².

ويتحدث عن قريش وكيف حاولت في هذه الأثناء محاولة جديدة لإغراء النبي صلى الله عليه وسلم بالمال والجاه حتى يترك دعوته ، ولكن تلك الوعود لم تجد نفعًا في هذه السبيل"³.

ويفصل توماس أرنولد في إسلام عمر بن الخطاب وقد أوردتها وفق رواية ابن إسحاق⁴ ، ويتحدث عن سيدنا عمر قبل وبعد إسلامه ، وعن أثر إسلامه فيقول: "وأسلم رجل كان من أشد أعداء محمد وأصلبهم مقاومة وتعصبًا ، رجل تضافرت الأسباب لدى المسلمين عن أنه أخطر أعدائهم وألدهم ، ومع ذلك فقد سطع ذكره فيما بعد ، وكان من أنبل الرجال في صدر الإسلام ، ويعد إسلام عمر نقطة تحول في تاريخ الإسلام ، فقد

1 - المصدر السابق . ص 38.

2 - المصدر السابق . ص 38 ، 39.

3 - المصدر السابق . ص 39.

4 - انظر: إسلام عمر بن الخطاب سيرة ابن هشام.

استطاع المسلمون أن يسلكوا منذ ذلك الحين مسلكًا أشد جرأة ، فترك محمد دار الأرقم ، وبدأ المؤمنون يجهرون بتأدية شعائر الإسلام جماعات حول الكعبة ، وقد يتوقع المرء أن يكون هذا الموقف سببًا قويًا في إثارة مخاوف أشرف مكة ، ذلك أنهم أصبحوا لا يطبقون الحياة مع شذمة من المنبوذين المحقرين المضطهدين ، الذين يجاهدون لكي يعيشوا عيشة ضعف وبؤس ، إنهم كانوا عصابة قوية ، يكثر عددهم يومًا بعد يوم بمن ينضم إليهم من المواطنين من أصحاب النفوذ والسلطان ، ويعرضون استقرار الحكومة القائمة للخطر بما عقده من تحالف مع ملك أجنبي قوي¹.

ويتحدث أرنولد عن حصار قريش للنبي صلى الله عليه وسلم وبني هاشم ، لمدة ثلاث سنوات ، وهو غير متأكد من هذا التاريخ ؛ إذ يقول: "وقد قيل أنّ بني هاشم أقاموا على ذلك ثلاث سنوات محصورين في شعب من شعاب مكة"².

ولكن توماس ينكر " أنّ المقاطعة كانت على تعاهد قريش على ألا يزوجهم من أنفسهم ولا يتجروا معهم وأن يقطعوا كل صلة تربطهم بهم. " ولم يشر أنّ خلال هذه المقاطعة منعوا وصول الطعام للمسلمين ، وكيف كان المسلمون يتضورون جوعًا وكان الرسول الله صلى الله عليه وسلم يضع الحجر على بطنه كلما أحس جوعًا وكان مطلب قريش من ذلك الحصار أن يسلم بني هاشم محمدًا لقتله.

1 - المصدر السابق . ص 39 ، 40.

2 - لاختلاف الروايات فهناك من يقول سنتان ومن يقول ثلاث سنوات ، والأرجح ثلاث سنوات.

هذا ويلاحظ هنا أنّ توماس أرنولد لم يتحدث عن الهجرة الثانية للحبشة.

أما ألفريد جيوم فقد تحدث عن الدعوة جهراً بأسلوب مغاير تماماً لما تحدث به السير توماس أرنولد ، ومما يثير الدهشة أنّ المستشرقين ينقلون من بعضهم البعض ولكنهم يأخذون من محمد توافق كتاباتهم وأهوائهم ، أما الذين يتحدثون باعتدال وإنصاف عن الإسلام فلا يعتقدون بها ورغم أن توماس أرنولد سابق لألفريد جيوم إلا أنّ جيوم لم يعتمد كتاباته.

وكما مر بنا من قبل أنّ ألفريد جيوم ينظر إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم كمصلح ديني ، ويتحدث عن مقاومة قريش للإسلام أنّها تتاهض هذا الإصلاح الديني ، فيقول ألفريد جيوم: " كان أغلب اتباع محمد صلى الله عليه وسلم الأولين من الأرقاء أو من الفقراء ، وإن كان عدد من وجهاء مكة قد دخلوا في الإسلام ، وينبئنا التاريخ أن أي مصلح ديني يريد هدم النظام القائم في المجتمع ، لابد أن يقابل بمعارضة من جانب أصحاب المصالح المهددة بأفكاره الحديثة ، والجماعات التي تتمتع في ظل دين راسخ بمزايا مالية ودينية واجتماعية ، لا يمكن أن تتخلى عنها دون مقاومة ، وهي على استعداد في النهاية لقتل من يتعرض لها ، ونستطيع أن نستظهر من القرآن خوف المكيين الحقيقي من تحطيم آلهتهم لعلمهم أنّ ذلك سيؤدي إلى ضياعهم ، كما أنهم إذا قدر لمحمد النجاح في إقناع أغلبية سكان المدن ، فإنّه لا جرم سيصبح زعيماً لهم ويفقدون هم بالتالي مركزهم كقيادة لهذه الجماعات ، وإذا كان الله قد أراد أن يبعث برسالة حقاً

فلماذا لم يختار واحدا منهم؟ وما دام لم يحدث ذلك فمحمد (صلى الله عليه وسلم) - في رأيهم - مدع فحسب ، وقالوا هل نؤمن بمن يتبعه حثالة الناس؟ إنه المال إذن ما يعى إليه في الواقع"¹.

ويصف الفريد جيوم كتب السيرة بالتزويد والمغالاة في تناولها المراحل الأولى من النزاع بين كفار قريش والمسلمين والرسول صلى الله عليه وسلم بصورة خاصة ، فيقول: "وحاول المكيون - في المراحل الأولى من النزاع - أن يمتهنوا الرسول بالسخرية منه ، واتهامه بالسحر ، ثم اتهامه بالخداع ، لأنه كما قالوا - قد حصل على تلك الأفكار من أجنبي ، يهودي أو مسيحي ، كان يتصل به كل يوم ، وكل هذه الاتهامات . التي ينكرها القرآن . تتناولها السيرة بالتفصيل ، وإن كان يشوبها التزويد والمغالاة على وجه العموم"².

ويستمر في سرد أقاويل المشركين التي تثير الشكوك حول النبي صلى الله عليه وسلم فيقول: (وزاد المشركون . على ما تقدم . قولهم إذا كان محمد حقيقة نبي الله ، فلماذا لم ينزل الله أية يؤيد بها دعواه؟ وكان رد محمد صلى الله عليه وسلم أن القرآن بلغته المعجزة . هو آيته التي جاء بها)³.

ثم يتحدث عن هجرة بعض المسلمين إلى الحبشة وبالغ في عددهم وجعلهم بالمئات في حين أن عدد المهاجرين في الهجرة الأولى عشرة رجال

1 - جيوم الفريد . الإسلام . ص 33 . 34.

2 - المصدر السابق : ص 34.

3 - المصدر السابق . ص 34.

وأربع نساء وقيل خمسة ، وفي الهجرة الثانية كانوا حوالى مائة وثلاثة
وثمانون رجلاً إن كان فيهم عمار بن ياسر واثنان وثمانون رجلاً إن لم يكن
فيهم أما النساء فهم ثمانية عشرة امرأة يقول جيوم: "وبعد فترة أصبح اتباع
محمد في موقف عسير حتى أن المئات منهم تقريباً أُجبروا على الهجرة إلى
الحبشة، ليحتموا بالمسيحيين هناك ، ولعل هذه الآية قد نزلت في ذلك
الوقت: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ۗ
وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ۗ ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ
قَسِيصِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾¹.

ولقد لقي هؤلاء المهاجرون معاملة طيبة ، وكانت لهم الحرية
المطلقة في القيام بعبادتهم كما يشتهون"².

ثم يشير جيوم إلى المقاطعة بقوله: "وقد كانت تلك الفترة عصبية
مليئة بالمهاترات ، بل أن الكفار قد فرضوا على المسلمين ؟ في الواقع .
نوعاً من المقاطعة ، وقد كان للجدل المستمر أثر في اضطرار الرسول إلى
تحديد موقفه بالنسبة لعدة أمور هامة وينسب كتاب السيرة كثيراً من السور
إلى هذه المجادلات"³.

وهكذا نجد أن هناك فرقاً كبيراً بين ما كتبه الفريد جيوم وتوماس
أرنولد عن الدعوة جهراً، ويتضح لنا هذا في الآتي:

1 - المائدة: 82 .

2 - المصدر السابق . ص 34.

3 - المصدر السابق . ص 34.

1- نلاحظ أنّ الفريد جيوم قد اكتفى بالتركيز على اعتراضات قريش على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، دون أن يوضح رد القرآن الكريم على تلك الاعتراضات ، وذلك لأنّه رأى في تلك الاعتراضات ما يوافق أهواءه ، بينما توماس أرنولد لم يعر هذه الاعتراضات اهتماماً ولم يشر إليها أو يذكرها.

2- لم يشر يوم إلى عروض قريش المغرية للرسول صلى الله عليه وسلم ليترك الدعوة ؛ إذ عرضت عليه جاهاً وتتصيبه ملكاً، وقد تكررت هذه العروض عدة مرات ورفضها الرسول صلى الله عليه وسلم بشدة. بينما تحدث أرنولد عنها.

3- لم يتحدث جيوم عن التعذيب الذي لقيه المسلمون المستضعفون من كفار قريش مثل بلال بن رباح رضي الله عنه ، كما لم يتحدث عن جراءة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، في قراءته القرآن جهراً عند الكعبة وما لقيه من القرشيين تبعاً لذلك ، كما لم يتحدث عن إسلام حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما ، وأثر إسلامهما على الإسلام ، بينما نجد توماس قد فصل في الحديث عن ذلك وفق الروايات الإسلامية.

4- بالغ جيوم في عدد المهاجرين إلى الحبشة وذكر أنّ المسلمين هاجروا إلى الحبشة ليحتموا بالمسيحيين هناك ، وهذا خلاف الواقع فالمسيحيون لم يقتصر وجودهم - آنذاك - في الحبشة فقط بل كانوا موجودين في مصر والشام وغيرها ، ولكن سبب اختيار الرسول صلى الله

عليه وسلم للحبشة لأنّ بها ملكًا لا يظلم عنده أحد ، كما أنّه لم يشر إلى ملاحقة قريش للمسلمين هناك.، بينما توماس ذكر عدد المسلمين المهاجرين صحيحًا، وأشار إلى ملاحقة قريش للمسلمين هناك وإن كان شكك في ذلك ، وذكر بالتفصيل رد المسلمين على ما وجه إليهم من أسئلة عن دينهم ، واقتناع النجاشي بذلك ورفضه تسليمهم لقريش.

وعندما نطالع ما كتبه مرجليوث عن مقاومة قريش للإسلام نجده يتحدث حديثًا مقتضبًا مكتفيًا بذكر أسباب مقاومة قريش للإسلام من وجهة نظره فيقول: "يبدو أن مقاومة أهل مكة لم تكن نتيجة لمحافظةهم على التقاليد أو حتى الكفر الديني بالرغم من أنّهم كانوا يسخرون من عقيدة البعث عند محمد ، بقدر ما كان لأسباب سياسية واقتصادية ، فقد كانوا يخشون من تأثير دعوته على رخائهم الاقتصادي ، وخصوصًا أنّ دعوته إلى التوحيد الخالص قد تضر بالقيمة الاقتصادية للمقدسات ، هذا بالإضافة إلى أنّهم أدركوا قبل محمد أنّ قبولهم لما يدعوا إليه سيوجد نوعًا قويًا من السلطة السياسية في مجتمعهم المبني على النظام الأديقارشي "حكم الأقلية"¹.

أما مونتجمري وات فهو يقلل من شأن المعارضة القرشية واضطهاد قريش للمسلمين وتعذيبهم فنجده يحصر المعارضة القرشية في الآتي:

1- الطعن اللفظي بالأشخاص المتنفذين.

¹- Gibb: Mohammedanism p 26 Oxford University 1969 and Second Edition p

2- الضغط الاقتصادي على من دونهم.

3- الضرب الجسدي للذين لا أهمية لهم من العبيد أو ممن لا قبائل لهم تحميهم مثل الخباب بن الأرت.

ويصف وات الفتنة التي لحقت بالمسلمين بأنها ليست فتنة قاسية ، وأن الاضطهاد كان خفيفاً، ومن الممكن أن تكون المبالغة في الاضطهاد قد نشأت من محاولة نفي تهمة الارتداد عن الدين عن شخص من الأشخاص ، ويرجع ذلك إلى الروايات الواردة في سيرة ابن هشام والطبري وابن سعد¹.

ويرى وات أن مظاهر المعارضة والاضطهاد لم تتعد شتم محمد صلى الله عليه وسلم وتعرضه لإهانات بسيطة كتجمع أوساخ جيرانه أمام بيته، ولم تتعد المقاطعة الاقتصادية كحالة أبي بكر الذي انخفض رأس ماله من أربعين ألف درهم إلى خمسة آلاف درهم.

ولعل التعذيب الجسدي لم يتعد إلحاق الأذى ببعض العبيد كبلال ، وعامر بن فهيرة ، وخباب بن الأرت الذي رفض العاص بن وائل أن يسدد الدين المستحق عليه له.

وهناك ضغوط أخرى أهمها ما يقوم به الآباء والأعمام والأخوة من ضغوط معنوية ومادية على عائلاتهم أو قبائلهم الذين يعتقدون الإسلام²، ويرجع وات ذلك إلى الوثائق التي لديه والتي ذكرها ابن إسحاق وابن سعد.

1 - محمد في مكة . ص 190 . 191.

2 - المصدر السابق . ص 191.

هذا ويرجع تقليل وات من شأن المعارضة القرشية واضطهادها للمسلمين تمهيداً لقوله بأنه لم توجد مبررات قوية لهجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم هاجر إلى المدينة، لأنه كان يتقرب مستقبلاً أفضل في المدينة ناسباً ذلك إلى ابن إسحاق¹.

وعندما يتحدث وات عن الهجرة إلى الحبشة يسرد رواية ابن هشام ثم يحلل هذه الرواية وفق ما كتبه المؤرخون الغربيون ولا سيما "كايتاني" الذي اعتمد على كثير من تحليلاته بهذا الصدد.

فهو يستبعد قيام المسلمين بهجرتين إلى الحبشة ؛ إذ يحصرها في هجرة واحدة مستنداً على أنّ رواية ابن هشام والطبري لم تذكر صراحة وجود هجرتين².

ثم يناقش أسباب الهجرة إلى الحبشة وفق كتابات العلماء الغربيين ، وهي الهجرة بسبب خوف الرسول صلى الله عليه وسلم على المسلمين من الارتداد عن الإسلام ، لأنهم إذا ظلوا في مكة معرضين للضغط العائلي ، فإنهم يتعرضون في نفس الوقت إلى الارتداد عن عقيدتهم الجديدة³.

ولكن وات يستبعد هذا الاستنتاج ويبدأ في وضع استنتاجاته وافتراضاته ، فهو يرى قد "يكون جزءاً من مخطط بارع وضعه محمد ، أو

¹ - المصدر السابق . ص 235.

² - المصدر السابق. ص 179.

³ - المصدر السابق. ص 184.

كان يأمل بمساعدة حربية تأتي من الأحباش ، كما أمل جده بالاستفادة من مساعدة حربية على يد أبرهة¹، أو أنّ محمدًا كان يريد اتخاذ الحبشة قاعدة للوثوب على تجارة مكة، كما اتخذ المدينة فيما بعد، أو أنّه كان يرى فتح طريق تجارى مزدوج يسير من الجنوب نحو بيزنطة بعيدًا عن سلطة دبلوماسية مكة².

ولكن وات يستبعد هذه الافتراضات لأنها لا تفسر له سر بقاء المسلمين في الحبشة طويلاً³.

ويرى وات أنّ أسباب بقاء المسلمين في الحبشة سنين طويلة إلى أسباب خاصة بهم وهو تفادي الرسول صلى الله عليه وسلم الانقسام القوي في الرأي ، وأنّ أبا بكر رافض منذ البداية سبب الهجرة⁴، العائد إلى الاضطهاد والمشقات لأنّ معظم هؤلاء المهاجرين ينتمون إلى قبائل قوية تستطيع حمايتهم ودفع الأذى عنهم؛ إذ يرجع وات هجرة عثمان بن مظعون بأنّه كان زعيمًا لجماعة منافسة للجماعة التي كان يقودها أبي بكر، وكذلك هجرة خالد بن سعيد (من عبد شمس) إلى الحبشة ورجوعه قبل فتح خيبر يرجعه أيضًا إلى بعض العداء لأبي بكر والتي ظهرت بعد وفاة محمد وكذلك عبيد الله بن جحش⁵.

¹ - كما مر بنا فإن وات افترض أنّ عبد المطلب طلب العون من أبرهة ، وأنّ أبرهة جاء بحملته إلى مكة بناءً على طلب عبد المطلب ، ويلاحظ أنّ وات اعتبر افتراضه صحيحًا ، وبنى عليه افتراض آخر.

² - محمد في مكة. ص 185.

³ - المصدر السابق. ص 186.

⁴ - المصدر السابق . ص 188.

⁵ - المصدر السابق . ص 188.

وهكذا نجد وات أوجد معارضين لسياسة أبي بكر قبل أن يتولى الخلافة.

ويصل وات في النهاية إلى أسباب الهجرة إلى الحبشة بقوله " وربما كانت الإشارة إلى محمد هو الذي اتخذ هذه المبادرة محاولة لإخفاء دوافع شريرة بين الذين تركوه في مكة وليس من الضروري مع ذلك تفسير المعطيات بهذا المعنى ، فلقد رأى محمد بسرعة ظهور انقسام فعمل على اجتثاث جذوره ، فأشار بالسفر إلى الحبشة لتأييد مخطط للمحافظة على مصالح الإسلام.

وهو مخطط لا نزال نجهل طبيعته الحقيقية لأن نجاحه كان ضئيلاً في تحقيق أهدافه الظاهرة ، ويدل الصلح السريع نسبياً بين عثمان والعائدين إلى مكة قبل الهجرة إلى المدينة على أنه لم يحدث قط انقطاع تام بينهم وبين محمد ، فقد انتهوا بقبول سلطة محمد ومكانة أبي بكر ، فحاربوا شجاعة المسلمين في بدر¹.

هذا ومما تجدر الإشارة إليه فإن وات شكك في تاريخ حصول الهجرة إلى الحبشة ، وأكد أنها حصلت بعد تلاوة ما سماه بالآيات الإبلسية ونسخها، كما نجده يعرض آراء ابن إسحاق حول القائمتين التي تضم المهاجرين إلى الحبشة بطريقة يشكك فيهما مؤكداً أنه لا توجد سوى هجرة واحدة للحبشة.

¹ - المصدر السابق. ص. 189.

ويتعرض وات بالتفصيل لمقاطعة قريش لبني هاشم وعبد المطلب ، ثم يقول "وحرّم على أي شخص التعامل معهما أو الزواج منهما ، واستمرت هذه المقاطعة أكثر من سنتين بشدة متناهية نوعًا ما ، لأنّ كثيرًا من أفراد القبائل القائمة بالمقاطعة كانت تربطهم روابط الزواج بهاشم ، وإذا استطاعت هاشم أن تستمر في إرسال قوافلها إلى سوريا ، ذلك لأنّها لم تكن سيئة الحال جدًّا¹ .

ثم يتحدث عن إنهاء المقاطعة ، فيقول "ويرجع الفضل في إنهاء المقاطعة حسب رواية ابن إسحاق إلى هشام بن عمر (من عامر) يؤيده زهير بن أبي أمية ، (من مخزوم) والمطعم بن عدي (من نوفل) وأبي البختر وزمعة بن الأسود وغيرهم² .

ويتحدث وات عن رواية ابن إسحاق والطبري عن محاولة بعض الزعماء المكيين حمل محمد على الموافقة على تسوية ، وذلك بعد المقاطعة ويروي الطبري روايتين للقصة ، كما يروي ابن إسحاق رواية ثالثة ، ويشكك وات في رواية الطبري قائلاً "ويزعمون أنّ الرواية الثانية للطبري مأخوذة عن ابن إسحاق ، ولكنها لا توجد في رواية ابن هشام³ ، ويرى وات أنّ هذه التسوية كانت قبل انتهاء المقاطعة ، ويرجعها إلى أنّ الرجال الأربعة الذين عرضوا على محمد التسوية لم يكونوا على اتفاق تام حول سياسة المقاطعة ، وهم الوليد بن المغيرة "مخزوم" والعاصي بن الوليد "سهم"

1 - المصدر السابق . ص 195 .

2 - المصدر السابق . ص 195 .

3 - المصدر السابق . ص 197 .

والأسود بن الكلبي "أسد" ، وأمّية بن خلف "جمح" ، وهو يشك أيضاً في هذه التسوية ؛ إذ يقول ولو بما حدث ما يلي:

التقى بمحمد أربعة رجال عرضوا عليه الأموال والنفوذ إذا ما كف عن تسفيه أصنامهم ، وأنّهم مستعدون للاشتراك في عبادة الله إذا ما اعترف هو بأصنامهم¹.

ثم يعود وات ويؤكد أنّ اضطهاد محمد صلى الله عليه وسلم لم يكن شديداً ، ولم يرتكب فيه أي عمل منافٍ للعادات مستدلاً بذلك بشهادة القرآن ، كما لاحظ كائتاني بأنّ إشارات القرآن إلى معارضي محمد تتعلق بانتقاداتهم اللفظية لرسالته وشخصه².

ويتعرض وات للنقد اللفظي للقرآن الكريم مطبقاً المنهج النقدي الذي طبقه الغربيون على التوراة والإنجيل.

ويقول : "إنّ سبب معارضة قريش للإسلام أنّ الآيات المكية كانت تقوم على نقد فكرة البعث ، وأنّ المكيين رأوا في بعث الجسد نوعاً من السحر ، أي نوعاً من الخداع وتكمن هذه الفكرة وراء كل الإشارات لعمليات السحر في القرآن ، وإن كان من الممكن أن تكون بعض الإشارات إلى الساحر تتعلق بعملية الوحي ، ولا يتحدث القرآن عن البعث حديثاً مجرداً ، بل كحادث مرتبط بالحساب الأخير وبالجزاء أو العقاب الأبديين ، ويقول القرآن بوضوح إنّهم يرفضون هذه العقيدة بأكملها ، وإن كانت الإشارات لها

1 - المصدر السابق . ص 197.

2 - المصدر السابق . ص 198.

موجزة ، وهناك سبب آخر للمعارضة هو ما أحتوى عليه القرآن من وحدانية الله ، ومهاجمة الأصنام ، فهم لا يريدون اتباع محمد بالرغم مما يمكنه أن يعرض عليهم من أجل حياة أفضل ، ويتعلقون بعبادات أجدادهم كتبرير عام لموقفهم المحافظ¹.

ويتعرض وات إلى النقد اللفظي لنبوة محمد ، ويزعم أنه قد تملك محمد منذ وقت مبكر عقيدة أنّ الكلمات التي تصل إليه هي وحي من الله، ثم يزعم وات أنّ بعض مقاطع القرآن الأولى تصور لنا جهود المعارضين لتثبيط همة محمد بإدخال تفسيرات أخرى لتجارب غير التفسير القائل بأنها تأتيهم من الله².

هذا ويحلل وات معارضة قريش ، ويرى هذا بالاستناد إلى الروايات والوثائق الإسلامية التي يعتبرها صحيحة ، فإن أشهر المعارضين كان أبا جهل المخزومي ، وربما كان الرجل الذي احتل المكان الأول في مكة قبل أبي جهل هو الوليد بن المغيرة ، ولكن معارضته لم تكن بتلك الشدة التي كانت عليها معارضة أبي جهل³.

ويعرض وات أسباب المعارضة القرشية من وجهة نظره ويرى أنّ خوف قريش من اعتناق أهل مكة للإسلام سيؤدي إلى انقطاع البدو عن

1 - المصدر السابق . ص 198 . 202.

2 - المصدر السابق . ص 203.

3 - المصدر السابق . ص 213.

زيارة مكة، مما يضر باقتصاد قريش ليس سببًا مقنعًا ، ويستبعد معارضة قريش لأسباب اقتصادية¹.

ويقرر أنّ السبب الرئيسي لهذه المعارضة على حد قوله أنّه لو نجح الرسول صلى الله عليه وسلم في مشروعها الديني فسيكون بلا شك رئيسًا سياسيًا لبلاده ، وهو أمر حاولت قريش إبعاده عن نظامها القبلي ولعل واقعة عثمان بن الحويرث ليست بعيدة عن الأذهان².

ويرى وات أنّ أهل مكة كانوا بعيدى النظر حينما أقروا بالتناقض بين تعاليم القرآن الأخلاقية ورأس المال التجاري الذي كان عماد حياتهم ، ولهذا لم يظهر النهي عن الربا حتى وقت طويل بعد الهجرة بينما ظهر منذ البداية لموقفهم الشخصي من الثروة³.

ولم يستبعد وات أيضًا العامل الديني ومهاجمة الرسول صلى الله عليه وسلم عبادة الأصنام⁴.

هذا ويردد وات مثل الفريد جيوم مزاعم قريش عن الرسول صلى الله عليه وسلم بأنّه مجنون أو تملكه الجن ، أو أنّه كاهن ، أو ساحر ، أو شاعر⁵.

1 - المصدر السابق . ص 213.

2 - المصدر السابق . ص 214.

3 - المصدر السابق . ص 215.

4 - المصدر السابق . ص 203 . 204.

5 - المصدر السابق . ص 205.

وأنّ الوحي من إبداع إنساني محض ، فهو إمّا من صنع محمد ، أو من صنع مساعد له¹، وأنّ محمدًا لم يكن أهلاً للوحي ، ولم يصحب الوحي آيات يراها الجميع².

ويشكك وات في عرض زعماء مكة على محمد صلى الله عليه وسلم المال والجاه ، كما نجد وات يزعم أنّ محمدًا صلى الله عليه وسلم قبل نزول الوحي كان قد سمع من بعض الأشخاص قسمًا من القصص التي يذكرها القرآن فعندئذ يترك المؤرخ الموضوع إلى الفقهاء ليقوموا بنوع من التوفيق³.

مما سبق يمكن تحديد موقف وات من الدعوة جهراً ، ومعارضة قریش في الآتى:

1- يزعم وات أنّ الاضطهاد الذي تعرض له الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين كان خفيفاً ، وأنّ التعذيب الجسدي اقتصر على العبيد والذين ليس لهم قبائل تحميهم ، ويؤكد وات هذا في أكثر من موضع.

2- ادعى وات أنّ هناك انقسامًا في صفوف المسلمين حول ما اسماه زعماء للجماعات منهم ، وأنّ سبب هجرة المسلمين للحبشة هو تقادي

1 - المصدر السابق . ص 205.

2 - المصدر السابق . ص 205.

3 - المصدر السابق . ص 205.

الرسول صلى الله عليه وسلم حدوث انقسام قبلى بين المسلمين ، وأن المهاجرين إلى الحبشة كانوا معارضين لسياسة أبي بكر .

3- بيني وات اختيار الرسول صلى الله عليه وسلم للحبشة لتكون دار هجرة للمسلمين على افتراضات هو افتراضها ، ويرى أن الهجرة للحبشة كانت هجرة واحدة ، ويشكك في الهجرة الثانية.

4- يقلل وات من شأن مقاطعة قريش لبني هاشم وحصارهم في شعب أبي طالب ، ويحصرها كثير من المستشرقين في عدم التزواج بينهم وبين بني هاشم وفي عدم التعامل معهم.

5- يشكك وات في عروض قريش على الرسول صلى الله عليه وسلم المال والجاه مقابل تركه الدعوة إلى الإسلام ، ويرى أن عرض قريش الأخير كان قبل انتهاء المقاطعة.

6- يؤكد وات في أكثر من موضع أن الرسول صلى الله عليه وسلم يعتقد أن الكلمات التي تصل إليه هو وحي من الله.

7- يحلل وات أسباب معارضة قريش للإسلام إلى أسباب سياسية ثم دينية مستبعدًا العوامل الاقتصادية.

8- يفصل وات في إيراد ما كان يردده كفار قريش حول الرسول صلى الله عليه وسلم مثل الفريد جيوم دون أن يوضح القرآن الكريم والرسول صلى الله عليه وسلم على تلك المزاعم والافتراءات.

9- يزعم وات أنه لم تكن هناك معجزات للرسول صلى الله عليه وسلم تجعل كفار قريش يؤمنون بأنه رسول من عند الله.

تنتقل الآن إلى برنارد لويس فهو يختلف تمامًا مع وات في أسباب المعارضة القرشية ، ففي الوقت الذي استبعد وات العوامل الاقتصادية نجد برنارد لويس يرى "أن معارضة أهل مكة كانت في أصلها اقتصادية إلى حد كبير، وأنها كانت قائمة على اعتبارين أولهما وأهمها: الخوف من أن يؤدي إبطال الدين القديم ، وإبطال مقام حرم مكة إلى حرمانها من مكانتها الفريدة المربحة كمركز للجمع وقضاء المصالح"¹.

وثانيهما: المعارضة في دعاوى شخص لم يكن هو نفسه من أحد بيوت السادة"²، ثم نجده لا يغفل العامل السياسي والذي اعتبره وات العامل الأساسي للمقاومة ، يقول الفريد جيوم: "وإذا كانت المعارضة اقتصادية في أسبابها إلا أنها أبرزت نفسها سياسيًا أكثر منها دينيًا، وانتهت أخيرًا بأن دفعت محمد نفسه إلى العمل السياسي"³.

ويزعم برنارد لويس أن الأخبار الإسلامية من الاضطهاد مبالغ فيها ، ويتفق مع وات في أن الاضطهاد كان أقل عنفًا مما توحى به الأخبار، إلا أنه على الرغم من ذلك من الأهمية ؛ بحيث أدى إلى هجرة عدد المؤمنين إلى الحبشة" ثم يتحدث عن أثر أبي بكر الصديق رضي الله عنهما ، على الدعوة ، فيقول: "على الرغم من الاضطهاد معنى الإسلام ،

1 - هذا العامل الذي استبعده وات.

2 - العرب في التاريخ. ص 51.

3 - المصدر السابق. ص 51.

كما كانت تسمى الاستجابة للدين الجديد ، يكسب أتباعًا جددًا ، ومن أبرزهم مكانة أبو بكر وعمرو من بطن بني عدي ، وكان لسرعة عمرو في الفصل في الأمور والعمل فضل كبير على الجماعة الناقلة ، ومنهم عثمان من بني أمية إحدى الأسر الحاكمة¹.

أمّا بودلي فيبدأ حديثه عن بدء المعارضة القرشية عندما جهر الرسول صلى الله عليه وسلم بالدعوة بإحدى أقاويل فرقة الأمامية الشيعية التي تقول بإمامة علي رضي الله عنه ، بعد النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنّ الرسول قد صرح بإمامته، ونجد بودلي يروي هذه الحادثة²، فيقول : " لما أمر جبريل محمدًا أن يرشد عشيرته الأقربين جمع الناس عند الصفا ودعاهم إلى الإسلام وقاطعه أبو لهب ، فلما أصر على الاستمرار راح أبو لهب يقذفه بالحجارة ، ولم يكن في استطاعته أن يتحمل أكثر مما احتمل ، ففارقه طبعه الكريم فلعن عمه وزوجته في صوت عال واضح النبرات ، وأضاف إلى اللعن أنّ أم جميل ستحمل حطب الجحيم ، ووصفها وصفًا مروغًا ، وجاءت هذه اللعنة فيما بعد في سورة 101³ من القرآن "تبت يدا أبي لهب .. الخ"⁴.

1 - المصدر السابق . ص 52.

2 - لم أجد أثرًا في سيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد ، وقد أوردها الطبري في مسنده ، عبد الغفار بن القاسم أبو حريم ، وهو متروك كذاب شيعي ، وسأحقق في هذه الرواية عند الرد على شبهات المستشرقين في نهاية هذا الفصل.

3 - الصواب سورة المسد رقمها 111.

4 - بودلي . "الرسول . حياة محمد" ، ص 69 ، 70.

ثم يتحدث عن محاولة الرسول صلى الله عليه وسلم جمع بني هاشم لدعوتهم إلى الإسلام ، وأنه خطب فيهم خطبة قصيرة ، ولم يجد تجاوبًا منهم ، فقال محمد في يأس : (فأيكم يؤازرنى على هذا الأمر ، وأن يكون أخى ووصيى وخليفتى فيكم؟) فلم ينطق أحد ، وازداد الصمت وحشة فهب على ، وقال وهو ينظر في تحد إلى رؤساء القوم : " يا رسول الله عونك أنا حرب على من حاربت ، فلف محمد ذراعه حول ابن عمه وقال: "فأنت أخى ووزيرى ووصيى ووارثى وخليفتى من بعدى"¹.

ثم يتحدث بودلى عن الإيذاء الذي تعرض له المسلمون ، ويذكر عمرو بن العاص رضى الله عنه أنه كان بين أعدائه الحانقين ثم صار فيما بعد أكثر أصحابه إيمانًا ، يشكك في نسبه مثل أميل درمنغم ، ويزعم أن عمرو بن العاص بن غانية مكية رائعة الحسن كان يأتيها أشرف مكة ،ومن المحتمل أن يكون أبوه واحد من الأشراف حتى أبا سفيان².

ويستطرد قائلاً "بأن قطع البعض في العداوة شوطًا بعيدًا ، فلم يكتفوا باضطهاده ، بل شاءوا قتله، وثبت كثير من المؤمنين للتعذيب"³.

وهنا نجده يختلف مع وات ولويس في التقليل من شأن تعذيب المسلمين ، ويشير بودلى أن عثمان بن عفان قد هدد بالقتل ، وأن تطور الاضطهاد إلى إهدار الدم دفع الرسول صلى الله عليه وسلم إلى جمع

¹ - المصدر السابق . ص 70 . 72 ، هذا ويلاحظ اختلاف نص هذه الرواية عن رواية الطبري علمًا بأن بودلى لم يذكر مصادره ومصدر هذه الرواية.

² - المصدر السابق . ص 73 .

³ - المصدر السابق . ص 74 .

مائتين من اتباعه¹، وأمرهم بالرحيل إلى الحبشة تحت إمرة عثمان عام 615م².

ثم يتحدث بودلي عن إسلام حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما³، ويخالف بودلي جميع المستشرقين ويقر بهجرة ثانية للحبشة فيقول بعد إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، بقيت عداوة قريش وزادها ضرما وقوع حادث جديد فقد هاجر فوج آخر إلى الحبشة وراح القوم يفكرون في أن محمد يعمل على دفع الحبشة إلى غزة ومكة⁴.

يبين نتائج الهجرة الثانية للحبشة حصار بني هاشم في شعب أبي طالب ، وهنا أيضًا ينفرد بودلي بقوله : " إنَّ المسلمين قضوا به مدة طويلة يقاسون العذاب فقد حاصرهم القرشيين وحاولوا القضاء عليهم جوعًا"⁵.

ويتحدث بودلي عن إنهاء المقاطعة وهو الوحيد من بين المستشرقين الذين هم موضع هذه الدراسة بأنَّ القرصة أكلت صحيفة المقاطعة التي علقت في جوف الكعبة ، وكان هذا من أسباب إنهاء المقاطعة⁶.

1 - يلاحظ هنا مبالغة في العدد.

2 - المصدر السابق . ص 75.

3 - المصدر السابق. ص 76 . 79.

4 - المصدر السابق . ص 79.

5 - المصدر السابق . ص 79.

6 - المصدر السابق. ص 79.

وبعد هذا الموجز لما ذكره بودلي عن مقاومة قريش للدعوة جهراً نجد أنه اختلف عن سبقه من المستشرقين في الآتي:

- 1- إقراره بالهجرة الثانية للحبشة وهنا يتفق مع وليم موير.
- 2- أنّ مقاطعة قريش لبني هاشم امتد إلى تجويع المحاصرين.
- 3- أنّ القرضة أكلت صحيفة المقاطعة المعلقة في جوف الكعبة.
- 4- إيراده لرواية يرددها الإمامية من الشيعة عن أحقية علي رضي الله عنه في الإمامة بأنّ الرسول صلى الله عليه وسلم قال لعلي بن أبي طالب أنت أخي ووزير ووصيي وخليفتي من بعدي ، وهي رواية أوردها الطبري مع اختلاف في النص وأحد رواها شيعي كذاب متروك.
- 5- تشكيكه في نسب سيدنا عمرو بن العاص رضي الله عنه.

موقف المدرسة الاستشراقية الإنجليزية من ما يسمى بقصة الغرانيق

يزعم المستشرقون أنه لما احتدم الصراع بين النبي وأصحابه من جهة وبين قريش وزعمائها من جهة أخرى ، بدأ الرسول صلى الله عليه وسلم في محاولات توفيقية بينه وبين معارضة قريش محاولين إسباغ الصفة البشرية على الدعوة المحمدية مستخدمين ما أسموه بقصة الآيات الشيطانية كدليل على صحة إدعائهم.

وهذه القصة من الشبهات الخطيرة والمطاعن الرئيسية التي ما زال المستشرقون وأعداء الإسلام يوجهونها ضد الإسلام ونبِيِّه ، وما قضية الآيات الشيطانية لسليمان رشدي إلا امتداد لها¹.

وهناك من مستشرقى المدرسة الإنجليزية من هم موضع هذه الدراسة قد خاض فيها مثل وليم موير ومرجليوث والفريد جيوم ومونتجمري وبودلي. يورد موير رواية الطبري²، حول هذه الواقعة وملخصها أنّ زعماء قريش كانوا مجتمعين بجوار الكعبة يناقشون قضايا مدينتهم ، قدم محمد وجلس في نادي من تلك الأندية وتمنى يوماً ألا يأتيه من الله شيء فينفروا منه ، فأنزل الله عليه ﴿ والنجم إذا هوى . ما ضل صاحبكم وما غوى ﴾³ فقرأها حتى إذا بلغ ﴿أفرايتم اللات والعزى . ومناة الثالثة الأخرى﴾⁴ ألقى عليه الشيطان كلمتين: تلك الغرائق العلى وإنّ شفاعتهن لترتجى" فتكلم بها ثم مضى فقرأ السورة كلها ، فسجد في آخر السورة ، وسجد القوم جميعاً معه ، ورفع الوليد بن المغيرة تراباً إلى جبهته، فسجد عليه وكان شيخاً كبيراً لا يقدر على السجود فردوا بما تكلم به وقالوا: (قد عرفنا أنّ الله يحيي ويميت وهو الذي يخلق ويرق ، ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده ؛ إذ جعلت لها نصيباً ، فنحن معك ، فلما أمسى آتاه جبريل وعرض عليه السورة ، فلما بلغ الكلمتين اللتين ألقى الشيطان عليه قال: "ما جئتك بهاتين ، فقال

1 - د. الحاج . الظاهرة الاستشراقية ، 3 / 139 . 140 .

2 - في إسناده أبو عشيرة والإسناد ضعيف .

3 - النجم : 1-2 .

4 - النجم : 19-20 .

رسول الله افتريت على الله ، وقلت على الله ما لم يقل، فأوحى الله إليه: ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ.﴾¹ . فلما سمع من كان من المهاجرين من أهل الحبشة أن أهل مكة قد أسلموا كلهم رجعوا إلى عشائريهم ، وقالوا هم أحب إلينا، فوجدوا القوم قد ارتكثوا حين نسخ الله ما ألقى الشيطان².

وعندما سمعت قريش أن الله قد نسخ ما كان الشيطان ألقى على لسان نبيه ، قالت قريش: "ندم محمد على ما كان من منزلة آلهتم عند الله فغير ذلك وجاء بغيره ، وكان ذلك الحرفان اللذان ألقى الشيطان على لسان رسول الله قد وقع في فم كل مشرك ، فزادوا شرًا إلى ما كانوا عليه"³.

ويعلق موير على هذه الواقعة قائلاً : " إنّه من الواضح أنّ هذه الهفوة لم تكن حادثة مفاجأة ، وليست تنازلاً تم الحصول عليه بصورة مفاجأة ، أو ارتكبت بناء على زلة لسان ، ثم سحبت مباشرة. إنّ عداوة قوم محمد قد ضغطت بقوة على تفكيره.. وأنّ المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة لم يكن قد مضى على هجرتهم إليها غير ثلاثة أشهر، أجارهم النجاشي في أثنائها وأحسن جوارهم، فلو لم يكن قد ترمى إليهم خبر الصلح بين محمد وقريش لما دفعهم دافع إلى العودة حرصاً على الاتصال

1 - الإسراء : 73.

2 - Muir , Life of Mohammed ترجمة د. ساسي الحاج : الظاهرة الاستشراقية ، 3 / 141.

3 - انظر د. الحاج. الظاهرة الاستشراقية . 3 / 141. Ibid p 85.

بأهلهم وعشائريهم ، وقد بقيت هذه التسوية عدة أيام حتى ترامت إلى أسمع المهاجرين بالحبشة ووثقوا بنتائجها¹.

وبعد تحليل طويل لأوضاع الأصنام بمكة وعلاقتها بالكعبة ، وكيفية اعتبار قريش لهذه الأصنام من أنّها رابطة وزلفى تقربهم إلى الله ، وكيف أنّ الشعائر المطبقة على الأصنام تماثل تلك المطبقة على الكعبة في موسم الحج، يصل موير إلى نتيجة مفادها أنّ محمداً قد تبرأ من التسوية التي أبرمها مع زعماء قريش ، وأنّ الشيطان قد ضلله ، وأنّ كلمات التسوية ليست جزءاً من الوحي الذي تلقاه عن الله .

وهكذا صحح هذه الهفوة التي أصبحت بدورها في طي النسيان ونسخت هذه الآيات الشيطانية ، وحلت محلها آيات أخرى تتدد بالأصنام كالكالات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، وما هي إلا أسماء سموها هم وآبائهم ما أنزل الله بها من سلطان ، كما أنّ إنكار التسوية نجم عنها زيادة اضطهاد المسلمين ، ومن هنا كان رجوع المسلمين وهجرتهم من جديد إلى الحبشة².

وما قاله مرجليوث³ لا يختلف عما قاله وليم موير، فلا أرى مبرراً لتكرار ما كتبه موير وكذلك الفريد جيوم إلا أنّه علق بقوله: (وقد حاول نقاد الحديث أن يسيئوا إلى سمعة رواية هذه القصة ، ولكن من الصعب أن نفترض دافعاً وراء اختلافها إلا أن يكون ذلك رغبة في الإساءة إلى وإلى

¹ - انظر المرجع السابق . 3 / 141 p 86. ibid

² - د. الحاج . الظاهرة الاستشراقية . 3 / 141. Ibid

³ - Margoliouth , Mohammed and The Rise of Islam P 170 – 173

القرآن ، بل وإلى الإسلام نفسه ، وأنّ هذه الحادثة تعتبر أقوى دليل محكم على أمانة محمد" ثم يتساءل مثيراً الشكوك حول القرآن عما إذا كانت كلمات الرسول التي أوحيت إليه في غير هذه المناسبة قد دخلها الخطأ؟ ثم يفترى كذباً على القرآن وقال: "إلا أنّ القرآن يقرر أنّ ذلك كان شأن الأنبياء في جميع العصور ، وإن كان هناك أنبياء لم يعترفوا بخطئهم بصراحة وبطريق مباشر¹ ، ويعود الفريد جيوم إلى الحديث عن قصة الغرائيق في الفصل التاسع عن حديثه عن الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم مؤكداً على صحة قصة الغرائيق ، فيقول: "وحين نظر في الأدلة الظاهرة فإنّ هناك تبريراً كافياً للاعتقاد بأنّ القرآن كان عرضة للتغير في المراحل الأولى ، والواقع أنّ العديد من الآيات التي تغيرت ، وهي ليست تافهة في أهميتها ، ويؤيد هذا الفرض ، فهناك أولاً الآية المعروفة ﴿أفرايتم اللات والعزى *ومناة الثالثة الأخرى﴾² التي تلتها هذه الكلمات "تلك الغرائيق العلى وإنّ شفاعتهن لترتجى" فأقدم المؤرخون لحياة الرسول على القول إنّ شيطان قد وسوس للرسول بهذه الكلمات ، وأنّها أحدثت سروراً كبيراً عند الوثنيين من أهل مكة ، بينما أثارت ثائرة المسلمين ، وقد كان لهذه الكلمات أهمية خاصة ؛ إذ كانت جزءاً من ترتيل قريش في طوافهم حول الكعبة ، ولقد أدخل القرآن عليها تعديلاً بسيطاً وحذف جزءاً عاماً فبدل من قوله اللات .. الخ ذكر "أفرايتم اللات .. الخ ..بينما أهملت الآية الخاصة بالعذارى تماماً ، وبعدها جاء جبريل للنبي ، وأنكر أنّه أنزل عليه هذه الكلمات" ، ثم يستطرد قائلاً :

¹ - جيوم . الإسلام . ص 36 - 35 - 34 Islam p

² - النجم : 19-20.

" إنَّ المفسر هنا في مآزق فكل ما نستطيع عمله إنَّ الحكاية كلهما من اختلاق الكفار والمنافقين ، ولكن النيل من المدعي كلما يفيد الدفاع"¹.

ويتحدث الفريد جيوم عن رواية هذه القصة ، فيقول: " إنَّ ابن إسحاق راوي القصة هو الرجل الذي يعتمد عليه الجميع في التفاصيل الخاصة بحياة النبي ، والواقدي راوية معتمد للأحاديث من مصادرها الأولى ، ولو أنَّ شهرته ضعيفة عند من يكرهون صراحة وقلّة احتفاله بأفكار من سبقوه بقرن أو ما قاربوه ، بينما الطبري ثالث من يروي القصة مؤرخ عادل جداً دون ما سمعه وقرأه ، وليس ثمة شيء بعد هذه المصادر ، وليس من سبب وجيه يدعو إلى إنكار أنَّ هؤلاء الرجال مسلمون صحيح إسلامهم ، وعلى هذا فلا نستطيع إن كانوا فخورين ، لأنَّ الرسول كان يعتبر عدوًّا لدودًا للشيطان لدرجة أنَّ الشيطان تدخل بنفسه ليقاوم رسالته ، فلماذا إذن يخفون حادثة يعود فضلها إليه ، لأنَّ مجهود الشيطان قد باء بالفشل؟" ، ثم يقول مرجليوث: "الإيمان بأنَّ محمدًا قد قاد بتلك الكلمات في منتصف سورة النجم إذا كان للدليل التاريخي أهمية ما ، ولا يمكن الجزم بأنَّها كانت موجودة في نسخة مكتوبة من القرآن"².

ويستطرد قائلاً: "وبهذه الكلمات تمكن مؤرخ سيرة النبي الربط بين هذا وبين سورة الحج ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكُمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ۗ

1 - المصدر السابق . ص 198.

2 - المصدر السابق . ص 179.

وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١﴾، ومع هذا فإنَّ الله يقول : ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ عَزِيزٍ حَكِيمٍ ﴾^{2،3}.

وعندما نقرأ ما كتبه مونتجمري وات عن ما أسماه بـ "الآيات الإبليسية" نجده قد خالف المنهجية التي ادعاها فلم ينظر في هذه الروايات ، وإنما اكتفى بالضعيف الشاذ منها ، وعوّل عليها لموافقة هوى نفسه ؛ إذ نجده قد أكد على حدوث القصة ، فيقول: "تلاحظ واقعتين نستطيع أن نعتبرهما أكيدتين: أولاً : رتل محمد في وقت من الأوقات الآيات التي أوحى بها الشيطان على أنها جزء من القرآن ، لأنه لا يمكن أن تكون القصة قد اخترعها مسلمون فيما بعد ، أو دسها غير المسلمين ، ثم أعلن محمد فيما بعد أنّ هذه الآيات لا يجب أن تعتبر جزءاً من القرآن ، ويجب استبدالها بآيات تختلف عنها كثيراً في مضمونها ، والروايات الأولى لا تحدد الوقت الذي حدث فيه ذلك ، والأقرب أن يكون ذلك قد وقع بعد بضعة أسابيع أو أشهر"⁴.

ويشير وات إلى إنكار المسلمين لقصة الغرانيق لأنّ الرسول قد أخبر منذ بداية دعوته بالمضمون الكامل لعقيدة الإسلام ، فكان من الصعب عليهم ألا يروا في الآيات الإبليسية خروجاً عن عقيدة الإسلام ، ويعزز وات رأي معظم المستشرقين من أنّ حقيقة التوحيد التي نادى بها الرسول

1 - الحج : 52 .

2 - فصلت : 42 .

3 - المصدر السابق . ص 179 .

4 - محمد في مكة . ص 168 .

صلى الله عليه وسلم في بداية دعوته كان غامضًا ، ولم ير بعد أن قبول هذه المخلوقات الإلهية كان مع هذا التوحيد ، ولا شك أنه يعتبر اللات والعزى ومناة على أنها كائنات سماوية أقل من الله ، كما اعترفت اليهودية والمسيحية بوجود الملائكة ، ولذا فإن الآيات الإبلسية لا تدل على أي تقهقر واع للتوحيد ، بل هي تعبير عن النظرات التي دافع عنها دائمًا محمد.¹

ثم يتساءل وات عن مدى القيمة السياسية لهذه الآيات ، لأن محمدًا يهمله كسب الأنصار في المدينة والطائف وبين القبائل المجاورة وتخفيف تأثير الزعماء القرشيين المعارضين.²

ويجيب وات عن تلك التساؤلات التي طرحها مستندًا إلى رسالة عروة إلى عبد الملك بن مروان والتي أوردتها الطبري كاملة في تاريخه وتفسيره. واستند إليها كائتاني في حولياته ، والتي تفيد أن قريشًا عرضت تسوية سلمية على محمد إذا نكر ألتهم بخير.

ويضيف وات تحليلاً أكد فيه صحة واقعتين حصلتا في هذه الفترة أولهما: أن محمدًا رتل في وقت من الأوقات الآيات التي أوحى بها الشيطان على أنها جزء من القرآن لأنه لا يمكن أن تكون القصة قد اخترعها مسلمون فيما بعد أو دسها غير المسلمين.

1 - المصدر السابق. ص 170.

2 - المصدر السابق . ص 170.

وثانيها: أنّ محمداً أعلن فيما بعد أنّ هذه الآيات لا تعتبر جزءاً من القرآن ،ويجب استبدالها بآيات تختلف عنها كثيراً في مضمونها.

ويرى وات أنّ نسخ الآيات مرتبط أيضاً بفشل هذه التسوية ، وأنه لا شيء يسمح لنا بالاعتقاد أنّ محمداً قد استسلم لخداع المكيين ، ولكنه انتهى به الأمر إلى إدراك أنّ الاعتراف ببنات الله "كما كانت تسمى الآلة الثلاث وغيرها" يعنى إنزال الله إلى مستواها وعبادة الله في الكعبة ، لم تكن في الظاهر تختلف عن عبادتها في نخلة والطائف وقديد ، وهذا يعنى أنّ رسول الله لم يكن يختلف كثيراً عن كهانهم ، وأنه لم يكن يرى نفسه مدعوّاً لأن يكون تأثيره أعظم من تأثيرهم ينتج عن ذلك أن الإصلاح الذي عمل له من كل قلبه لن يتحقق¹.

ويستمر وات في تحليلاته وتعليقاته الخاصة به ، ويرى أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم رفض عروض المكيين لسبب ديني حقيقي ، لأنه الاعتراف بألتهتهم يؤدي إلى فشل قضيته والمهمة التي تلقاها من الله ، وأنّ الوحي قد نبهه إلى ذلك ، كما أنّه قد شعر بخطئه بهذا الصدد قبل نزول الوحي².

وينتهي وات بالقول: "ويتفق الرأي القائل بأنّ قطع العلاقات بين محمد والمكيين نتيجة لنسخ الآيات الإبليسية" مع رفض العروض التي

1 - المصدر السابق . ص 172.

2 - المصدر السابق . ص 172.

قدمت إليه" يتفق مع ما جاء في رسالة عروة . مع القول بأنّ القرشيين الموسرين في الطائف هم الذين تزعموا المعارضة الفعالة ضد محمد¹.

والذي نخرج به من طرح وات لهذه القضية أنّ وات لم يكن موضوعيًا في طرحه لهذه القضية، فهو يقول أنّ هناك تسوية بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبين كفار قريش ، وفي الوقت الذي يؤكد على صحة واقعة "ما أسماه بالآيات الإبلية نجاهه عندما يتحدث عن عروض قريش المغرية للرسول صلى الله عليه وسلم بأنهم قدموا إليه الثروة والزواج من غنية ومكانة عالية يتساءل عما إذا كانت هذه القصص قد اخترعت للتعظيم من شأن محمد في هذه الفترة².

وكما مر بنا أنّه شكك في هذه العروض.

وعندما ننتقل إلى بودلي نجده أشار إلى قصة الغرائيق ، ولكنه لم يفصل في الحديث عنها ، واكتفي بقوله عن عروض قريش للرسول صلى الله عليه وسلم " ، وقد يفكرون في تعيينه حارسًا للكعبة ، وإيجاد زوجة غنية له ، ولكنه على الرغم من تلميحه لهم يوماً أنّ اللات والعزى ومناة قد يرجى نفعها من الله إلا أنه قد عاد ونقض ذلك ، فقد فطن إلى الحق الأمر الذي يطع به لا يقبل مساومة ، وأنّه لن يجد مخرجًا سهلاً فقد بدء السير في طريق ، ولن يحيد عنها مهما نزل به من الآلام والأحزان³.

1 - المصدر السابق . ص 173.

2 - المصدر السابق. ص 171.

3 - الرسول . حياة محمد. ص 81.

موقف مستشرقى المدرسة الإنجليزية من السيرة النبوية بعد وفاة السيدة خديجة وأبي طالب

لقد عالج مستشرقو هذه المدرسة السيرة النبوية بعد وفاة السيدة خديجة رضي الله عنها وأبي طالب شيئاً من السرد التاريخي خال من التحليلات والشكوك التي دأبوا عليها في كتاباتهم للسيرة النبوية ، وأكدوا صنوف المعاملة السيئة التي لاقاها الرسول بعد وفاة عمه ، وحلوا الحزن الدفين الذي لحق به بعد وفاة زوجته ، ووصفوا وضعه العام الصعب والدقيق وتعرضوا إلى ذهابه إلى الطائف لمحاولة إيجاد أنصار هناك لدعوته ، وعودته منها دونما نتيجة إيجابية لمصلحته ، وقد شكك الفريد جيوم في صحة الإسناد والإدعاء الذي توجه به الرسول صلى الله عليه وسلم إبان تعرضه لأذى سقيف ، كما أشار إلى دخول الرسول صلى الله عليه وسلم إلى مكة تحت حماية المطعم بن عدي¹.

كما تعرض بعض المستشرقين إلى واقعة التقاءه بالجن إبان عودته ووصف موير هذه الواقعة بأنها ربما كانت حلمًا أو أمرًا نابغًا عن عصبية وخياله لقلقه في هذه الفترة².

أمّا الفريد جيوم فهو يرى أن هذه القصة غير مؤكدة ، ولكنه يقول "من الثابت أنّ القرآن يؤكد أنّ محمدًا كان يدعو هذه المخلوقات إلى الإسلام واستطاع إقناع بعضهم"³.

¹ - جيوم . الإسلام . ص 37 . 38.

² - Muir, Life of Mohammed v 2 p 110. ترجمة د. ساسي الحاج : 3 / 151.

³ - جيوم . الإسلام . ص 38.

أما وات فقد أهمل هذه الواقعة ، وكذلك برنارد لويس وبودلى ، كما أشار بعض المستشرقين إلى محاولة الرسول صلى الله عليه وسلم إفهام قومه بالمكاسب السياسية التي سيحققونها لو انضموا إلى دعوته ، ورفضهم ذلك، الأمر الذي حدى به إلى عرض نفسه على القبائل الأخرى التي رفضت هي الأخرى دعوته خاصة بعد أن رفض عرضاً تقدمت به إحدى القبائل لمساعدته شريطة أن يسلمها الحكم والسلطان من بعده ورفض ذلك العرض.

وبعد فشل مشروع الطائف والقبائل العربية الأخرى اتجه الرسول صلى الله عليه وسلم صوب المدينة ، وبعد المفاوضات المعروفة بينه وبين بعض أهل يثرب ومبايعتهم له ، وتعهدهم بحمايته ورعايته مع أصحابه يأمر أصحابه بالهجرة إلى المدينة ، واتخذ الإجراءات اللازمة لمغادرة مكة¹.

الإسراء والمعراج وموقف المستشرقين منه

ويتعرض "موير" إلى واقعة إسراء الرسول ، وبعد أن يسردها طبقاً للروايات الإسلامية ، ويشير إلى أثارها بين أهل قريش واتباعه يعلق عليها بأنها عبارة عن خيال خاصة أنه وصف السماوات ومن فيها يتسم بطابع الرومانسية ، أمّا الفريد جيوم فهو يعتبرها قصة مختلقة ؛ إذ يبدأ حديثه عن الإسراء والمعراج بقوله "ويكفي مقال واحد لبيان كيف أنّ الأحاديث التي كانت تخلق ، ثم تصبح مقبولة من العالم الإسلامي شيئاً فشيئاً، فهناك آية

¹ - د. الحاج. الظاهرة الاستشراقية . 3 / 152.

مفردة في القرآن هي مفتتح سورة الإسراء تقول : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾¹ ولقد أثير جدل كبير حول معنى هذه الآية ، وتولدت عنها أسطورتان تم الجمع بينهما قسرًا، وتسمى الأولى إسراء والثانية المعراج ، أما في ليلة الإسراء فقد نزل البراق. وهو حيوان عجيب له جناحان نصفه حمار ونصفه بغل ، وكان من عادة الأنبياء الأولين ركوبه ، وأتى إلى محمد فحملة إلى بيت المقدس ، وهناك قابل إبراهيم وموسى وعيسى مع عدد من الأنبياء الآخرين ، وكان في صحبته جبريل ، ثم عاد إلى مكة ، فلما قص ما رآه قوبل باستخفاف ، ورفض بعض اتباعه أن يصدقوا هذه القصة ، ويؤكد بعض رواة الأحاديث الأولى أن هذه القصة تمت في الرؤيا ، وأن محمدًا لم يبرح مكانه في مكة².

ويستطرد قائلاً "وتبعت هذه القصة قصة أخرى عن صعود الرسول إلى السماء فتذكر إحدى الروايات أنه بعد وصول الرسول إلى بيت المقدس وجد سلماً فصعد به رفيقه جبريل إلى باب في الجنة يحرسه أحد الملائكة ، ثم شهد أثناء تجواله مكان جهنم، وكان قد رفع غطاؤها فرأى لهبها المستعر، وهناك غالباً وجه شبه بين فئات الخاطئين ودرجاتهم في هذه القصة وبين ما ذكره دانتي في جحيمه ، وفي السماء الثانية قابل محمد المسيح ويوحنا المعمدان ، وقابل في الثلاثة يوسف الصديق ، وفي الرابعة إدريس ، وفي الخامسة هارون ، وفي السادسة موسى ، وفي السابعة

1 - الإسراء : 1.

2 - الإسلام . ص 108.

إبراهيم ، وفي هذه الرحلة تلقى الرسول الأمر بفرض خمس صلوات في اليوم على تابعيه¹.

ثم يتعرض جيوم إلى الكيفية التي كان بها الإسراء ويردد عدة أقاويل ، ويصل في النهاية إلى تقريره بأن المسجد الأقصى الذي أسرى بالرسول صلى الله عليه وسلم إليه أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم قد ذهب في الليل من المسجد الحرام الموجود في مكان يسمى "الجعرانة"² يبعد عن مكة خمسين كيلو متراً إلى المسجد الأقصى في السنة الثامنة للهجرة ، ويعلق على هذا بأنه التفسير الطبيعي تماماً للآية القرآنية التي يعبر فيها محمد صلى الله عليه وسلم عن شكره لله ؛ إذ مكنه من الحج ليلاً في وقت لم يكن فيه المشركون قد أباحوا له إقامة شعائره ، فكان عليه أن يعقد معهم صلحاً حتى يتمكن من الذهاب إلى الحج في وضح النهار.

ويشير جيوم . من وجهة نظره . إلى أهمية الإسراء والمعراج وقد اسماه بـ "الأسطورة" من الناحية الأدبية أنّها كانت النموذج الذي احتذاه دانتي في مأساته الخالدة، وقد اتخذ الصوفية من هذه القصة رمزاً لصعود الروح من عالم المادة للاتصال بالله عن طريق التصوف³.

هذا موقف الفريد جيوم من الإسراء والمعراج ، أمّا وات ولويس وبودلي وقبلهم جيب وتوماس أرنولد فلم يتعرضوا لهذه الحادثة.

1 - الإسلام . ص 108.

2 - الجعرانة : ما بين الطائف ومكة وهو إلى مكة أقرب، نزله النبي صلى الله عليه وسلم فيه قسم غنائم هوازن عند مرجعه من غزوة حنين ، وأحرم منه صلى الله عليه وسلم وله فيه مسجد .

3 - جيوم . الإسلام . ص 109.

موقف مستشرقى المدرسة الإنجليزية من بيعة العقبة الثانية

فلقد أشار وليم موير إلى بيعة العقبة الثانية طبقاً لرؤية ابن هشام دونما تعليق عليها ، ولكن مونتجمري وات يرفض هذه الواقعة بأدلة سائغة ، ويفترض في نهاية تحليلها أنّ زيارة العباس للعقبة في صحبة محمد هو اختراع محض استخدمته الدعاية العباسية¹. في حين يثبت هذه الواقعة بأدلة سائغة ، ويفترض في نهاية تحليله أنّ زيارة العباس للعقبة صحبة محمد هو اختراع محض استخدمته الدعاية العباسية في حين يثبت هذه الواقعة توماس أرنولد².

آراء مستشرقى المدرسة الإنجليزية في أسباب الهجرة إلى يثرب

وينفي موير ووات حدوث أي اضطهاد من قريش لعائلات الرسول أو المهاجرين ، بل نجده يصف دوافع الهجرة إلى يثرب بأنها ترقب مستقبل أفضل فيها ، وليس هروباً من الاضطهاد ، ولأنّه يرى أنّ كتب التاريخ لا تشير إلى أي أثر لظهور موجة جديدة من الاضطهاد قبل الهجرة إلى المدينة باستثناء حادثة أبي سلمى والشتائم التي وجهت لأبي بكر ومحمد نفسه³.

1 - وات. محمد في مكة . ص 233.

2 - أرنولد. الدعوة إلى الإسلام . ص 46.

3 - وات . محمد في مكة . ص 235.

في حين نجد توماس أرنولد والفريد جيوم قد أقرّا بأنّ قريشًا علمت ببيعتي العقبة الأولى والثانية متى استأنفت التنكيل بالمسلمين من جديد، فنصحهم الرسول بالهجرة إلى المدينة¹.

هذا ولقد انفرد توماس أرنولد بذكر تأمر قريش على قتل الرسول صلى الله عليه وسلم مما دفعه ذلك إلى الهجرة إلى المدينة².

هذا ويلاحظ أنّ توماس أرنولد لم يذكر أنّ جبريل عليه السلام قد أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم بأمر المؤامرة وأخبره بأمر الله له بالهجرة إلى يثرب.

1 - أرنولد. الدعوة إلى الإسلام. ص 46 وانظر الإسلام لالفريد جيوم.

2 - المرجع السابق. ص 47.

الفصل السادس

الرد على شبهات المستشرقين حول السيرة من البعثة
إلى الهجرة إلى المدينة من خلال مناهجهم

من خلال هذا العرض لموقف المدرسة الاستشراقية الإنجليزية من السيرة النبوية من البعثة إلى الهجرة إلى المدينة نجد الآتي:

أولاً: الوحي

1. عند مناقشتهم للوحي أجمعوا باستثناء آربي مع تحفظ توماس أرنولد أنّ القرآن ليس منزلاً من الله على رسوله ، ولكنه عبارة عن رؤى وأحلام (جيوم) أو عبارة عن خيال خلاق كامن في اللاشعور يردده محمد ، وهو يعتقد جازماً أنّه يأتي إليه من خارج ذاته (وات)، وقد عبر عنه "وات" بـ "اللاوعي الجماعي" Collective unconscious الذي هو مصدر كل وحي ونبي سواء كان الإسلام ، أو النصرانية ، أو اليهودية.¹

ومن هنا نجد مستشركي المدرسة الإنجليزية قد طبّقوا المنهج المادي في تفسيرهم لظاهرة الوحي ، ولم يتأثروا بالخلفية الدينية والفكرية والثقافية التي تكونت لديهم حول ظاهرة الوحي²؛ إذ عبر وليم موير عن الوحي بأنّه

¹ - د. الحاج. الظاهرة الاستشراقية . 3/ 356.

² - ظاهرة الوحي قد أنكرها بعض اليهودي والمسيحيين ، بل نجد بعضهم أنكر وجود موسى عليه السلام ، وقد وصفه آخرون بأنّه أمكر وأدهى قادة بني إسرائيل ، وأنّه تغيب عن أصحابه في سيناء أيام ثم عاد ومعه ألواح مكتوبة زعم أنّها وحي ، وهذا الرأي يقبل وجود موسى وينكر الوحي، فالوحي عند الإسرائيليين من بعد موسى بمعنى الإلهام أو انبثاق الفكرة في ذهن النبي ، فقد كان أنبيأؤهم يدرّبون وينتطون فوق المرتفعات حتى يصلحوا للنبوة ، فالنبوة لديهم شيء مكتسب ، ولكنهم كانوا يختارون من يصلح لهذا التدريب ومن يكون من الأنبياء وكان الاختيار يرجع إلى المال والجاه.

أمّا في المسيحية فيبرر الوحي بمعنى الانكشاف والرؤية أو التجلي Rvelation ، ومع ما جاء في الأنجيل من أنّ المسيح كان له إنجيله الذي أمر التلاميذ أن يبشروا به لا ليقول أتباعه إنه تلقى وحيًا لأنّه إله ، ولكن الانكشاف لديهم هو ظهور المسيح لبعض أتباعه وإلقاؤه تعاليمه لهم. وقد بدأ هذا بظهور المسيح بعد صلبه وقيامه من قبره؛ إذ تراءى أولاً لمريم المجدلية ، ومريم الأخرى ، ثم ظهر لتلاميذه في صور مختلفة

: عبارة عن رؤيا وأحلام انعكاسًا لآمال وأحلام وطموحات محمد التي حاول من خلالها إخراج قومه من ذلك الوضع المتردي اقتصاديًا واجتماعيًا وسياسيًا الذي كانوا يعيشون فيه ، وأنه كان يعتقد مخلصًا في رسالته، وأنها آتية إليه من الله مباشرة عن طريق جبريل ، كما أنه جعل للعوامل الخارجية أثر له.

أمّا جيب فقد اعتبره خطابًا ألقاها " محمد " طيلة العشرين سنة الأخيرة من حياته ، أو براهين ضد خصومه أو تعليقات على حوادث العصر.

= في الأنجيل ، فأوصاهم ، ثم ودعهم ، وارتفع إلى السماء "انظر أعمال الرسل" بعد ذلك ظل يظهر ويوصى فقد ظهر لبولس وهو في طريقه إلى دمشق وسمع المسيح يناديه: لماذا اضطهدتني ، وكان هذا الصوت مسموعاً أيضاً للذين كانوا معه ، وقد ظل ثلاثة أيام لا يبصر، وقصته هذه مشهورة ومعروفة، ولم يقف ظهور المسيح عند حواريه وبولس شاول ، بل ظل يتراءى لكثيرين ، منهم المسيحيون ومنهم الذين اهدوا به إلى المسيحية ، ولعل آخر ما حدث من ذلك ظهوره للقديس يوسف سمث مؤسس جماعة المرمون بأمريكا see look of the white prophet= وهناك نوع من الوحي شائع في الكتاب المقدس بقسميه وهو الرؤية النامية ، وقد حدثت لإبراهيم عليه السلام غير مرة ، وهي أيضاً شائعة في العهد الجديد كالتي رآها يوسف النجار خطيب مريم العذراء ، جعلها ثبتت لديه براءتها "متى 20/1" كالتي حدثت لحنانيا؛ إذ أمره المسيح في نومه أن يزدهر إلى شاول "بولس"، ويشفيه من عماه بعد أن اغشاه النور حين ظهر له المسيح "أعمال الرسل 9 / 10 . 18" ، وأعجب أنواع الوحي رؤيا يوحنا اللاهوتي فقد سمع صوت المسيح ، وهو في يقظته ، ورأى ملاءة مولاة فيها حيوانات الأرض ، ونظر إلى السمار فرأى الله جالسًا ومن حوله أربعون ملاكًا، والمسيح في صورة كبش مذبوح، "رؤيا يوحنا اللاهوتي الإصحاح الخامس والسادس، وسمع محاوراة الله والأربعين من حوله وتناؤه على الكبش المذبوح ، وتقريره أنه هو المستحق لأخذ المفتاح وفتح الصندوق المغلق ، وهذا انكشاف أو رؤيا [د. عبد الجليل شلبي : الوحي المحمدي وأنواع الوحي وآراء المستشرقين" بحث قدم للمؤتمر العالمي الرابع للسيرة والسنة النبوية الشريفة، والمؤتمر العاشر لمجمع البحوث الإسلامية ص 188 "صفر 1406 هـ ..نوفمبر 1985 م" القاهرة.]

بينما اعتبره الفريد جيوم رؤى وأحلام ، في حين جعله وات عبارة عن خيال خلاق كامن في اللاشعور ، أمّا بودلي فقد اعتبر الرسول صلى الله عليه وسلم مصلحًا ، وصاحب نظرية ، وأمّا مرجليوث فقد اعتبره من الكهان والسحرة.

وهكذا نجد جميعهم قد أنكر الوحي باستثناء آربري الذي اعترف بأنّ القرآن كلام الله ، وأنه وحي من عند الله ، أمّا توماس أرنولد فكان متحفظًا. وموقف المستشرقين من الوحي وإنكارهم له يؤكد عدم موضوعيتهم ، لأنّ الوحي معروف لديهم في الديانة اليهودية إن كانوا يهودًا "مرجليوث وبرنارد لويس" أو مسيحيين "موير ، وجيب ، وجيوم ، ووات ، وبودلي".

موقف المستشرقين من الوحي

هذا وعند بحثنا لموقف المستشرقين من الوحي نجدهم قد تطرقوا إلى الآتي:

I- إرجاع الوحي إلى ظروف داخلية وخارجية خاصة بطموحات النبي صلى الله عليه وسلم الشخصية.

II- كيفية نزول الوحي للمرة الأولى.

III- مصدر الوحي في الفترة المكية.

IV- الحالة التي يكون عليها صلى الله عليه وسلم عند نزول

الوحي.

V- فترة انقطاع الوحي.

VI - ابتداء ما أسموه بالآيات الشيطانية.

ولنبداً بـ :

أ . إرجاع الوحي إلى ظروف داخلية وخارجية خاصة بطموحات النبي صلى الله عليه وسلم الشخصية.

والمستشرقون في قولهم هذا تجاهلوا تماماً أنّ الله جل شأنه يرسل أنبياءه عندما يبلغ بأقوامهم الكفر والضلال مبلغاً يبعث فيهم نبياً يدعوهم إلى الإيمان والصلاح رحمة بهم ، فنوح عليه السلام بعثه الله لما عبدت الأصنام والطواغيت ، وشرع الناس في الضلالة والكفر فبعثه الله رحمة للعباد، فكان أول رسول بعث إلى أهل الأرض.¹

وأرسل الله إبراهيم عليه السلام إلى قومه لأنّ أهل حران كانوا يعبدون الكواكب والأصنام ، وكل من كان على وجه الأرض كان كافراً سوى إبراهيم عليه السلام وامرأته وابن أخيه لوط عليهم السلام.²

وعندما تقشّت فاحشة اللواط في قوم لوط أرسل الله نبيه لوط لينذرهم ، وعندما تقشّى التطفيف في الكيل والميزان عند أصحاب الأيكة في مدين فأرسل الله شعبياً يدعوهم إلى عبادة الله وحده ، وعدم التطفيف في الكيل والميزان ، وعدم بخس الناس أشياءهم ، وكذا الحال بالنسبة لسائر الأنبياء.³

1 - ابن كثير . قصص الأنبياء 1/64.

2 - المرجع السابق . 1 / 128.

3 - الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة . ص 499 ، الندوة العالمية للشباب الإسلامي"

أما بالنسبة لأنبياء الأديان السماوية ، فقد بعث الله موسى عليه السلام لأن فرعون قد طغى وتجبر ، وجاءت رسالة عيسى عليه السلام مكملة لرسالة موسى عليه السلام ، متممة لما جاء في التوراة من تعاليم موجهة إلى بني إسرائيل داعية إلى التهذيب الوجداني والراقي العاطفي والنفسي ، ولأنّ بني إسرائيل غرقوا في الماديات ، وفي ربط الأسباب بالمسببات بعث عيسى عليه السلام نبيا إلى بني إسرائيل مؤيداً من الله بعدد من المعجزات الدالة على نبوته.

وعصر ظهور النبي، وظهر الإسلام كان ثمرة لتلك العصور نفسها التي سبقته ، وأعدت بحكمة الله وسننه لكل ما أزهـر فيه ، لقد ظهر النبي صلى الله عليه وسلم بالاصطفاء من آباءه عبر تلك العصور من إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام كما ينص القرآن والحديث¹.

وجاءت دعوة الإسلام دعوة عالمية تعم البشرية جمعاء ، ولتكون خاتمة الأديان وتشريعها كاملاً ليس فيها نقصان ، وذلك بعدما نال الديانتين السماويتين السابقتين له اليهودية والمسيحية من تحريف وانحراف عن عقيدة التوحيد، وجعلت اليهودية لله عز وجل صفة التجسيم والمسيحية التثليث.

وقد ورد في التوراة والإنجيل عدة بشارات عن النبي صلى الله عليه وسلم²، وقد أشار بعض الرهبان والأخبار إلى قرب ظهور النبي العربي

1 - سالم ، أحمد موسى . لماذا ظهر الإسلام في جزيرة العرب؟ . ص 8 . بيروت . دار الجيل .

2 - سبق وأن أشرت إلى ذلك.

الأمي منهم بحيرا عند رؤيته للرسول صلى الله عليه وسلم وهو طفل ابن اثنتي عشرة سنة في طريقه إلى الشام مع عمه أبي طالب ، وكذلك أخبر ورقة بن نوفل أنّ ما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم هو الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى ، وإنه نبي هذه الأمة.

• ويلاحظ أنّ المستشرقين أهملوا من رواية لقاء بحيرا بالرسول صلى الله عليه وسلم في رحلته إلى الشام مع عمه أبي طالب ، ما أخبر به أنّ صفات النبي العربي الأمي تنطبق على محمد صلى الله عليه وسلم وأضافوا إلى هذه ما أضافوه من أقاويل أنّه شرح له التعاليم اليهودية والمسيحية .. الخ.

وكذلك عند حديثهم عن ورقة بن نوفل فهم يحاولون بشتى الوسائل والطرق إثبات أنّ النبي محمد صلى الله عليه وسلم قد تعلم المسيحية منه ، ويهملون الجانب الصحيح في الرواية وهو إخباره بأنّ مجيء جبريل عليه السلام إلى النبي صلى الله عليه وسلم هو نفس الناموس الأكبر الذي كان يأتي لموسى عليه السلام!

وهذا يبين لنا عدم موضوعية المستشرقين ، فهم يحذفون من الروايات الصحيح منها لأنّه لا يوافق أهواءهم وما يريدون كتابته، ويضيفون إليها من عندهم ما يريدون إثباته.

ب . كيفية نزول الوحي للمرة الأولى، ومن بدأ بتبليغ الوحي؟:

ويلاحظ أنّ وات يورد بعض الروايات المرفوعة إلى عائشة عن الزهري عن عروة ابن الزبير ، ويستنتج وات بعد ذلك أنّ تفسير المسلمين

المعتاد "الرؤيا الحقيقية" هي رؤية النبي صلى الله عليه وسلم لجبريل ، ولكن هناك أسباب تدعو إلى القول: إنَّ محمدًا فسر في بداية ما رآه بأنَّه الله نفسه ، لأنَّه لم يرد ذكر لجبريل في القرآن إلا في الفترة المدنية ، وإنَّ الذي يدل عليه السياق هو "الله" ، وبغير ذلك تكون العبارة ركيكة ، وأنَّ عبارة " فجاءه الحق" تؤيد ذلك ؛ إذ أنَّ "الحق" أحد الطرق التي يشار بها إلى الله.¹

ويلاحظ على وات أنَّه لم يختَر لروايته الأصح سندًا وامتتًا من خلال العديد من الروايات الأخرى المشابهة للموضوع المراد دراسته، ثم الجمع بين هذه الروايات لأنَّها يكمل بعضها البعض ، وعندما ناقش وات قضية بدء الوحي الإلهي أهمل الروايات التي وردت في سيرة ابن هشام والبخاري ، واختار روايات الزهري التي أوردها الطبري في تاريخه.²

فلو رجع إلى رواية ابن هشام مثلًا لوجد الرسول صلى الله عليه وسلم خرج إلى غار حراء في الشهر الذي أراد الله تعالى به فيه ما أراد من كرامته ، جاءه جبريل عليه السلام بأمر الله تعالى وهو نائم بنمط من ديباج فيه كتاب ، فقال: اقرأ ، قال ، قلت : ما أقرأ؟..

وهكذا ذكر في هذه الرواية اسم الملك ، ولكن وات اختار رواية الزهري الموجودة في تاريخ الطبري لأنَّها خالية من ذكر "الملك" ثم رتب النتائج التي أتينا على ذكرها.

1 - د. الحاج. الظاهرة الاستشراقية . 3 / 153.

2 - الطبري. (1406هـ / 1987م) تاريخ الأمم والملوك . 2 / 383 ، 384 . دار الفكر . ط 3.

كما أنّ الروايات المثبوتة حول هذا الموضوع في كتاب البخاري تشير جميعها إلى الملك الذي أتى بالوحي للرسول ، وقد حاول وات الاستنتاج من خلال رواية الزهري أنّ ما رآه الرسول في بدء الوحي كان الله تعالى ، ولكنه يفند هذا الاستنتاج من أساسه لأنّ رؤيا الله تتناقض مع الآيات التي تنفي ذلك كقوله تعالى ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارُ ﴾¹،².

ويستنتج وات كذلك أنّ ما ورد في سورة النجم ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾³ ، ويحتمل تفسيراً آخر لا علاقة له برؤية الله مباشرة ، وإنّما كل ما رآه هو الرمز لعظمة الله وجلاله ، ويفسر الآية ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾⁴ ، والتي يراها أنّها قد أضيفت بآخره توحى بتطور آخر لهذه النظرية ، أي أنّه بينما رأت العينين الآية والرمز ، فإنّ القلب رأى الرموز ، فإذا كان محمد قد فسر أولاً ما رآه أنّه رؤيا مباشرة لله ، فهذا يعني على الرغم من أنّ تفسيره هذا لم يكن عين الصواب ، فإنّه في جوهره لم يكن خطأ ، وربما كان من الأفضل إذا أن تترجم الآية "إنّ القلب لم يخطئ بالنسبة إلى ما رآه الرجل" ، وبهذه الطريقة يحاول وات أن يتجنب القول إنّ الرؤيا لجبريل عليه السلام ، وغرضه من ذلك بين واضح تمام الوضوح ،

¹ - الأنعام : 103.

² - د. الحاج. الظاهرة الاستشراقية. 3/ 153.

³ - النجم : 18.

⁴ - النجم : 11.

وهو نفي رؤيا الرسول صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام ، وهو من الأمور الحسية التي تؤدي إلى التشكيك في أنّ القرآن الكريم وحي من الله.¹ كما يتضح لنا أنّ وات خلط بين ثلاثة أمور هي : الرؤيا المنامية التي سبقت الوحي ، ورؤية جبريل وهو ينزل باقراً ، ورؤيا جبريل على صورته الحقيقية ، فزعم أنّ الرؤيا الصادقة ليست رؤيا منام ، ثم فسر هذه الرؤيا بأنها المشار إليها في سورة النجم ، ثم زعم أنّ المقصود بها هو الله ، ثم ذهب يتعلل ببعض الأسباب ، فذكر أولاً أنّ جبريل لم يذكر في السورة المكية ، وهو يعني بالطبع أنّ كلمة جبريل لم ترد في هذه السورة ، وإلاّ فهو يعلم أنّه وردت في هذه السور ضمائر وأوصاف يقول المسلمون إنّ المقصود بها جبريل ، ولكنه لا يريد أن يتابعهم في ذلك ، بل يتابع "كارل أرنز" الذي يقول "إنّ عبارة "رسول كريم" المذكورة في سورة التكويد كانت في أول الأمر مطابقة لكلمة "الروح" ، وذلك لأنّ جبريل لم يذكر في السور المكية، وإنّما تذكر الملائكة بصيغة الجمع فقط كما في الآية ﴿تنزل الملائكة والروح فيها﴾²، والآية ﴿نزل به الروح الأمين﴾³. ويرى أنّ كلام أرنز يوافق رأيه في أنّ المقصود بالرؤية رؤية الله.⁴

1 - د. الحاج. الظاهرة الاستشراقية . 3 / 154.

2 - القدر : 4.

3 - الشعراء : 193.

4 إدريس ، شيخ . منهج مونتجمري وات في دراسة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم . ص 215 ضمن بحوث مناهج المستشرقين مكتبة الدراسات العربية والإسلامية. ط1 . المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم"

ونرى وات وأرنز يريدان من قرائهما أن يفهما من كلمة "الروح" ما تفهم النصارى من هذه الكلمة ، ويريدان أن يقولوا أنّ الروح هو الله ، ولكن هذا المعنى تأباه اللغة العربية ، ويأباه سياق الآيات القرآنية ، فالمعنى اللغوي لكلمة "الروح" هو ما به تكون الحياة ، ولذلك جعل اسماً لما تحصل به الحياة البدنية وهو روح الإنسان ، ولما تحصل به الحياة المعنوية وهو القرآن ، وسمي عيسى روحاً لأنه يحيى الموتى بإذن الله ، وسمي جبريل روحاً لأنه كان يأتي بالقرآن ، أمّا الآيات القرآنية التي فيها الروح اسماً من أسماء الله تعالى ، أو وصفاً لله سبحانه وتعالى ، وإنما ورد بالمعاني التي سبق ذكرها. أمّا أنّ المقصود بالروح هو جبريل ، فيوضحه قوله تعالى ﴿نزل به الروح الأمين﴾¹ ويقول ﴿إنه لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ فالروح الأمين هو الرسول الكريم ، والله جل شأنه ليس رسولاً وإنما هو مرسل "بضم الميم وكسر السين" والمرسل إليه محمد صلى الله عليه وسلم فماذا يكون الرسول إذن إن لم يكن ملكاً، أما قوله تعالى ﴿تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ فِيهَا﴾ فهي ذكر الخاص بعد العام وهي كقوله تعالى ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾² والضمير في "إليه" راجع إلى الله سبحانه وتعالى ، فهل يقول عاقل أنّ الله يعرج مع الملائكة إلى نفسه؟³.

1 - الشعراء : 193 .

2 . المعارج : 4 .

3 - المرجع السابق . 215 / 1 .

ثم لنفترض أنه لم يرد ذكر لجبريل في السور المكية ، فكيف يكون هذا دليلاً على أنّ ما رآه محمد صلى الله عليه وسلم في بدء الوحي لم يكن جبريل ، إذا كان محمد نفسه يقول إنّ ما رآه كان جبريل؟.

إنّ هذا لا يكون حجة إلا للإنسان لا يعتمد إلا ما جاء في القرآن الكريم وسلوك وات لا يدل على أنه كذلك ، أو إنسان يشك في صحة الرواية من جهة السند ، ووات يقول إنه لا فائدة من مناقشة السند¹.

أمّا زعم وات أنّ سياق آيات سورة النجم يدل على أنّ المني هو الله تعالى فهو يقول "إن كلمة عبده الواردة في قوله تعالى ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ ۗ مَا أَوْحَىٰ ۗ ﴾² لا بد وأن تعني عبد الله ، والمسلمون متفقون على ذلك ، ثم يقول: (ولكن هذا يجعل التركيب ركيكاً إلا إذا جعلنا "الله" هو الفاعل المضمون للأفعال³، وربما يكون وات قد فهم من الرأي الإسلامي الذي ينتقده أن جبريل هو فاعل "أوحى" الأولى و "أوحى" الثانية ، وأنّ المقصود بالعبد هو محمد صلى الله عليه وسلم فيكون المعنى على هذا الفهم "فأوحى جبريل إلى عبده محمد ما أوحى جبريل" وهو كلام ركيك بل باطل ، والذي نجده في كتب التفسير هو أنّ المعنى "فأوحى الله تعالى إلى عبده جبريل ما أوحى جبريل إلى محمد صلى الله عليه وسلم"⁴.

1 - المرجع السابق .ص 216.

2 - النجم : 10.

3 - وات . محمد في مكة . ص 79.

4 - المرجع السابق . ص 216.

أمّا استدلال وات بعبارة "حتى فجاءه الحق فاتاه" بأنّ الحق هنا هو الله تعالى ، فهذا باطل لأنّ المقصود بالحق في هذا الحديث هو الحق الذي جاء به الملك وهو القرآن الكريم ، أو هو البشارة بأنّه رسول الله ، ويؤيد هذا التفسير رواية البخاري التي تقول: "حتى جاءه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك" وقال ابن حجر "حتى جاء الحق" أي الأمر الحق ، وقال وسمي حقاً لأنه وحي من الله تعالى¹.

وقول وات في تفسيره لعبارة "ثم أتاني" يعني أنّه فاعل "أتاني" هو الله سبحانه وتعالى ، والذي حمل وات على هذا التأويل المستكره للعبارة أنّه قسم حديث السيدة عائشة رضي الله عنها ، وهو سياق واحد إلى فقرات ، ثم عد كل فقرة منها رواية مستقلة عن الأخرى ، مع أنّ السياق واحد ، وأنّ فاعل "أتاني" هو فاعل "أتاه" فالفهم الصحيح للعبارة هو أنّ الذي أتاه هو الملك ، ولكن وفق تفسير وات إنّ الذي أتاه هو الله².

وهكذا نجد أنّ وات قد ابتعد عن المنهج العلمي الذي يقتضي أن يجمع الإنسان الروايات الخاصة بموضوعه ، ثم ينظر فيها فيختار أصحابها سنداً ومنتأً، ثم يجمع بين ما جاء فيها ما أمكنه ذلك ، لأنّ الروايات في الغالب يكمل بعضها بعضاً، وتعطي الذي يجمع بينهما صورة أكمل ممّا تعطيه في كل واحدة منها منفردة ، أمّا الذي لا يكون مقصده الحق بل مقصده أن يحرف الحق حتى يوافق هوى في نفسه ، فإنّه لا يفعل شيئاً من

¹ - فتح الباري. 1 / 35. كتاب بدء الوحي حديث رقم 3 .

² شيخ إدريس ، د. جعفر. مرجع سابق . ص 217.

هذا ، بل ينظر في الروايات المختلفة ويتخير منها ما يراه أقرب إلى موافقة هواه ، ولذلك فيكون أمره مضطرباً ، فتارة يأخذ من الطبري ويدع ابن هشام والبخاري ، وأخرى يأخذ من البخاري ويدع الطبري وهو بين يديه ، وثالثة يختار من البخاري رواية ويترك أخرى ، وهكذا فعل وات ، فهو لكي يناقش مسألة بدء الوحي ، أخذ بروايات الطبري وترك ابن هشام ، وعلل ذلك بأن روايات الزهري تمتاز بأنها لم تعد كتابتها ، كما أعيدت كتابة روايات ابن هشام لتعطي سياقاً سليماً، وإنما تجمع قطعاً من مصادر أولية ، كما وصلت إلى الزهري.¹

والحقيقة خلاف ذلك فلقد اختار وات روايات الزهري التي في الطبري لأنه لا نكر في أولها للملك ، والدليل على ذلك أنه ترك رواياته التي في صحيح البخاري وغيره والتي فيها نكر الملك ، ثم عندما ذهب للبخاري أخذ حديثاً رواه عن غير الزهري ، عن أبي سلمة عن جابر وترك أحاديث كثيرة رواها بسنده عن الزهري عن أبي سلمة عن جابر ، وذلك لأن أحاديث الزهري هناك فيها نكر الملك فمنها حديث يقول: "بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت رأسي²، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض"³.

1 - المرجع السابق. ص 217، انظر وات. محمد في مكة. ص 40.

2 - وفي رواية أخرى فرفعت بصري.

3 - فتح الباري كتاب التفسير 74 سورة المدثر الحديث رقم 4925 . 9 / 684.

والحديث الذي ليس فيه ذكر الملك أساء ترجمته إما هو أو أستاذه بل Bell الذي أخذ عنه هذا الحديث ، فجعله أكثر موافقة لغرضه ، فقد ترجم الحديث كالآتي:

I heard a voice calling me , and I looked all around ,
but could see no one , then I looked above my head and
. there , he was sitting upon the throne¹

وترجمة هذه الترجمة هي: "سمعت صوتاً يناديني فنظرت حولي ، فلم أر أحداً ثم نظرت فوق رأسي ، فإذا هو هناك جالس على العرش.

ولو رجعنا إلى البخاري الكتاب 65 الرقم 74 حديث 4922 من فتح الباري نجد هذا الحديث عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (جاورت بحراء فلما قضيت جواري هبطت فنوديت ، فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً، ونظرت أمامي فلم أر شيئاً، ونظرت خلفي فلم أر شيئاً، فرفعت رأسي فرأيت شيئاً)².

وفي حديث آخر عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (جاورت في حراء فلما قضيت جواري هبطت فاستيقنت الوادي ، فنوديت فنظرت أمامي وخلفي وعن يميني وعن شمالي ، فإذا هو جالس على عرش بين السماء والأرض"³.

1 - Mohammad At Mecca P. 43.

2 - فتح الباري. 9 / 682.

3 - فتح الباري. كتاب التفسير رقم 74 حديث 4924 ، 9 / 683.

وكذلك حديث الزهري الذي سبق وأوردته بروايتين ، وكذلك الحديثين اللذين ورد فيهما ذكر الملك.

وهكذا يتضح لنا أنّ ترجمة وات أو بل أو نولدكه ، ليست دقيقة وأهم تحريف فيها قوله: "فإذا هو هناك جالس على العرش" فجعل العرش عرشاً معروفاً معهوداً، وبذلك جعله أقرب إلى قوله تعالى : ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾¹ بينما الرواية تقول "على عرش" بالتكثير، وتصف العرش بأنّه بين السماء والأرض ، وعرش الله تعالى لا يكون بين السماء والأرض ، وإنّما هو أعظم مخلوقاته وخارج أرضه وسماواته ، والعرش الذي ذكر في هذه الرواية هو الكرسي المذكور في غيرها من الروايات².

وبعد هذا التفصيل في الرد على شبهات وات حول بدء الوحي وإصراره على أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم فهم أنّ الذي رآه في بدء الوحي كان الله تعالى ، يتضح لنا هدف وات من هذا الإصرار فهو لا يريد أن يقول إنّ محمداً رأى جبريل ، لأنّ هذا يجعلها رؤية غير تاريخية فوات لا يعد من التاريخ إلا ما كان أمراً حسيّاً ، مع أنّه بين لنا أنّه مؤمن وليس بمادي ، ولكنه كغيره من كثير من المستشرقين لا يتحدث عن الإسلام وينتقده إلا وقد ارتدى الرداء العلماني والمادي.

لذا نجده قد هدف من كل تلك التأويلات والتفسيرات التي افترضها إلى التشكيك في أنّ القرآن وحي من الله وذلك بعدة رسائل منها:

1 - طه:5.

2 - د. شيخ إدريس. مرجع سابق. ص 218.

أولاً: إنَّ كل عاقل يفهم أنّ الله تعالى لا يرى عياناً في هذه الحياة الدنيا ، فإذا كان محمد قد ظن أنّ ما رآه كان الله ، فهذا يجعل رؤياه من قبل الهلوسة والوهم والخيال¹، وفات وات أنّ الرواية التي بنى عليها كل تأويلاته وتفسيراته ليست هي الرواية الوحيدة عن بدء الوحي ، فهناك روايتان أخريان للزهري ذكر فيهما "الملك" إضافة إلى الروايات الأخرى في صحيح البخاري وسيرة ابن هشام ، والتي ورد فيها ذكر الملك.

ثانياً : أنّ محمداً يكون متناقضاً في كلامه ، فهو يقول أولاً أنّه رأى الله ثم يقول أخيراً ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾².

ثالثاً: أنّ محمداً عندما لاحظ خطأه اعتذر عنه بإضافة آية ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾³

رابعاً: أنّ محمداً لم يكن يعرف أنّ الله لا يرى ، وإنّما تعلم ذلك من اليهود فيما بعد ، ولذلك غيّر رأيه وقال إنّّه رأى جبريل⁴.

ج . مصدر الوحي

يزعم وات أنّ مصدر الوحي على محمد هو الخيال الخلاق "و اللاوعي الجماعي" collective unconscious ؛ إذ أخذ وات برأي يونج junge وهو رأي يقول "إنّ ما ينبثق من اللاوعي إلى الوعي في رؤيا الأفراد النامية وأحلام اليقظة ، وكذلك في الأساطير الدينية لمجتمع كامل

1 - المرجع السابق . ص 219.

2 - المرجع السابق . ص 219.

3 - النجم : 11 .

4 - Mohammed Prophet and Statesman p. 15.-

تأتي من "الليبدو" أو طاقة الحياة ، وهو ينبوع الناشط في كل الناس وفي الشخص الواحد يكون الليبدو في أحد أجزائه شيئاً خاصاً، وفي الجزء الآخر شيئاً مشتركاً بينه وبين أفراد جماعته ، ثم بينه وبين الجنس البشري كله ، هذا الجزء المشترك بينه وبين الآخرين هو الذي يسميه يونج "باللاوعي المشترك" وإلى هذا اللاوعي المشترك تُعزى كثير من الأساطير، وكذلك المعتقدات الدينية ، ولا سيما شخصيات مثل البطل والقائد والطفل الإلهي والعذراء التي توجد في كثير من الأديان.¹

ولتطبيق وات هذه النظرية على الوحي المحمدي يقول وات: "إنّ كلمات الوحي كانت لها صلة بمحمد قبل أن يصير واعياً بها، وأنّ للرسول شخصيتان إحداهما واعية وشاعرة والأخرى لا واعية ولا شاعرة ، أي أنّ لمحمد ازدواج الشعور واللاشعور².

إنّ مسألة اللاوعي الجماعي التي عزا إليها وات ظاهرة الوحي على الرسول صلى الله عليه وسلم هو من الأمور المعقدة التي تستحق منا تبياناً شافياً لدحضها، ذلك أنّ اللاشعور أو اللاوعي المشترك أو الجماعي ، ينتمي إلى ما نطلق عليه باسم "الكشف" أو "الإلهام" أو "الحدس الباطني" أو "الشعور الداخلي" ، فهذه الأمور مهما تباينت تسميتها غالباً ما تكون ثمرة من ثمار الكد والجهد أو أثراً من أثار الرياضة الروحية أو نتيجة

¹ - د. شيخ إدريس . مرجع سابق ، ص 234 ،نقلاً من كتاب الوحي الإسلامي في العصر الحديث لوات . ص 109.

² - Watt , Mohammed Prophet and Statesman p. 17 -

للتفكير الطويل ، فلا تنشأ في النفس يقيناً كاملاً ولا شبه كامل ، بل يظل
أمرًا شخصياً ذاتياً لا يتلقى الحقيقة من مصدر أعلى وأسمى¹.

والكشف كالإلهام وهو من ألفاظ علم النفس المحدثه التي ما تبرح
حتى عن القائلين بها موهلة في الإبهام ، لاحتلالها حاشية اللاشعور ،
وهي حاشية - كما يوحي اسمها - أبعد ما تكون عن حالات الحي والشعور .

فإذا قيل في إنسان: إنه من أولي الكشف والإلهام ، لم يسم به ذلك
إلى درجة النبوة والوحي ، لأن في كل وحي وعياً ، وفي كل نبوة شعوراً
بمعناها وإدراكاً لمغزاها، وإنما برمي باللاوعي من فقد الوعي ، ويوصم
باللاشعور من حرم الشعور ، وهذا يبطل تفسيرات وات ، ولا سيما إذا علمنا
أن الحقائق الدينية والأمور الغيبية التي تخبر عنها ظاهرة الوحي لا تخضع
للخيال الخلاق ، ولا إلى اللاشعور الجماعي أو الفردي التي تحاول
اكتشاف المجهول عن طريق الفراسة ، والحدس الباطني ، ولأنها لا تخضع
أيضاً إلى مقاييس الحس الظاهري الذي اعتاده الناس ، لأن ظاهرة الوحي
عبارة عن انسلاخ الذات البشرية للموحي إليه واتصاله بالذات الروحانية ،
والتي تخضع لتصور حوار علوي بين ذاتين ، ذات متكلمة أمرة معطية ،
وذات مخاطبة مأمورة متلقية².

والوحي طبقاً لما فسر العلماء المسلمين هو إبلاغ الله سبحانه
وتعالى عن أمور وقضايا ومعارف لمن اختاره الله لذلك ، واصطفاه لتلقي

1 - المرجع السابق . ص 362.

2 - المرجع السابق . ص 362.

رسالته ، بطرق خفية وسرية لا يعرفها البشر ولا يستطيعون فهم أسرارها ، لأنها ليست خاضعة لمعارف البشر العادية وليسوا معتاديينها أيضًا ، فالوحي في اللغة: هو الإعلام في خفاء ، ومنه الإشارة والإيماء والكتابة ، لأنها كلها بها شيء من الخفاء ، والإعلام بها ليس معلناً لكل الناس¹ .

والوحي الإلهي قد خص الله به أنبياءه ، أما ما جاء من وحي الله إلى غير الأنبياء ، فمعناه الإلهام أو الأمر ، من ذلك قوله تعالى ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾²

بمعنى ألهمها ، أما قوله تعالى : ﴿ وَمِمَّا تَحَدَّثُ أَخْبَارَهَا * أَنْ رَبُّكَ أُوحِيَ لَهَا ﴾³ فهي بمعنى الأمر ، وجمعت الآية الكريمة ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بَأْذَنِهِ مَا يَشَاءُ ۗ إِنَّهُ عَلِيُّ حَكِيمٌ ﴾⁴ أنواع خطاب الله الثلاثة وحصرته فيها ، فمعنى "إلا وحيًا" إلا إلهامًا ، والكلام من رواء حجاب هو سماعه ودعيه من غير رؤية ، كما كلم الله موسى عليه السلام ، وكما قال للملائكة ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾⁵ ، أمّا إرسال الرسول فهو جبريل عليه السلام ، فقد كان يرسله الله بالوحي إلى الأنبياء ، وسمي الكلام الموحى به وحيًا ، فهو مصدر بمعنى المفعول والقرآن وحي لذلك ، والوحي الذي أنزل على

1 - شلبي ، د. عبد الجليل . مرجع سابق . ص 186 .

2 - النحل : 68 .

3 - الزلزلة : 4-5 .

4 - الشورى : 51 .

5 - البقرة : 30 .

محمد صلى الله عليه وسلم هو كل ما أنزله الله على نبيه صلى الله عليه وسلم قرآنًا أو غير قرآن¹.

وقد كان الوحي يأتي الرسول صلى الله عليه وسلم في اليقظة كما تدل الأحاديث الصحيحة² ، وعلى صور عديدة تبلغ ستة وأربعين نوعًا³ ، وقد جاءه جبريل كثيرًا في صورة رجل يحدثه أو يسمعه جالسًا ، وأكثر ما كان في صورة وحيه الكلبى ، أو صورة رجل بدوي من الأعراب ، وأحيانًا يأتي مثل صلصلة الجرس ، وأحيانًا ينفث في روحه ما يريد الله أن يوحي به إليه ، وليس كل وحي من الله إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم قرآنًا ، فقد يكون حديثًا قدسيًا ليس له إعجاز القرآن ، وقد يكون إخبارًا بحادث أو أمرًا يصل من غير أن يذكر في القرآن ، وإنما هو مجرد توصية أو تعريف بشيء⁴ ، فأحاديثه صلى الله عليه وسلم وحي من غير الوحي القرآني. ويمتاز الوحي القرآني بأنه معجز ، وأنه وقع به التحدي وليس في الإسلام وحي بمعنى الانكشاف revaluation ، ولا من المقبول فيه أن الله تعالى تراءى لنبي في صورة ضباب أو نار ، أو غير ذلك⁵.

¹ - المرجع السابق، ص 186 ، 187.

² - صحيح البخاري. كتاب بدء الوحي، 1/ 21 ، 22 ، 23 . وصحيح مسلم . ج 4 حديث رقم 6 / 18 ، 18 / 7.

³ - فتح الباري . 1 / 29.

⁴ - د.شليبي، عبد الجليل . مرجع سابق. ص 187.

⁵ - المرجع السابق . ص 187.

هذا ولقد استغرق نزول الوحي ثلاثاً وعشرين سنة ، منها ثلاثة عشر عامًا بمكة وهذا هو المشهور،¹ وعشر سنين في المدينة وهو المتفق عليه².
 إنّ ظاهرة الوحي معجزة خارقة للسن الطبيعية، حيث تلقى النبي صلى الله عليه وسلم كلام الله "القرآن" بواسطة الملاك جبريل عليه السلام ، وبالتالي فلا صلة لظاهرة الوحي بالإلهام أو التأمل الباطني أو الاستشعار الداخلي ، بل إنّ الوحي يتم من خارج الذات المحمدية المتلقية له ، دون أن يكون لرسول الله صلى الله عليه وسلم أي أثر في الصياغة والمعنى ، بل تنحصر مهمته بحفظ الموحى وتبليغه ، وأمّا بيانه وتفسيره فيتم بأسلوب النبي صلى الله عليه وسلم كما يظهر في أحاديثه المحفوظة ، وهو أسلوب مغاير تمامًا لأسلوب القرآن الكريم، إنّ محاولة وات تعليل اختلاف أسلوب القرآن عن أسلوب الحديث عن طريق علم النفس التحليلي بدعوى أنّ القرآن صدر من منطقة اللاشعور في ضعف الوعي الخارجي ونشاط العقل الباطن ، وأنّ الحديث ظهر عن العقل الظاهر تبدو متهافته إذا تأملنا فيما

¹ - صحيح البخاري . باب مبعث النبي صلى الله عليه وسلم . 1 / 1175 . صحيح مسلم . باب كم أقام النبي صلى الله عليه وسلم بمكة والمدينة . كتاب الفضائل ، 4 / 1825 ، 1826 ، كلاهما عن ابن عباس ، ومستدرک الحاكم بإسناده إلى علي رضي الله عنه وصححه ووافقه الذهبي ، ووردت روايات أخرى عن ابن عباس أنّه أقام بمكة بعد البعثة عشر سنين ينزل عليه القرآن ، وورد ثلاث عشرة سنة "صحيح البخاري" باب = مبعث النبي ، 3 / 1175 حديث 3891 ، وصحيح مسلم 4 / 1824 1825 ، 1827 ، ونلاحظ أنّ انقطاع الوحي دام قرابة ثلاث سنوات ، فربما يكون ابن عباس حذفها عندما قال عشر سنين ، وقد رجح ابن حجر رواية ابن عباس أنّها ثلاث عشرة سنة على روايته خمس عشرة سنة ، وقال: "وإنّ إقامته بمكة ثلاث عشرة هو قول الجمهور، وهو المشهور ، ومن روى عنه ما يخالف ذلك جاء غير المشهور "فتح الباري" د.

أكرم العمري. السيرة النبوية الصحيحة 1 / 129"

² - ابن سيد الناس . عيون الأثر 1 / 107.

صدر عن الحكماء والشعراء والبلغاء من آثار أدبية تتضح فيها الوحدة الأسلوبية رغم مرورهم بتجارب تأملية واستنباطية ، وصار مبدأ الأسلوب أساسًا لتحديد السرقات الأدبية إلى جانب سرقة المعاني.

ومما لا شك فيه أنّ الهروب من الاعتراف بالوحي هو الدافع إلى التفسيرات العديدة المتناقضة لظاهرة الوحي ، والتي قدمها المستشرقون واتباعهم خلال القرنين التاسع عشر والعشرين¹.

إنّ إصرار المستشرقين على إنكار ظاهرة الوحي أوقعهم في كثير من التناقضات ولجأوا إلى الاتهامات القديمة التي سبق أن قالها العرب الجاهليون في مكة عند نزول الإسلام مثل مارجليوث الذي وصف الرسول بالكاهن والشاعر ، وقد حاول بودلي أن يثبت أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم قد تعلم الشعر من سوق عكاظ مع أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن قط شاعرًا ، ولم يقل شعرًا ، وغير ذلك من الاتهامات وقد بينها القرآن بقوله جل شأنه ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴾².

وقوله: ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾³.

1 - العمري > السيرة النبوية الصحيحة > 130/1.

2 - الفرقان :4.

3 - الفرقان :5.

وقوله ﴿ وَلَقَدْ نَعَلِمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّلسَّانِ الَّذِي يُلْحَدُونَ
إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾¹.

وقد رد القرآن الكريم على هذه الاتهامات في عدة مواضع منها قوله
تعالى ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ
الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ *
وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ * فَأَوْحَىٰ
إِلَىٰ عَبْدِهِ ۖ مَا أَوْحَىٰ ﴾².

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ
مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ * وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ * وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ
* وَمَا هُوَ عَلَىٰ الْغَيْبِ بِضَنِينٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴾³

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ
وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴾⁴.

وقد أجمع مستشرقو المدرسة الإنجليزية على أنّ الرسول صلى الله
عليه وسلم تعلم اليهودية والمسيحية ، وأنّ الإسلام مزيج من المسيحية
واليهودية والوثنية ، ومنهم من يقول إنّ صلى الله عليه وسلم تعلم من ورقة

1 - النحل: 103 .

2 - النجم: 1- 10 .

3 - التكوير: 19 . 25.

4 - ياسين: 69.

ابن نوفل¹ ، ومرة يقولون من بحيرا الراهب ، ومنهم من قال من مولاة زيد بن حارثة وزوجه بركه "أم أيمن" ، ومن قيس بن ساعدة حيث كان يلقي خطبه فوق جبل في سوق عكاظ ، وأحياناً يرددون أنه تعلم من يهود مكة ، ونحن نعلم أن مكة لم يكن فيها يهود، وقد سبق أن بينت ذلك ، بل نجد بعضهم جعلوه سافر إلى اليمن ومصر ليوجدوا مبرراً لرد القرآن الكريم إلى التأثيرات اليهودية والمسيحية.

بل نجد الفريد جيوم يأخذ برأي شبرنجر أن السيدة خديجة رضي الله عنها كانت تقرأ الكتب المقدسة ، مع أن التوراة والإنجيل لم يترجما إلى العربية إلا بعد قرون من عمر الرسالة ويقول القس "شيدياك" بأنه لم يتمكن من الرجوع بتاريخ أقدم ترجمات العهد الجديد باللغة العربية إلى أبعد من القرن الحادي عشر².

هذا وقد بين كل من الكاتبين جورج سيل وتايلور وهما نصرانيان أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يجد نموذجاً أخلاقياً ودينيا لينقله أو يحتذى به في الإسلام ، بسبب انحراف اتباع الديانات القديمة وانحطاط تصوراتهم ، بل وتحريف أصولهم الدينية³.

¹ - يقول وات في كتابه محمد في مكة ص 93: "ومن الأفضل الافتراض بأن محمداً كان قد عقد صلوات مستمرة مع ورقة منذ وقت مبكر وتعلم أشياء كثيرة ، وقد تأثرت التعاليم الإسلامية اللاحقة كثيراً بأفكار ورقة ، وهذا يعود بنا إلى طرح مشكلة العلاقة بين الوحي الذي نزل على محمد والوحي السابق له" ، وهنا نجد وات تجاهل أن كتب السيرة لم تثبت سوى لقاء واحد مع ورقة.

² - دراز ، محمد عبد الله . (1401هـ / 1981م) مدخل إلى القرآن الكريم. ص 141 . دار القلم. ط3

³ - العمري ، د. أكرم . مرجع سابق. 131/1.

يقول سيل: "إذا قرأنا التاريخ الكنسي بعناية فسندرى أنّ العالم المسيحي قد تعرض منذ القرن الثالث لمسح صورته ، بسبب أطماع رجال الدين ، والانشقاق بينهم ، والخلافات على أتفه المسائل والمشاجرات التي لا تنتهي ، والتي كان الانقسام يتزايد بشأنها ، وكأن المسيحيين في تحفزهم لإرضاء شهواتهم ، واستخدام كل أنواع الخبث والحقد والقسوة.. قد انتهوا تقريباً إلى طرد المسيحية ذاتها من الوجود بفعل جدالهم المستمر حول طريقه فهمها ، وفي هذه العصور المظلمة بالذات ظهرت، بل وثبتت أغلب أنواع الخرافات والفساد"¹.

أمّا تايلور فقد كتب في كتابه "المسيحية القديمة": "إنّ ما قابله محمد واتباعه في كل اتجاه لم يكن إلا خرافات منفرة ووثنية منحطة ومخجلة، ومذاهب كنسية مغرورة ، وطقوساً دينية منحلة وصبيانية بحيث شعر العرب ذو العقول النيرة بأنهم رسل من قبل الله ، مكلفين بإصلاح ما ألم بالعالم من فساد" ثم يستطرد قائلاً: "وعندما وصف راهب مؤرخ الآلام والعذاب الذي أوقعه الفرس بشعب فلسطين في زمن محمد لم يتردد في أن يقرر أنّ الله لم يصب المسيحيين هنا بقسوة الزنادقة الظلمة إلا بسبب ظلمهم وشرورهم ، وعندما أراد موشايم Moshim وصف هذا العصر، رسم صورة للمقارنة، أبرز فيها التعارض بين المسيحيين الأوائل والأواخر وخرج بأنّ الديانة

¹ - دراز، د. محمد عبد الله . مدخل إلى القرآن الكريم . ص 136 ط3 . دار القلم نقلا عن كتاب George , Sale ملاحظات عن الإسلام ، ص 68 . 71.

الحقيقية في القرن السابع كانت مدفونة تحت أكوام من الخرافات والأوهام السخيفة حتى أنه لم يكن في مقدورها أن ترفع رأسها¹

وما ذكره تايلور يفسر قوله تعالى في سورة المائدة ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾².

فهذه الآية الكريمة تشير مجرد إشارة إلى البعد الذي كان بين المسيحية والمسيحيين في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتعلن أن الانشقاق الناتج من هذا البعد سيمتد إلى يوم القيامة.³

ثم إنَّ القرآن قد فند كثيراً من العقائد والتقاليد اليهودية والنصرانية ، فكيف ينقضي النموذج الذي احتذاه على حد مزاعمهم.

هذا وقد وصف هوارت Hwart ما يردد عن تأثر الرسول صلى الله عليه وسلم بتطبيق الديانة المسيحية في سوريا ، فقال: "مهما كان إغراء الفكرة التي تقول بأن تفكير المصلح الشاب "محمد" قد تأثر بقوة عندما شاهد تطبيق الديانة المسيحية بسوريا فإنه يتحتم استبعادها نظراً لضعف الوثائق والأسس التاريخية الصحيحة⁴.

¹ المرجع السابق. ص 137 ، 138 نقلاً عن إسحاق تايلور في كتابه المسيحية القديمة . 1 / 266.

² - المائدة :14.

³ - دراز. المرجع السابق. ص 138.

⁴ - المرجع السابق. ص 138. نقلاً عن هوارت "مصدر جديد للقرآن . ص 119.

هذا ومن ضمن مزاعم المستشرقين ، وشبهاتهم حول مصادر الوحي التوراة والإنجيل وإنكارهم لأمية الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد أثار وات جدلاً مزيفاً حول فعل الأمر "اقرأ" الذي أمر به جبريل الرسول صلى الله عليه وسلم وتعرض للروايات الإسلامية التي أشارت إلى رد الرسول صلى الله عليه وسلم "ما أنا بقارئ" لتؤكد أمية الرسول لتأكيد الصفة الإعجازية للقرآن، ثم فسر عبارة ماذا أقرأ أو ما أقرأ بمعنى ماذا أتلو؟ أو ما أتلو؟ وقد استند وات في تفسير "ماذا أقرأ؟" و "ما أقرأ" إلى رواية ابن هشام والتي جاء فيها الآتي:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فجاءني جبريل وأنا نائم ، بنمط من ديباج فيه كتاب ، فقال "اقرأ" قال: قلت : ماذا أقرأ؟ قال: ففتني¹ به حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلني فقال: اقرأ قال: قلت: ماذا أقرأ؟ قال ففتني به حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلني فقال: " اقرأ "قال: قلت ماذا أقرأ .. الخ².

فالرسول صلى الله عليه وسلم حسب هذه الرواية ، قال للملك أولاً بأنه لا يعرف القراءة فلما فته ، قال له ماذا تريدني أن أقرأ ، وفسر ذلك صلى الله عليه وسلم بأنه إنما قاله افتداه منه أن يعود له بمثل ما صنع به ، فإذا كان وات يريد الاعتماد على رواية ابن هشام فلا شك أن القراءة فيها تعني قراءة شيء مكتوب ولا تعني التلاوة³.

1 - الفت: حبس النفس ، وفي المواهب حفظني وهو بمعنى فت.

2 - انظر ابن هشام . 1 / 236 ، 237.

3 - إدريس ، د. جعفر .مرجع سابق . ص 224.

ويؤيد هذا الرواية الأخرى التي ذكرها ، وهي رواية البخاري "ما أنا بقارئ ؛ إذ لا يمكن أن يكون معناها أنا لا أعرف القراءة بمعنى تلاوة شيء غير مكتوب ، لأنه وكل إنسان ليس في لسانه عاهة يعرف ذلك ، فإذا قيل للإنسان الذي يعرف القراءة بمعنى التلاوة "بأتل" فإنه لا يقول لا أعرف القراءة ، وإنما يقول ماذا أتلو ؟ فيكون السؤال هنا: سؤال استفهام عن الشيء المراد تلاوته ، ولا يكون نفيًا للمقدرة على التلاوة . وقد نقض الكاتب نفسه فقد قال أولاً إن "ما أقرأ" ينبغي أن تترجم I can't read or recite ثم قال أخيراً أن هذا الثاني يعني ماذا أقرأ what shall I recite هو المعنى لـ "ما أقرأ" فجعل "ما" في البداية نافية للقراءة وجعلها في النهاية استفهاماً عن القراءة.

وقد قال بعض العلماء استناداً على رواية "ما أنا بقارئ" وهي رواية صحيحة ، ولقد أوردها البخاري في صحيحه¹.

إن "ما" ليست استفهامية قال ابن كثير فالصحيح أن قوله "ما أنا بقارئ" نفي أي لست محمد يحسن القراءة ، وممن رجحه النووي وقبله الشيخ أبو شامة²، ومن قال إنها استفهامية، فقوله بعيد لأن لو كانت "ما" استفهامية لم يصلح دخول الباء ، بل الباء "وهي زائدة" لتأكيد النفي ، والتقدير لست بقارئ البتة.³

1 - انظر فتح الباري . كتاب بدء الوحي . الحديث رقم 3 ، 1 / 32 ، 33.

2 - إدريس د. جعفر . مرجع سابق . ص 224.

3 - ابن حجر . فتح الباري ، . 35/.

ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى : ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾¹

فهذا النص القرآني يؤكد بصريح العبارة أنه لم يسبق له أن قرأ كتابًا قبل القرآن أو كتب بيده.

ومعارضوه كانوا يعرفون فيه هذه الأمية جيدًا، لأنهم عندما أرادوا تقليل المصدر الذي تلقى عنه أساطير العصور القديمة ، لم يجرأوا أن يقولوا كتبها وإنما قالوا أكتتبها أي كتبها له غيره ، ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمَلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾²

ومع اختلاف هاتين العبارتين تمام الاختلاف إلا أنه التبس معناه على بعض المستشرقين مثل لوبلوا ، ولو فرضنا أنه كان يعرف القراءة ، فقد كانت هناك عقبة يستحيل تذليلها ، لأن في هذا الوقت ، لم تكن قد وجدت بعد تورا أو إنجيل باللغة العربية³، ووجود هذه الوثائق بلغات أجنبية جعلها حكرًا لبعض العلماء المتحدثين بأكثر من لغة الذين حفظوها بعناية ، بل لقد وصفهم القرآن بالبخل بما عندهم من العلم ، بحيث أنهم لم يكونوا يتنازلون عن بعض أوراق من التورا إلا مع حرصهم على إخفاء الجزء الأكبر منها ، ولقد أوضح هذا قوله تعالى : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّنْ شَيْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۗ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۗ وَعُلِّمْتُمْ

1 - العنكبوت : 48.

2 - الفرقان : 5.

3 - سبق أن أشرت إلى أن أقدم ترجمة عربية للعهد الجديد لن تعود إلى أبعد من القرن الحادي عشر.

مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ تَعَالَى ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿١﴾¹
 ويكشف الوحي والمدني وسائلهم الأخرى لإخفاء العلم شفويًا وتحرييرًا بقوله
 تعالى : ﴿إِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُوءُونَ لِأَسِنَّتِهِمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا
 هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى
 اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٢﴾²، وقوله تعالى ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ
 بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾³،⁴

ولكن وات تجاهل كل هذه الحقائق عندما قال "يكاد يكون من
 المؤكد أن رواة الأحاديث المتأخرين تحاشوا المعنى الطبيعي لهذه الكلمات
 التي يجدون فيها ما يسند الاعتقاد بأن محمدًا لم يكن يقرأ وقد كان ذلك
 جزءً هامًا من البرهان على إعجاز القرآن".⁵

وهنا نجد وات يتهم رواة الأحاديث المتأخرين بعدم الموضوعية في
 سردهم للروايات والأخذ منها ما يريدون إثباته ، وإن لم يكن يجرأ بالتصريح
 باتهامهم بالتحريف ، مع أنه لا يعترف على الأقل بالنسبة للزهري أنه روى
 ما وصله كما وصله.

وهذا اتهام خطير يوجهه وات لرواة الأحاديث المتأخرين وواضح أن
 رغبة وات في إثبات عدم أمية الرسول صلى الله عليه وسلم جرتة إلى

1 - الأنعام : 91.

2 - آل عمران : 78.

3 - البقرة 79.

4 - دراز. د. محمد عبد الله . مدخل إلى القرآن الكريم . 141.

5 - محمد في مكة ، ص 46.

الوقوع في هذا المنزلق الذي يخالف أسس وقواعد المنهج العلمي، وقد كشف وات عن دافعه الحقيقي في عدم الأخذ بالمعنى الذي ذكره العلماء المسلمون في كتاب آخر¹.

يقول وات: "إنّ الإسلام التقليدي يقول بأنّ محمداً لم يكن يقرأ ولا يكتب ولكن هذا الزعم مما يرتاب فيه الباحث الغربي الحديث لأنّه يقال لتأكيد الاعتقاد بأنّ إخراج القرآن كان معجزاً. وبالعكس لقد كان كثيراً من المكيين يقرأون ويكتبون ، ولذلك يفترض أنّ تاجر ناجح كمحمد لا بد أن يكون قد عرف شيئاً من هذه الفنون².

ويلاحظ هنا أنّ وات قد خلط بين الارتباب والرفض ، فإن كان للباحث أيّاً كانت صفته يرتاب فيما يدعيه خصمه تأييداً لدعوته ، ولكن الباحث المنصف عليه أن يتخذ خطوات ليثبت من يرتاب فيه ، فإن وجوده كما قال خصمه فعليه أن يقبله ولو كان فيه تأييد لأمر كان ينكره ، وإن وجده غير ذلك عدّه تأييداً لدعواه هو. أمّا أن يرفض كل ما يدعيه خصمه مما يؤيد زعمه لمجرد أنّه يؤيد هذا الزعم فمسلك لا ينتهجه باحث منصف ، فسيقول له الخصم : وأنت إنّما رفضته لأنّ قبوله يضعف دعواك ، وقبلت ضده لأنّه يؤيدها.

أما افتراضه بضرورة عدم أمية التاجر الناجح ، فهو افتراض في غير محله ؛ إذ يوجد في زماننا هذا تاجر ناجحون أميون ، فكيف قبل

1 - محمد نبي ورجل دولة، ص 39 . 40.

2 - محمد نبي ورجل دولة. ص 39 . 40.

أربعة عشر قرناً؟ أمّا قوله بأنّ أمية الرسول صلى الله عليه وسلم جزء من البرهان على إعجاز القرآن فهو قول غير صحيح ، لأنّ أمية الرسول صلى الله عليه وسلم من الأدلة التي تؤيد إعجازه وليست دليلاً ضرورياً ، ويؤيد هذا قوله تعالى ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِأَرْتَابِ الْمُبْطِلُونَ﴾¹ فلم يقل إذن لثبت أنّ القرآن ليس وحياً" وإنما قال "إذن لارتاب المبطلون" أي لوجد الجاهلون في ذلك شبهة يتمسكون بها.

وبعد كل هذه الشكوك والافتراضات يجزم وات أنّ محمداً لم يقرأ الإنجيل ولا يتوقع أنه قرأ كتباً أخرى ، فيقول: "إنّ شكل المادة الإنجيلية في القرآن يجعلنا نجزم أنّ محمداً لم يقرأ الإنجيل ، ومن غير المحتمل أن يكون قد قرأ أي كتب أخرى².

إذن لماذا يصر وات على أنّ محمداً كان يقرأ ويكتب ما دام قرر في النهاية بأنّ محمداً صلى الله عليه وسلم لم يقرأ كتاباً قط؟.

قد يكون البحث اضطره إلى الوصول إلى هذه النتيجة بعد ما تبين له أنّ القرآن الكريم لا يتطابق مع ما جاء في التوراة والإنجيل ، فاضطر أن يقول بأنّه لم يقرأ الإنجيل وأنّ ما حصل عليه من معرفة عن المفاهيم اليهودية والنصرانية لابد أن يكون قد حصل عليه شفاهة ، ولو كان هذا صحيحاً لكانت معلومات محمد صلى الله عليه وسلم من اليهودية

1 - العنكبوت : 48.

2 - محمد نبي ورجل دولة . ص 40.

والنصرانية حتى قبل مبعثه أكثر من معلومات رجل كورقة بن نوفل ، فلماذا تأخذه زوجته خديجة إليه ؟

ولماذا يفترض ورقة أنّ محمداً لا يعرف شيئاً عن الناموس الذي جاء لموسى ، واما حصل للأنبياء قبله؟

ولماذا يتساءل هو مستغرباً أو مخرجيهم ؟ حين قال له ورقة ليتني أكون حياً ؛ إذ يخرجك قومك ، ومع ذلك يقول وات "من الأيسر أن نفترض محمداً كثيراً ما كان يتصل بورقة في وقت مبكر ، وأنّه يعلم شيئاً كثيراً ذا صفة عامة¹.

الحالة التي يكون عليها الرسول صلى الله عليه وسلم عند نزول الوحي عليه

لقد وصف مرجليوث حالة الرسول صلى الله عليه وسلم بالصرع عند نزول الوحي عليه ، ونفي هاملتون جيب والفريد جيوم وبودلي حالة الصرع هي أكبر من دحض ما زعمه مارجليوث لأنّ هؤلاء المستشرقين ، كما رأينا حاولوا قدر استطاعتهم إثارة الشبهات حول الرسول صلى الله عليه وسلم عن طريق الأخذ بالروايات الضعيفة أو الشاذة ، ووضع الافتراضات التي يريدونها بل يجبرنا على القارئ أن يقتنع بتلك الافتراضات ، وهي مبنية

1 - د. إدريس. مرجع سابق . ص 226.

على أسس باطلية ، فكون هؤلاء ينفون على الرسول صلى الله عليه وسلم إصابته بالصرع ، فنفيهم هذا رد على كل من يزعم هذا الزعم.

أمّا ما نسبته الفريد جيوم إلى المفسرين أنّهم ذكروا أنّه كان صلى الله عليه وسلم عرضة لنوبات الصرع ، فهو زعم باطل فلقد ورد في الصحيحين ما كان يعالج من التنزيل شدة¹.

فكان جبينه يتفصد عرقاً في اليوم الشديد البرد². وكان وجهه يتغير ويكرب وجسمه يثقل ، يقول زيد بن ثابت: "قأنزل الله على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفخذه على فخذي فتقلت عليّ حتى خفت أن ترصد فخذي وكان يركز ذهنه بشدة لحفظ القرآن، فيحرك به لسانه وشفتيه: فنزلت الآية ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾³،⁴ تخفيفاً عنه صلى الله عليه وسلم ، وكان شوقه إليه وحرصه عليه يدفعه إلى التعجل في تلقيه كما بين ذلك قوله تعالى : ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾⁵

وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يأتيه الوحي؟ فقال: (أحياناً⁶ يأتيني في مثل صلصلة¹ الجرس ، وهو أشده عليّ يفصم² عني وقد وعيته. أحياناً ملك في مثل صورة الرجل فأعني ما يقول)³

1 - صحيح البخاري. كتاب بدء الوحي. 1 / 22.

2 - صحيح مسلم. كتاب الفضائل حديث رقم 2334 ، 4 / 1817.

3 - القيامة : 16-17.

4 - صحيح البخاري. كتاب بدء الوحي ، 1 / 23.

5 - طه : 114.

6 - الأحيان: الأزمان ويقع على القليل والكثير ، محمد فؤاد عبد الباقي ، حاشية صحيح مسلم ، 4 / 1817.

فترة انقطاع الوحي

لقد استند كل من الفريد جيوم ووات وبودلي على رواية الزهري التي أوضح فيها الأزمة التي تعرض فيها الرسول صلى الله عليه وسلم لانقطاع الوحي ، وأنه كان يتردى من شواهد الجبال. وأن جبريل عليه السلام كان يظهر له في كل مرة يبشره بأنه رسول الله ، وبلاغ الزهري هذا لا يصلح لإثبات الحادثة لتعارضه مع عصمة النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم أنه مرسل ضعيف⁴.

فقد ساق البخاري الخبر بعد عبارة - فيما بلغنا - . الذي رواه بسنده من طريق معمر، قال الزهري: "فأخبرني عروة عن عائشة لا يوجد عبارة فيما بلغنا لصار خبر محاولة التردى من الشواهد صحيحًا" ، ولكن ابن حجر ذهب إلى أنه بلاغ مرسل ، وليس موصولاً من رواية عروة عن عائشة ، ومراسيل الزهري ضعيفة ، وقد أورد الطبري الخبر عن مرسل الزهري⁵ ، ويرى الدكتور أكرم العمري صنيع الذهبي في سوق سند حديث

1 - صلصلة: الصلصلة الصوت المتدارك، وقال الخطابي : " معناه أنه صوت متدارك يسمعه ولا يثبته ، أو

أول ما يقرع سمعه حتى يفهمه من بعد ذلك ،"محمد فؤاد عبد الباقي ، حاشية صحيح مسلم ، 4 / 1817

2 - يفصم أي يقلع ، وينجلي ما يتغشاني منه .

3 - صحيح مسلم . كتاب الفضائل حديث 2333 ، "ب" ، 4 / 1817 ، صحيح البخاري . كتاب بدء الوحي .

1 / 21 .

4 - العمري . السيرة النبوية الصحيحة . 1 / 126 .

5 - تاريخ الطبري . 2 / 384 .

بدء الوحي مع اقتصاره على متن خبر محاولة التردّي من شواهد الجبال على أن يرى وصل الحديث¹.

كذلك وصله الطبري في تاريخه من رواية النعمان بن راشد الجذري عن الزهري² والنعمان صدوق سيء الحفظ³، وقد تفرد بزيادات ضعيفة في هذا الخبر خاصة فيما يتعلق بأول ما نزل من القرآن بعد اقرأ، ويذكر الألباني أنّ هذه الزيادة لها علان، الأول تفرد معمر بها دون مع نسي وعقيل فهي شاذة، والأخرى أنّها مرسلّة مفصلة ولم تأت من طريق موصولة يحتج بها، وهي زيادة منكّرة من حيث المعنى، لأنّه لا يليق بالنبي المعصوم أن يحاول قتل نفسه بالتردّي من الجبل مهما كان الدافع له في ذلك⁴.

هذا وقد ساق البخاري في صحيحه رواية عن الزهري عن أبي سلمة بن عبد الرحمن؛ أنّ جابر بن عبد الله الأنصاري قال: وهو يحدث عن فترة الوحي، فقال في حديثه: (بينما أنا أمشي وسمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرعبت منه، فرجعت فقلت: زملوني زملوني فأنزل الله تعالى:

1 - الزهري . السيرة النبوية . ص 71، 72، 73 .

2 - تاريخ الطبري . (1407هـ / 1987م) 1 / 283 ، 184 . دار الفكر . ط 1 .

3 - ابن حجر . تهذيب التهذيب . ص 494 . مؤسسة الرسالة .

4 - الألباني ، محمد ناصر . سلسلة الأحاديث الضعيفة . 3 / 162 . مكتبة المعارف .. الرياض "

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنْذِرْ . وَرَبِّكَ فَكْبِّرْ . وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ . وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾
فحمي الوحي وتتابع)1.

كما أخرجه البخاري في أول التعبير من صحيحه من طريق عبد الله بن محمد وهو أبو بكر أبي شيبة: حدثنا عبد الرزاق به بهذه الزيادة ، وأخرجه مسلم عن طريق محمد بن رافع: حدثنا عبد الرزاق به إلا أنه لم يسق لفظه ، وإنما أحل فيه على لفظ قبله من رواية يونس عن ابن شهاب ، وليس فيه عنده قصة التردى مطلقاً، وهذه الرواية عند البخاري أيضاً في التفسير²، ليس فيها القصة. أمّا ما جاء في التفسير عن ابن مردويه: من طريق محمد بن كثير³، بإسقاط قوله: "فيما بلغنا" ولفظه "فترة حزن النبي صلى الله عليه وسلم فيها حزناً غداً منه" الخ، فصار كله مدرجاً على رواية الزهري وعن عروة وعن عائشة ، والأول هو المعتمد.

وخلاصة القول: إنّ هذا الحديث ضعيف لا يصح لا عن عبد الله بن عباس ، ولا عن عائشة رضي الله عنهم، وقد نسبه الشيخ الألباني في تعليقه على كتاب مختصر صحيح البخاري على أن بلاغ الزهري هذا ليس

1 - صحيح البخاري. كتاب بدء الوحي، 1 / 22 ، 23.

2 - صحيح البخاري. كتاب التفسير . 3 / 1575 حديث 4925.

3 - محمد بن كثير. هو الصنفاني قال عنه الحافظ في التقریب "صدوق كثير الغلط" ص 438 ، وأورده الذهبي في الضعفاء . وقال ضعفه أحمد. ، وقال عنه الشيخ الألباني: مثله لا يحتج به، إذ لم يخالف، فكيف = على المخالفة، فكيف ومن خالفهم ثقات عبد الرزاق ويونس وابن زيد ومعهما زيادة؟ [الألباني. سلسلة الأحاديث الضعيفة . 3 / 163].

على شرط البخاري كي لا يغتر أحد من القراء بصحته لكونه في الصحيح¹.

الخبر عن إسرائيل وأنه بلغ الوحي ثلاث سنوات

لقد أنفرد وات وبودلي بالقول إنَّ إسرائيل كان هو الذي يبلغ الرسول صلى الله عليه وسلم الوحي مدى ثلاث سنوات ، وقد وردت في فتح الباري لابن حجر العسقلاني هذه الرواية: "وقع في تاريخ أحمد بن حنبل عن الشعبي أنّ مدة فترة الوحي كانت ثلاث سنين ، وبه جزم ابن إسحاق ، وحكى البيهقي أنّ مدة الرؤيا كانت ستة أشهر ، وعلى هذا فابتداء النبوة بالرؤيا وقع من شهر مولده ، وهو ربيع الأول بعد إكماله أربعين سنة وابتداء وحي اليقظة وقع في رمضان ، وليس المراد بفترة الوحي المقدرة بثلاث سنين ، وهي ما بين نزول إقرأ ويا أيها المدثر عدم مجيء جبريل إليه، بل تأخر نزول القرآن فقط. ثم راجعت الفقول عن الشعبي من تاريخ الإمام أحمد ، ولفظه من طريق داود بن أبي هند عن الشعبي ، أنزلت عليه النبوة وهو ابن أربعين سنة ، فقرن بنبوته إسرائيل ثلاث سنين ، فكان يعلمه الكلمة والشيء ، ولم ينزل عليه القرآن على لسانه.

فلما مضت ثلاث سنين قرن بنبوته جبريل ، فنزل عليه القرآن على لسانه عشرين سنة ، وأخرجه بن أبي خيثمة من وجه آخر مختصراً عن داود بلفظ بعث لأربعين، ووكل به إسرائيل ثلاث سنين ، ثم وكل به جبريل ، فعلى هذا فيحسن بهذا الرسل إن ثبت الجمع بين القولين في قدر إقامته

¹ - الألباني. سلسلة الأحاديث الضعيفة . 3 / 163.

بعد البعثة ، فقد قيل ثلاث عشرة ، وقيل عشر ، ولا يتعلق ذلك بقدر مدة الفترة ، والله أعلم ، وقد حكى ابن التين هذه القصة ، لكن وقع عنده ميكائيل بدل إسرافيل ، وأنكر الواقدي هذه الرواية المرسلة ، وقال: لم يقرن به من الملائكة إلا جبريل .. انتهى¹.

هذا وقد أخذ السهيلي هذه الرواية ليجمع بها المختلف في مكثه صلى الله عليه وسلم ، ولكن الذي اعتمده السهيلي من الاحتجاج برسل الشعبي لا يثبت ، وقد عارضه ما جاء عن ابن عباس أنّ مدة الفترة المذكورة كانت أياماً².

معنى تحنّث

قبل أن ننتقل إلى قصة الغرانيق لنا وقفة مع تفسير وات لمعنى تحنث ، فقد حاول أن يطبق المنهج الفيولوجي عليها ، فقال إنّها مشتقة من العبرية من كلمة : تحنوث" التي تعني الصلاة لله ، ثم عاد وتراجع وقال إنّها مشتقة من أصل عربي لأنّها تعني في هذه اللغة نقض القسم والعهد أو العجز عن تنفيذه ، كما تعني بالمعنى العام الخطيئة ، والحنث يعني القيام بعمل للفرار من خطيئة أو جريمة.

ولا شك أنّ تأويلاته لمعنى تحنث خاطئة وفيها خلط بين حنث و "حنث" الحنث ، فالتحنث غير حنث والحنث ، فالتحنث التعبد ، وحنث

1 - ابن حجر . فتح الباري . 1 / 40.

2 - المرجع السابق . ص 40.

"بتشديد النون" تعبد و اعتزل الأصنام¹، أما "الحنث" بكسر الحاء، الإثم ، وحنث "بكسر النون" في عينه أي إثم².

وقد أوضح ابن حجر معنى قوله "فيتحنث" ، فقال: هي بمعنى يتحنف أي يتبع الحنيفية ، وهي دين إبراهيم ، والفاء تبدل ثاء في كثير من كلامهم ، وقد وقع في رواية ابن هشام في السيرة يتحنف بالفاء³. ويتحنث أي يفعل ضللاً يخرج به من الحنث ، وهو الإثم والحرج ، ويقال هو يتحنث: أي يتعبد الله⁴.

ومن هنا نلاحظ أنّ وات استبعد معنى التعبد إلى الله ، والتحنف وهو المقصود في الحديث ، وذكر المعاني الأخرى ، ولست أدري ما الذي يقصده من بعده عن المعنى الحقيقي لهذه الكلمة ، وأخذه بمعنى الفرار من خطيئة أو جريمة؟.

هل يريد بقوله هذا الإيحاء بشيء معين؟ مع أنه لا توجد شواهد أو دلائل أو مجرد إشارات إلى ما يريد الإيحاء به ، فسيرته صلى الله عليه وسلم عطرة ونقية من كل ما يحاول الإيحاء به.

1 - لسان العرب . 2 / 138.

2 - المرجع السابق . 2 / 138.

3 - ابن حجر . فتح الباري . 1 / 34.

4 - ابن منظور . لسان العرب . 2 / 139.

و . قصة الغرائيق¹ وتأکید المستشرقين لها مع ضعفها متناً وسنداً

لقد استغل المستشرقون ومنهم وليم موير ، ودافيد صموئيل مرجليوث ، والفريد جيوم ، ومونتجمري وات ، وبودلي ، قصة الغرائيق وتمسكوا بها ، ذلك لأنهم وجدوا فيها ما يوافق أهواءهم وما يريدون إثباته ، وبنوا عليها بعض الأكاذيب ، وإن كان بعضهم قد رفضها بواقع الاستدلال التاريخي مثل كايثاني² .

هذا ولقد أورد وليم موير رواية الطبري ، وكذلك مرجليوث ووات ، أمّا الفريد جيوم فلم يذكر مصدره³ ، وكما يبدو أنه أخذ برواية ابن سعد ، أمّا بودلي فلم يذكر هو الآخر مصدره .

والذي يهمنا ما مدى صحة هذه الروايات؟ وما موقف علماء الحديث والمفسرين وكتاب السيرة منها؟

لقد أنكرها ابن إسحاق في سيرته ، وعندما سئل عنها قال: هذا من وضع الزنادقة ، وقد تجاهلها ابن هشام أيضاً في سيرته ، وهو الذي جمع سيرة ابن إسحاق ودونها ونقدها وأضاف إليها وفحص الروايات الواردة بها ، فذكر نقلاً عن ابن إسحاق: وبلغ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين خرجوا إلى أرض الحبشة إسلام أهل مكة ، فأقبلوا لما بلغهم من ذلك

¹ - الغرائيق : هي في الأصل المذكور عن طير الماء ، وإحداها غرنوق كفردوس أو غرنوق كعصفور ، وكانوا يزعمون أنّ الأصنام تقربهم من الله وتشفع لهم فشبهت الطيور التي ترتفع في السماء وتعلو [. عبد العال ، . د . أحمد . دفاع عن نبي الإسلام . ص 30]

² - تعليق د . مصطفى هدارة . حاشية . ص 36 من كتاب جيوم . الإسلام .

³ . - See Book Giullium, Islam P. 24435 .

، حتى إذا دنوا من مكة بلغهم أن ما كانوا تحدثوا به من إسلام أهل مكة كان باطلاً ، فلم يدخل منهم أحداً إلا بجوار أو مستخفياً¹ ، فلم يتعرض هذا المؤرخ إلى أن سبب رجوع مهاجري مكة كان إلى قصة الآيات الشيطانية ، وهو كما ترى من أقدم المصادر التي تناولت السيرة وأكثرها قرباً من الحوادث الواقعة في الزمن المبكر للدعوة الإسلامية ، ولو كانت هذه الحادثة صحيحة لما غفل عنها ابن إسحاق أساساً².

وكذلك تجاهلها ابن عبد البر (368 - 463 هـ / 978 - 1070م) في درره ؛ إذ ذكر عودة بعض المهاجرين بالحبشة إلى مكة فقال: "ثم اتصل بمن كان في أرض الحبشة من المهاجرين أن قريشاً قد أسلمت ودخل أكثرها إلى الإسلام خبراً كاذباً"³ ، ولم يشر إلى قصة الغرانيق ، مع أنها وردت في طبقات ابن سعد (ت 230 هـ / 844م) وتاريخ الطبري (ت 310 هـ / 922م).

كما تجاهلها ابن حزم (ت 456 هـ / 1063م) في جوامع السيرة النبوية، ولم يذكرها البتة ، وعند حديثه عن عودة بعض المهاجرين من الحبشة إلى مكة لم يشر إليها أيضاً؛ إذ قال: "ثم اتصل بمن كان في أرض الحبشة من المهاجرين أن قريشاً قد أسلمت ، وكان هذا الخبر كاذباً"⁴

1 - سيرة ابن هشام . 1 / 364.

2 - الحاج . الظاهرة الاستشراقية . 3 / 165.

3 - ابن عبد البر . الدرر في اختصار المغازي والسير . ص 57 ، تحقيق د . شوقي ضيف . ط3 . دار المعارف .. القاهرة .

4 - ابن حزم . (1415 هـ / 1994م) جوامع السيرة النبوية . ص 52 . ط1 . الشارقة . الإمارات . دار الفتح .

أما الذهبي (ت 748هـ / 1347م) فقد أوردها في كتابه السيرة النبوية وبين بطلانها¹، ولم يوردها ابن الأثير في الكامل²، أما صاحب السيرة الشامية الإمام محمد بن يوسف الصالحي الشامي ، (ت 942هـ / 1535م) لم يذكر هذه القصة البتة ، وقال عن عودة المهاجرين من الحبشة "قال ابن سعد قالوا لما قدم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم مكة من الهجرة الأولى أشد عليهم قومهم.. الخ"³.

أما الإمام برهان الدين الحلبي (ت 1044هـ / 1634م) أوردها وبين بطلانها⁴.

بطلان قصة الغرائق

وهذه الحادثة قد أوردها ابن سعد في طبقاته⁵، عن محمد بن عمر قال: حدثني يونس بن محمد بن خضالة الظفري عن أبيه ، قال: حدثني كثير بن زيد عن المطلب بن عبد الله بن حنطب قال: رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم من قومه كفا عنه ، فجلس خاليًا فتمنى فقال: "ليته لا تنزل على شيء ينفرهم عني" وقارب رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه ، ودنا منهم ودنوا منه ، فجلس يومًا مجلس في ناد من تلك الأندية حول الكعبة

1 - (1409هـ / 1988م) السيرة النبوية. ص 112، 113 . تحقيق حسام الدين القديسي . ط2. بيروت . لبنان . دار الكتب العلمية.

2 - ابن الأثير. 1 / 596.

3 - الشامي ، لإمام محمد بن يوسف . 1394هـ / 1974م) سبل الهدى . / 517 . تحقيق د. مصطفى عبد الواحد . القاهرة . المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.

4 - انظر السيرة الحلبية: ص 324 . 327.

5 - ابن سعد . الطبقات . ط1 . ص 139 ، 140 .

فقرأ عليهم ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنْطِقُ
عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ
* وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ
* فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا
يَرَىٰ * وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ * إِذْ
يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ * لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ
الْكُبْرَىٰ * أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿¹ ألقى الشيطان
كلمتين على لسانه (تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهم لترجى)، فتكلم رسول
الله صلى الله عليه وسلم بهما، ثم مضى وقرأ السورة كلها، وسجد القوم
جميعاً ، ورفع الوليد بن المغيرة تراباً على جبهته فسجد عليه ، وكان شيخاً
كبيراً لا يقدر على السجود ، ويقال: "إنَّ أبا أميمة سعيد بن العاص أخذ
تراباً فسجد عليه رفعه إلى جبهته ، وكان شيخاً كبيراً ، فبعض الناس يقول:
إنَّما الذي رفع التراب الوليد ، وبعضهم يقول أبو أميمة ، وبعضهم يقول
كلاهما جميعاً فعل ذلك ، فرضوا بما تكلم به رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، وقالوا عرفنا أنَّ الله يحيي ويميت ويخلق ويرزق ، ولكن آلهتنا هذه
تشفع لنا عنده ، وأما إذا جعلت لها نصيباً فنحن معك ، فكبر ذلك على
رسول الله صلى الله عليه وسلم من قولهم حتى جلس في البيت ، فلما
أمسى أتاه جبريل عليه السلام فعرض عليه السورة ، فقال جبريل: "جئتك²

¹ - النجم : 1 - 20.

² - كذا في الأصل وهو جائز في الاستفهام الإنكاري، وفي القرطبي نقلاً عن الواحدي "ما جئتك" [الألباني. (1409هـ / 1989م) نصب المجانيق لنسف الغرانيق . ص 16. ط2 . بيروت . المكتب الإسلامي .

بهاتين الكلمتين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "قلت على الله ما لم يقل" فأوحى الله إليه ﴿وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفتري علينا غيره وإذا لاتخذوك خليلاً﴾ إلى قوله "ثم لا تجد لك علينا نصيراً"¹.

وهذه الرواية إسنادها ضعيف جداً، لأنَّ محمد بن عمر هو الواقدي ، وقال عنه ابن حجر في التقريب "متروك مع سعة علمه"²، وشيخه في الإسناد الأول يونس بن محمد ، ووالده محمد بن خضالة ، ولا توجد لهما ترجمة ، وأوردها ابن أبى حاتم ولم يذكر فيهما جرماً ، ولا تعديلاً، وفي إسناده كثير بن زيد وهو الأسلمي الذي مختلف فيه ، وقال الحافظ "صدوق يخطئ"³.

ثم هو مرسل ، فإنَّ المطلب بن عبد الله بن حنطب كثير التدليس والإرسال ، كما جاء في التقريب⁴.

ولذلك قال القرطبي بعد أن ساق الرواية الثانية ، وحكى عن النحاسي تضعيفهما ، كما سبق نقله عنه هناك.

قلت: فنذكره مختصر، ثم قال: "قال النحاسي: هذا حديث منكر منقطع ، ولا سيما من حديث الواقدي⁵، أما الطبري فلقد أخرجها في تاريخه¹ وتفسيره².

1 - الإسراء : 73 . 75 .

2 ابن حجر . لتقريب . ص 33"

3 - الألباني: نصب المجانيق . مرجع سابق . ص 16 .

4 - ابن حجر . التقريب . ص 467 .

5 - الألباني . نصب المجانيق . ص 16 .

I- عن داود أبي هند عنه وإسناده صحيح إلى أبي العالية ، لكن علته الإرسال ، وكذلك رواه ابن المنذر وابن أبي حاتم³.

II- عن طريق أبي معشر⁴ عن محمد بن كعب القرظي ومحمد بن قيس ، وأبو معشر ضعيف كما قال الحافظ في التقريب ، واسمه نجيح بن عبد الرحمن السندي⁵.

III- أخرجه من طريق ابن إسحاق⁶ من يزيد بن زياد المدني عن محمد بن كعب القرظي وحده به أتم منه ، ويزيد ثقة لكن الراوي عنه ابن إسحاق مدلس وقد عنعنه⁷.

IV- كما أخرجه الطبري⁸ قال: "حدثت عن الحسين قال: سمعت معاذًا يقول: أخبرنا عبيد قال: سمعت الضحاك يقول: الخ.

يقول الشيخ الألباني: هذا إسناد ضعيف منقطع مرسل ، والضحاك هذا الظاهر أنه ابن مزاحم الهلالي الخراساني ، وهو كثير الإرسال ، كما قال الحافظ "ابن حجر" حتى قيل إنه لم يثبت له سماع من أحد الصحابة ، والراوي عنه عبيد وهو ابن سليمان الباهلي وروى عن الضحاك بن مزاحم

1 - انظر تاريخ الطبري . 2 / 419 ، 423 .

2 - انظر تفسير الطبري . ج 10 تفسير آية 52 من سورة الحج

3 - الألباني . نصب المجانيق . ص 11 وانظر تفسير الطبري . 2 / 247 تفسير آية 52 من سورة الحج

4 - تاريخ الطبري . 2 / 422 ، 423 ، انظر تفسير الطبري . 1 / 244

5 - الألباني . نصب المجانيق . ص 11 .

6 - انظر تاريخ الطبري . 2 / 419 ، وانظر تفسير الطبري . 10 / 245 .

7 - الألباني . نصب المجانيق . ص 12 .

8 - انظر تفسير الطبري . 10 / 248 تفسير قوله تعالى "وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي"

، وعنه جمع منهم أبو معاذ الفضل بن خالد النحوي: قال في التقريب : "لا بأس به."

وأبو معاذ هو الفضل بن خالد النحوي أورده ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ، ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلاً، والراوي عنه الحسين ابن الفرج أبو علي ، وقيل أبو صالح ، ويعرف بابن الخياط البغدادي ، وهو ضعيف متروك، وله ترجمة في بغداد¹ ، وفي الميزان² واللسان³.

ج- كما أخرجه ابن جرير⁴، حدثني محمد بن سعد قال : "ثنى أبي قال: ثنا أبي عن أبيه عن ابن عباس... الخ

هذا إسناد ضعيف جدًا - كما يقول الشيخ الألباني - ومحمد بن سعد هو ابن محمد بن الحسن بن عطية بن جنادة أبو جعفر العوفي ترجمة الخطيب في تاريخ بغداد⁵ ، وقال: "كان لينا في الحديث"⁶ ووالده سعد بن محمد وروى عنه أحمد ، وقال فيه لم يكن ممن يتأهل أن يكتب عنه ، وعمه الحسين بن الحسن بن عطية متفق على ضعفه ، وأبوه الحسن ضعيف أيضًا بالاتفاق ، وقد أورده ابن حبان في الضعفاء ، وقال منكر

1 - الخطيب . تاريخ بغداد، 8 / 84 ، 85 وجاء في ترجمته أنه يحيى بن معين بن الخياط ، فقال ذاك نعرفه يسرق الحديث في الصغر توفي سنة 294 هـ ، كما قال عنه ابن أبي حاتم أنه متروك.

2 - الذهبي. ميزان الاعتدال . 1 / 545، جاء فيه قال ابن معين : كذاب يسرق الحديث وغيره، وقال أبو زرعة ذهب حديثه.

3 - الألباني . نصب المجانيق . ص 15.

4 - انظر تفسير الطبري : 10 / 247 ، 248، تفسير آية 52 من سورة الحج".

5 - الألباني : نصب المجانيق ، ص 17.

6 - الألباني . نصب المجانيق . ص 18.

الحديث.. وكذا والده عطية مشهور بالضعف ، هذا ومما تجد الإشارة إليه أن ما أورده ابن مروديه عن طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس ، ومن طريق أبى بكر الهزلى ، وأيوب عن عكرمة عن ابن عباس، ومن طريق سليمان التميمى عن حدثه عن ابن عباس ، فهذه الطرق الثلاث عن ابن عباس ضعيفة:

فالطرق الأولى فيها الكلبى وهو كذاب.

والطريق الثانية ففيها من يسلم.

والطريق الثالثة ففيها أبو بكر الهزلى ، قال الحافظ فى "التقريب" أخبارى متروك الحديث ، لكن قد قرن فيها أيوب ، والظاهر أنه السختيانى ، فلا بد أن يكون فى الطريق إليه من لا يحتج ، لأن الحافظ "ابن حجر" قال فى فتح البارى بعد أن ساقه من الطريق الثالث "وكلها ضعيف أو منقطع"¹.

د-أخرجه عن قتادة² من طريقين ، معمر عنه وهو صحيح إلى قتادة ، ولكنه مرسل أو مفصل³.

و- أخرجه عن سعيد⁴ بن جبير من طريقين ، عن شعبة عن أبى بشر عنه ، وهو صحيح الإسناد إلى ابن جبير، وهذا يعنى الشك فى الحديث¹.

1 - الألبانى. نصب المجانىق . ص 17.

2 - انظر تفسير الطبرى . 10 / 250.

3 - انظر تفسير الطبرى . 10 / 247.

4 - الألبانى . نصب المجانىق . ص 5.

وقد روى موصولاً عن سعيد ، ولا يصلح ، فلقد رواه البزار في مسنده عن يوسف بن حماد عن أمية بن خالد ، عن شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ، وهذا يعني الشك في الحديث².

هذا وما أورده بن سعد في طبقاته والطبري في تاريخه وتفسيره من روايات عن هذه الحادثة ، وكما تبين لنا ضعفها جميعاً من حيث الإسناد ، كما سيتضح لنا ضعفها متناً عندما أتطرق إلى الحديث عن ضعف متنها ، كما أوردها البيهقي في دلائل النبوة بإسناد ضعيف³.

وما أورده السهيلي⁴ (ت 581هـ / 1185م) عن هذه القصة ما أخرجه البيهقي (توفي 458هـ/1065م) في دلائل النبوة عن موسى بن عقبة ساقه من مغازيه ، وهو كما أسلفت إسناده ضعيف ، أما ما أورده ابن سيد الناس⁵ (ت 734هـ/1333م) عن هذه القصة هو ما ذكره السهيلي ، ثم أضاف "أنّ الحافظ عبد العظيم المنذري كان يرد هذا الحديث من جهة الرواة بالكلية" ، ثم ذكر "أنّ ما ذهب إليه أهل العلم من أنّ هذا الخبر فينبغي بهذا الاعتبار أن يرد إلى ما يتعلق به ، إلاّ إن يثبت بسند لا مطلق فيه بوجه ، ولا سبيل إلى ذلك ، فيرجع إلى تأويله.

1 - المرجع السابق . ص 5.

2 - المرجع السابق . ص 5.

3 - رزق الله . د . مهدي . السيرة النبوية . مرجع سابق . ص 199.

4 - السهيلي . الروض الأنف . 2 / 126.

5 - ابن سيد الناس . عيون الأثر . 1 / 140 ، 141.

وقد بين ابن كثير¹ (توفي 774 هـ / 1372م) أنه لم يرغب في ذكر هذه القصة لئلا يسمعها من لا يضعها عند مواضعها ، وهذه يقظة ووعي من ابن كثير لبيت ابن سعد والطبري كانا في مثل هذا الوعي ، وكما رأينا فقد سردا روايات ضعيفة سندًا وامتتًا وما كان ضروريًا إيرادها ، بل كان إغفالها وإهمالها هو الأصح والأصوب .

كما أشار ابن كثير إلى أصل القصة بقوله: "وأصل القصة في الصحيح قال البخاري: عن أبي معمر حدثنا ابن الوارث ، حدثنا أيوب عن عكرمة عن ابن عباس، قال: سجد النبي صلى الله عليه وسلم بالنجم ، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس ، انفرد به البخاري ومسلم ، ولما رأى الناقل المشركين قد سجدوا متابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم أعتقد أنهم أسلموا واصطلحوا معه ، ولم يبق نزاع بينهم ، فطار الخبر حتى مبلغ المهاجرة بالحبشة ، فظنوا صحة ذلك ، فأقبل منهم طائفة طامعين بذلك"² .

أمّا في تفسيره فقد ذكر أنّ ما أورده المفسرون عن قصة الغرانيق من روايات كلها من طرق مرسلة ، ولم يرها مسنده من وجه صحيح³ .

هذا هو موقف كتاب السيرة النبوية من هذه القصة ، وكما تبين لنا أنّ ابن سعد والطبري هما اللذين انفردا بسرد بعض الروايات عن هذه

1 - ابن كثير. البداية والنهاية . 3 / 98 .

2 - المرجع السابق . 3 / 98 ، 99 .

3 - انظر تفسير ابن كثير . 3 / 239 . 241 "تفسير آية 52 من سورة الحج"

القصة ، أمّا باقي كتاب السيرة ، فمنهم من تجاهلها ومنهم من بين بطلانها.

أمّا علماء الحديث فلم يروها أحد من أصحاب الكتب الستة والإمام أحمد بن حنبل ولا غيرهم من أصحاب الكتب المعتمدة¹.

أمّا ما ذكره المفسرون من هذه القصة ، فلقد اتضح لنا موقف الطبري ؛ إذ أورد الروايات التي أشارت إلى قصة الغرانيق دونما تعليق منه عليها ، وهذا هو منهجه الذي صرح به في مقدمة تاريخه أنّه يورد ما يسمعه ويترك الحكم النهائي للقارئ في تقبله الروايات أو رفضها طبقاً لجودة قريحته وفطنته ، وإن كان يستشف من كثرة اختلاف الروايات التي أوردتها حول قراءتها ومعناها أنّه لا يثق بصحتها².

أمّا ابن كثير فقد بين عدم صحة الروايات التي أوردتها المفسرون بصدد هذه القصة ، والقرطبي³ يرى أنّ الأحاديث المروية في نزول الآية 52 من سورة الحج ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكُمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ يرى أنّه لم يصحح منها شيء ، وقد شك في هذه القصة من أساسها واستبشع رواية الليث عن يونس عن الزهري عن أبي بكر بن عبد الصمد بن الحارث بن هشام والتي جاء فيها : "قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿والنجم إذا هوى﴾ فلما بلغ "أفرايتم اللات والعزى".

1 - رزق الله ، د. مهدي . السيرة النبوية . مرجع سابق. ص 199"

2 - د. الحاج. الظاهرة الاستشراقية . 3 / 163.

3 - القرطبي. الجامع لأحكام القرآن الكريم . 6 / 74 . 79 "تفسير آية 52 من سورة . الفكر .

ومناة الثالثة الأخرى" سها فقال: "إنّ شفاعتهم ترجى"، فلقية المشركون والذين في قلوبهم مرض وسلموا عليه وفرحوا ، فقال: "إنّ ذلك من الشيطان" فأنزل الله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ قال النحاسي: "هذا حديث منقطع وفيه هذا الأمر العظيم" ويضيف القرطبي بعد استبشاعه لهذه الرواية: "إنّ أقطع من هذا ما ذكره الواقدي عن كثير بن زيد عن المطلب بن عبد الله قال: "سجد المشركون كلهم إلا الوليد بن المغيرة، أخذ ترابًا من الأرض ورفعها إلى جبهته ، وقيل إنّه أبو أميمة سعيد بن العاص ، ثم يورد تعليق النحاسي عليه: "بأنّ هذا حديث منكر منقطع ، ولا سيما من حديث الواقدي ، ثم يورد القرطبي رأي ابن عطية حول هذه القصة التي ينكرها بدوره ، ويرى أنّ البخاري ومسلم لم يدخلوا حديث الغرائيق ، ولم يذكرها أي مصنف مشهور وأنّ هذا الأمر لا يجوز على النبي وهو المعصوم في التبليغ ، وإنّما الأمر أنّ الشيطان نطق بلفظ سمعه الكفار".

أما أبو بكر بن العربي فقد أبطل هذه القصة بعد أن ذكر سبب نزول آية 52 من سورة الحج ، وقد أبطلها من عشرة أوجه¹. منها :

- أنّ الله قد عصم رسوله من الكفر وأمنه من الشرك .
- أنّ التباس الأمر على الرسول صلى الله عليه وسلم ، فلم يميز الشيطان من الملك ، وقيل ما يردده الشيطان عليه كفر لا يجوز ، كما أنّه يتنافى مع ما يعرفه الرسول صلى الله عليه

¹ - انظر تفسير القرآن لابن العربي، ونصب المجانيق للألباني. ص 26 . 29.

وسلم من حال القول عن الأصنام ، فكيف لا يفطن لصفة الأصنام بأنّها "الغرائيق العلى ، وأنّ شفاعتهن ترحى" .

• أنّ هذه الآية دليل على براءة الرسول صلى الله عليه وسلم فيما نسب إليه ، فمعنى الآية أنّ الشيطان زاد فيما قاله النبي صلى الله عليه وسلم لا أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قاله ، وذلك أنّ النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ تلا قرآنًا مقطوعًا وسكت في مقاطع الآي سكوتًا محصلًا، وكذلك كان حديثه مترسلًا فيه متأنياً ، فتبع الشيطان تلك السكتات التي بين قوله ﴿ومناة الثالثة الأخرى﴾¹ ، وبين قوله تعالى ﴿الكم الذكر وله الأنثى﴾² ، فقال يحاكي صوت النبي صلى الله عليه وسلم "وإنهن الغرائقة العلى وإن شفاعتهن لترجى" فأما المشركون والذين في قلوبهم مرض لقلة البصيرة وفساد السريرة فتلوها عن النبي صلى الله عليه وسلم ونسبوها بجهلهم إليه.

نأتي الآن إلى مفسري بعض الفرق فمن مفسري المعتزلة الزمخشري ، والبيضاوي ، أما الزمخشري³ (توفي 528هـ / 1133م) ، فهو يرد قصة الغرائيق طبقاً لرواية الطبري ، ويرى أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم أراد مقاربة قومه فتمنى لفرط ضجره من إعراضهم ولحرصه وتهالكه على إسلامهم ألا ينزل عليه ما ينفرهم لكي يستميلهم ويردهم عن غوايتهم ،

1 - النجم :20.

2 - النجم : 21.

3 - الزمخشري. الكشاف ، 3 / 37 . دار المعرفة.

وعندما قرأ سورة النجم وسوس له الشيطان فسبق لسانه على سبيل السهو والغلط إلى أن قال "تلك الغرائق العلى وإن شفاعتهن لترجى" وروى الغرانيقة ولم يفتن له حتى أدركته العصمة فتنبه عليه وقيل نبهه جبريل عليه السلام أو تكلم الشيطان بذلك فأسمعه الناس ، فلما سجد في آخرها سجد معه جميع من في النادي.."

ولكن البيضاوي (ت 791هـ / 1388م) لم يحذو حذو الزمخشري في هذه الرواية؛ إذ يرد هذه الرواية قائلاً: "وهو مردود عند المحققين" ثم يفسر قوله تعالى ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته﴾ بمثل ما ذهب إليه الزمخشري وابن العربي فيقول: "وأمنيته قراءته وإلقاء الشيطان فيها أن تكلم بذلك رافعاً صوته بحيث ظن السامعون أنه من قراءة النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد رد أيضاً بأنه بخل بالوثوق على القرآن ولا يندفه بقوله..".

أمّا الإمام الشوكاني¹ (توفي 1250هـ / 1834م) وهو من الزيدية فقال: " ولم يصح شيء من هذا ، ولا ثبت بوجه من الوجوه ، ومع عدم صحته بل بطلانه فقد دفعه المحققون بكتاب الله سبحانه ، قال تعالى: ﴿ولو تقول علينا بعض الأقاويل. لأخذنا منه باليمين. ثم لقطعنا منه الوتين﴾² ، وقوله ﴿وما ينطق عن الهوى﴾³ ، وقوله ﴿ولو لا أن ثبتتاك لقد كدت تركن

1 - الإمام الشوكاني. فتح القدير . 3 / 577 . 578.

2 - الحاقة : 44-46.

3 - النجم : 30.

إيهم¹ ، ففي المقاربة للركون فضلاً عن الركون، قال البزار: "هذا حديث لا نعلمه يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم بإسناد متصل"، وقال البيهقي: "هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل" ثم أخذ يتكلم أنّ رواة هذه القصة مطعون فيهم ، وقال إمام الأئمة ابن خزيمة "إن هذه القصة من وضع الزنادقة" ، وقال القاضي عياض في الشفاء: "أجمعت الأمة في طريق البلاغ أنّه معصوم فيه من الأخبار عن شيء بخلاف ما هو عليه ، لا قصداً ولا عمدًا، ولا سهوًا، ولا غلطًا" كما أورد رأي ابن كثير .. الخ.

هذا ويعلق الدكتور عبد العال أحمد عبد العال على مواقف بعض المفسرين للقرآن فاتهم أن يضعوا حدًا لصدق التفسير عن هذه الإسرائيليات التي أظلم الجو على طلاب الهداية القرآنية ، وشغلتهم عن اللب والجوهر، فقصروا جهودهم على النباش والتنقيب عن كل ما ألصق بالقرآن من تلك الأكاذيب وغرائب الأخبار، ولكن المحققين من علماء التفسير فطنوا إلى تلك الأخبار التي ليس لها سند صحيح ، وإلى شرها على الناس ، وعلى القرآن فأقاموا بينها وبين الناس سدًا منيعًا يقيهم البلبه الفكرية فيما تضمنه القرآن من آيات العقائد والأخلاق².

بطلان القصة بالقرآن والسنة والمنقول

قام الإمام فخر الدين الرازي بالتحقيق في تلك الرواية وبين بطلانها بالقرآن الكريم والسنة والمعقول: فقد قال ردًا على قصة الغرائيق : "أمّا أهل

1 - الإسراء : 74 .

2 - د . عبد العال . دفاع عن نبي الإسلام . ص 30 ، 31 .

التحقيق فقد نالوا هذه الرواية باطلة موضوعة واحتجوا على البطلان بالقرآن والسنة والمعقول ، أمّا القرآن فقوله تعالى ﴿ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين﴾¹ . وقوله: ﴿قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن اتبع إلا ما يوحى إلي﴾² وقوله ﴿وما ينطق عن الهوى. إن هو إلا وحي يوحى﴾³ .

وأما السنة فمنها ما روى عن محمد بن خزيمة أنه سئل عن هذه القصة فقال: "هي من وضع الزنادقة" وقال البيهقي "هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل ، فقد روى البخاري في صحيحه أنه صلى الله عليه وسلم قرأ سورة النجم بمجلس من قریش، فلما فرغ من قراءتها سجد وسجد معه المسلمون والمشركون والإنس والجن ، وليس فيها ذكر الغرائق البتة.

وأما المعقول فمن أوجهه

أحدهما: أن من جوز على النبي تعظيمًا للأصنام فقد كفر.

ثانيهما: لو كان الإلقاء على الرسول ، ثم الإزالة عنه لكانت عصمته من أول الأمر أولى ، وهو الذي يجب علينا اعتقاده في حق كل نبي.

1 - الحاقة : 44 . 46 .

2 - يونس : 15 .

3 - النجم 3 . 4 ، وأضيف أيضًا أنها تتعارض مع قوله تعالى ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عِبُدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عِبُدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ (كَمْ دِينَكُمْ وَلِي دِينٍ ﴿﴾ وقد نزلت هذه السورة قبل النجم ومناسبتها أن مشركي مكة طلبوا منه أن يعبد آلهتهم ليعبدوا إلهه.

ثالثهما: وهو أقوى الأوجه ، إنّ لو جوزنا ذلك لأرتفع الأمان من شرعه.

ثم قال الرازي: وقد عرفنا أنّ هذه القصة موضوعة ، ومع فرض التسليم بها فإن خبر الواحد لا يعارض الدلائل العقلية والنقلية المتواترة ، وكذا الخطيب البغدادي في تفسيره أيضاً¹.

هذا ومن المعروف للجميع أنّ الحديث الشاذ ، وهو الحديث الذي يخالف الراوي الثقة فيه من هو أوثق منه أو أكثر عدداً، من الأحاديث الضعيفة ، وهذا في خبر الآحاد ، فإذا كان خبر من خبر الآحاد يخالف القرآن الكريم وإجماع الأمة مثلاً كالإيمان بعصمة الأنبياء فلا يكون الحديث شاذاً ، بل يكون موضوعاً في هذه الحالة²، وقد قال ابن الجوزي قديماً: "كل حديث رأيت يخالف العقول ، أو يناقض الأصول ، فأعلم أنه موضوع ، فلا يتكلف اعتباره أي لا تعتبر روايته"³.

وقد قال ابن أبي حاتم الرازي: "ويقال صحة الحديث بعدالة ناقله ، وأن يكون كلاماً يصلح أن يكون من كلام النبوة..، وأي عقل مهما بلغ من السخافة يستطيع أن يقبل أن الرسول صلى الله عليه وسلم الذي دعا إلى

¹ - د. عبد العال . دفاع عن نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم دعاوي المستشرقين العلمانيين . ص 31 ، 32.

² - أنظر د. رزق الله. السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية . ص 202، نقلاً عن الدكتور الأعظمي. حاشيته على مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم لعروة بن زبير.

³ - المرجع السابق نقلاً عن المغيث.

التوحيد الخالص يأتي عليه الزمان فيصالح المشركين بتمجيد آلهتهم ، ثم ينسب ذلك القول إلى ربه جل وعلا.

فإذا كانت الأسانيد مثل الشمس لا تثبت هذه القصة من قريب أو بعيد ، فكيف بهذه الأسانيد الضعيفة حتى نبحت عن تأويلها.¹

اضطراب رواية القصة

مما يضعف هذه القصة ، ويوهنها شدة اضطراب رواياتها ، فرواية تقول: وقعت خارج الصلاة ، ورواية: إنه كان في الصلاة ، وثالثة تقول: بل حدث نفسه فيها ، ورابعة تقول إن الشيطان قالها على لسان النبي صلى الله عليه وسلم قرأها ، وخامسة تقول: إن النبي صلى الله عليه وسلم قال ذلك وهو ناعس ، وسادسة تقول: إن الشيطان انتهز سكتة من سكتات النبي في القراءة فقرأها حاكياً صوت النبي صلى الله عليه وسلم ، كما رويت عبارة "تلك الغرائق العلاء" بألفاظ مختلفة².

إنكار القصة لغويًا

لقد نقل الشيخ محمد محمد أبو شهبه رأي الشيخ محمد عبده في رد هذه الفرية من ناحية اللغة العربية ، فقال الشيخ محمد عبده: "إن وصف العرب لآلهتهم "بالغرائق" لم يرد لا في نظمهم ، ولا خطهم ولم ينقل عن أحد أن ذلك الوصف كان جاريًا على ألسنتهم إلا ما جاء في معجم ياقوت

1 - المرجع السابق . ص 203.

2 - أبو شهبه . د . محمد . السيرة النبوية في ضوء القرآن الكريم والسنة . 1 / 366 . دار القلم . دمشق .

من غير سند ، ولا معروف بطريق صحيح ، والذي تعرفه اللغة أنّ الغرنوق "بضم العين وسكون الراء" ، والغرنوق "بكسر الغين" والغرنيق "بضم الغين" والغرنيق "بكسر الغين" اسم لطائر مائي أسود أو ابيض ، ومن معانيه الشاب الأبيض الجميل ، ويطلق على غير ذلك ، ولا شيء من معانيه اللغوية يلائم معنى الآلهة والأصنام حتى يطلق عليها في فصيح الكلام الذي يُعرض على أمراء الفصاحة والبيان¹.

وهناك وجه آخر لبطلان هذه القصة من حيث الأسلوب اللغوي السليم ، ولقد أوضحه الشيخ الغزالي²، هو قول المفترين بأن آيات الغرانيق جاءت بين الآيات ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ . وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ . أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ . تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ . إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ ُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾

3

وبذلك يكون معنى الكلام بعد إضافة الغرانيق "خبروني عن أصنامكم أهي كذا وكذا؟ إنّ شفاعتها مرجوة ، إنّها أسماء لا حقائق لها ، إنّها خرافات ابتدعت واتبعت. ما لكم جعلتموها إناثاً ونسبتموها لله وأنتم تكرهون نسبة الإناث لك! تلك قسمة جائزة أفهل هذا كلام يصدر عن عاقل فضلاً عن أن ينزل به وحي حكيم؟!.

¹ - د. أبو شهبة. 1 / 367 . مرجع سابق ونقلها أيضاً من الدكتور . د. مهدي رزق الله : مرجع سابق ، ص 204 .

² - الغزالي ، محمد. (1405هـ / 1980م) لا فقه السيرة. ص 111 . ط 2. دار القلم . دمشق .

³ - النجم : 19-23.

إنَّ محمدًا صلى الله عليه وسلم لو كذب على الله باختلاق كلام عليه لقطع عنقه بنص الكتاب الذي جاء به ، قال جل شأنه: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ . لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ . فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾¹، ثم يستطرد الشيخ الغزالي قائلاً "بيد أن كتب التاريخ والتفسير التي تركت للوراقين والزنادقة يشحنونها المفتريات اتسعت صفحاتها لذكر هذا اللغو القبيح، ومع أن زيفه وفساده لم يخفيا على عالم إلا أنه ما كان يجوز أن يرددون مثله²."

بطلان القصة من جهة العقل والنظر

وأما بطلان القصة من جهة العقل والنظر فقد قام الدليل العقلي والقطعي وأجمعت الأمة على عصمته صلى الله عليه وسلم من مثل هذا ، وكل ما جاءت به الروايات الباطلة ممتنع في حقه أن يقوله من قبل نفسه عمداً أو سهواً وهو في اليقظة وقال القاضي عياض "وقد قررنا بالبراهين والإجماع عصمته صلى الله عليه وسلم من جريان الكفر على قلبه أو لسانه لا عمداً ولا سهواً، أو أن يتشبه عليه ما يلقيه الملك بما يلقيه الشيطان ، أو يكون للشيطان عليه سبيل ، أو أن يقول على الله لا عمداً ولا سهواً ما لم ينزل عليه قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ . لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ . فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾³، وقال تعالى: ﴿إِذَا لَادَفْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ

¹ - الحاقة : 44 . 46 .

² - الغزالي ، محمد . فقه السيرة . ص 112 .

³ - الحاقة : 44 . 47 .

عَلَيْنَا نَصِيرًا¹، فلو جوزنا شيئاً من هذا لذهبت الثقة بالأنبياء ، ووجد المارقون سبيلاً للتشكيك في الأديان.

ووجه آخر لفساد هذه القصة وهو أنذ الله تعالى ذم الأصنام في سورة النجم ، وأنكر على عابديها ، وجعلها أسماء لا مسمى لها ، وأن التمسك بعبادتها أوهام وظنون ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ. وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ. أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ. تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾² فجاءت هذه الآيات على هذا الأسلوب الإنكاري ، التوبيخي التهكمي بالأصنام وعابديها ، وقال بعد الموضوع الذي زعموا أنه ذكرت فيه الفرية ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاءُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾³، فلو أن القصة صحيحة لكان هناك تناسب بينها وبين ما قبلها وما بعدها ، ولكن النظم مفكك ، والكلام متناقض ، وكيف يطمئن إلى هذا التناقض السامعون وهم أهل الفصاحة ، وأصحاب عقول لا يخفي عليها مثل هذا ، ولا سيما أعداؤه الذين يتلمسون له العثرات والزلات ، فلو أن ما روي كان واقعاً الشغب عليه المعادون له ، ولارتد الضعفاء من المؤمنين ، ولشارت ثائرة مكة ، ولأخذ منه اليهود بعد الهجرة متكأً يستندون إليه في الطعن على النبي صلى الله عليه وسلم والتشكيك في عصمته ، ولكن شيئاً من ذلك لم يكن⁴.

1 - الإسراء: 74 ، والكلام نقلاً من كتاب الشفاء للقاضي عياض والناقل د. محمد أبو شهبه. السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة . 1 / 370.

2 - 19-22.

3 - النجم : 23.

4 - أبو شهبه. السيرة النبوية في ضوء القرآن الكريم والسنة . 1 / 370 . 372.

وأقول: "ثم أنه جاء في أول السورة قسم بأن النبي صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى ، وهذا وحده يبطل القصة ، ووجه ثالث وهو أن بعض الروايات ذكرت أن فيها نزل قوله تعالى ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيَنا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِي عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لاَتَّخِذُوكَ خَلِيلاً. وَلَوْلا أَنْ تَبْتَنَّاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قليلاً﴾¹.

وهاتان الآيتان تردان الخبر الذي رووه لأن الله ذكر أنهم كادوا يفتنونه، ولولا أن ثبتهم لكاد أن يركن إليهم ، ومفاده أن الفتنة لم تقع ، وأن الله عصمه وثبته حتى لم يكد يركن إليهم، وقد انتفي قرب الركون فضلاً عن الركون ، فالأسلوب القرآني جاء على أبلغ ما يكون في تنزيه ساحته عن ذلك ، وهم يرون في أخبارهم الواهية أنه زاد على الركون ، بل افتري بمدح ألتهم ، وهذا ينافي ما تدل عليه الآية ، وهو توهين للخبر ولو صح، فكيف ولا صحة له؟.

ولقد طالبتة صلى الله عليه وسلم ثقيف وقريش إذا مر بألتهم أن يقبل بوجهه إليها ، ووعدوه الإيمان به إن فعل ، وما كان ليفعل².

وإذا كانت القصة غير ثابتة من جهة النقل ، وهي مخالفة للقرآن ، ولما قام عليه الدليل العقلي ، فلا جرم أن التحقيق يدعونا إلى أن نصدع بأن حديث الغرائيق مكذوب اختلقه الزنادقة الذين يريدون إفساد الدين والطعن في سيد الأنبياء وإمام المخلصين³.

1 - الإسراء : 73-74.

2 - المرجع السابق . ص 372.

3 - المرجع السابق . ص 372.

بطلان القصة تاريخياً

إنّ التاريخ لم يذكر شيئاً عن ذلك أصلاً، وكفى بسكوت التاريخ حجة قوية ، والقول إنّ آية نزلت في ذلك ، ثم فصلت بعدما لوحظ تناقضها مع آيات أخرى. كلام ينقضه الواقع التاريخي ؛ إذ لم يكن لحديث الغرائيق وجود أصلاً في عصر نزول القرآن ، ولا في القرن الأول الهجري ، لأنّ هذه القصة وضعها الأفاكون في نهاية حكم الدولة الأموية ، حيث دخل في الإسلام اليهود والموالي ، من بلاد الفرس وخراسان ، واستتروا تحت اسم المسلمين لينشطوا في وضع الأحاديث ، واختلاق القصص والإسرائيليات التي تضعف عقيدة المسلمين وتوهن صفوفهم¹.

ثم أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم طبقاً لهذه الروايات يكون قد تنازل عن أول هدف رئيسي لدعوته وهو الوحدانية المطلقة لله ، وعلى تحطيم الأصنام وإبطال دعوتها وهدم كيانها ، وقداستها ، فكيف يقال: إنّهُ قد أشرك آلهة قومه مع الله في مسألة الشفاعة ، وهذا الأمر لا يمكن تصديقه عقلاً ومنطقاً، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يتنازل عن هذا المبدأ الأساسي مهما كانت المغريات المقدمة له ، والتسويات المطروحة عليه، والأمني والأحلام الموعودة له ، فهو صلى الله عليه وسلم رفض كل مغريات قريش من الجاه والسلطان والمال والنساء في سبيل هذا المبدأ، وتعرض لمخاطر الموت والاضطهاد ، وقاوم جميع هذه التسويات إلى

1 - د. عبد العال. دفاع عن نبي الإسلام . ص 34 ، 35.

النهاية فكيف تصدق بعدئذ أنه قيل قبل بإشراك آله قريش مع الله في الشفاعة؟¹.

وهكذا نجد كيف استغل المستشرقون هذه القصة "الموضوعة" للتشكيك في الوحي الإلهي إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، خاصة وات الذي توفرت لديه مراجع للسيرة لم تتوفر لغيره ، كما صرح هو في مقدمة كتابه ، ولكنه لم يكلف نفسه البحث عما أثير حولها ورواياتها ، واستخلاص الصحيح من غيره ، والقوى من الضعيف، أو يكون قد بحث - وهذا واضح - ولكنه وقد كَوّن فكرة مسبقة وقع على الضعيف الشاذ فأخذه سندا لدعواه. ومن ناحية أخرى كيف فات على وات أنّ "الآيات الإبليسية" المدعاة لو وضعت في سياق آيات السورة لظهر التناقض البين ، والذي لا يخفي على أحد؟ إنّها كما يقول الدكتور عماد الدين خليل فوضى فكرية ، وتصور مضطرب متهافت للدين لا هو بالمادي فيرفض الحقيقة الدينية ولا هو مؤمن فيعترف ببدايتها ومسلماتها². ولكن وات مع هذا يزعم أنّ القصة صحيحة لأنها في غاية الغرابة ، فلا بد أن تكون حقيقية في جوهرها إذ لا يتصور أن يكون أحد اختلق قصة مثلها ، ثم أفنّع جماعة ضخمة من المسلمين أن تقبلها . وتصحيح وات لها لأنها وافقت هواه ، فمتى كانت الغرابة مقياس لتصحيح الروايات؟ ولماذا لم يبين رفض كثير من العلماء

1 - د. الحاج. الظاهرة الاستشراقية . 3 / 164 .

2 - ماضي ، د. محمود . الوحي القرآني في المنظور الاستشراقي . ص 152 ، 153 .

المسلمين؟ لقد بيّن "فوك" أنّ بعض المستشرقين صدق القصة وبعضهم كذبها حسب الهوى¹.

وذلك لأنّ المستشرقين يتبعون الهوى لا المنهج العلمي الذي يزعمونه ، ف "وات" مثلاً عندما ساق قصة الغرانيق بين اشتداد المعارضة القرشية ، فيقول: "يحق لنا الاعتقاد بأنّ محمداً في أول دعوته قد لقي بعض النجاح ، ولكن المعارضة مع ذلك لم تعتم أن ظهرت ثم أصبحت ضخمة"²؟.

وفي رسالة عروة بن الزبير إلى عبد الملك بن مروان ، دون أن يشكك في صحتها كعادته ، بل نجده يثبت صحتها³.

وقد ورد في هذه الرسالة عن موقف قريش من الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومن الإسلام فيقول: ". ثم ائتمرت رؤوسهم بأن يفتنوا من تبعه عن دين الله من آبائهم وإخوانهم وقبائلهم، فكانت فتنة شديدة الزلزال ، على من اتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل الإسلام ، فافتتن من افتتن وعصم الله منهم من شاء ، فلما فعل ذلك بالمسلمين أمرهم الرسول صلى الله عليه وسلم أن يخرجوا إلى أرض الحبشة" ، ثم يقول:

¹ - حاشية السيرة النبوية للشيخ محمد متولي الشعراوي .ص 362، إعداد ودراسة وتحقيق مركز التراث لخدمة الكتاب والسنة ، مكتبة التراث الإسلامي، 1417هـ/ 1996 م .

² - وات. محمد في مكة. ص 166.

³ - المرجع السابق. ص 173.

"فأمرهم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فذهب إليها عامتهم لما قهروا بمكة وخاف عليهم الفتن.." ¹.

ومع هذا نجد وات عندما يتحدث عن المعارضة القرشية ، وتعذيب قريش للمسلمين ، يقلل من شأنها ، ويقول إنّ الاضطهاد كان خفيفاً ².

فقوله هذا يتعارض مع ما قاله عن سياقه لقصة الغرانيق ، فهو يثبت شدة المعارضة والاضطهاد عندما أراد أن يبرر حدوث هذه القصة ، ونفي هذا الاضطهاد وشدته عندما أراد أن يوجد مبررات أخرى لهجرة المسلمين إلى الحبشة ، ثم إلى المدينة ، لأنه أراد أن يثبت أنّ سبب الهجرة إلى الحبشة هو حدوث انقسام في صفوف المسلمين ، ووجود معارضة على سياسة أبي بكر ، فلتفادي الانقسام في صفوف المسلمين جعل المعارضين لأبي بكر يهاجرون إلى الحبشة ، ولكن قصة الغرانيق تبطل ما قاله وات وتتناقضه ، فإن كان هناك انقسام في صفوف المسلمين فلماذا عاد بعض المهاجرين من الحبشة عندما سمعوا بإسلام أهل مكة؟

كما نجد وات قد أنكر أنّ كفار قريش قدموا عروضاً مغرية للرسول صلى الله عليه وسلم ، إلا أنّنا نجده عند سياقه لقصة الغرانيق أقر بهذه العروض ³.

1 - المرجع السابق . ص 167.

2 - انظر محمد في مكة . ص 190 . 191.

3 - وات . محمد في مكة . ص 171.

وواضح أنّ وات يتلاعب بالأحداث كما يريد ، لأنّه يسير وفق الهوى الذي جعل منه منهجًا ، لا المنهج العلمي الذي يدعيه ، ثم إنّ سياق وات لهذه القصة إقرار بالوحي الذي أنكره ، وإن كان هو قد أراد من سياقه لهذه القصة ، وتأكيد على صحتها التشكيك في الوحي إلاّ أنّ إيراده للقصة اعتراف ضمني منه بالوحي ، بمعنى أنّه في قرارة نفسه يدرك أنّ ما ينزل على محمد هو وحي من عند الله ، وكذا يحاول أن يثبت خلاف هذه الحقيقة عنادًا منه وكفرًا، وإمعان في التشكيك في الوحي أوقعه في هذا الاعتراف.

وهذا يبين لنا أنّ وات يسخر من عقلية قراءه مسلمين كانوا أو مسيحيين لأنّه عند مقابلة نصوصه بعضها ببعض ومقارنتها تتضح هذه التناقضات ، وهذه الفوضى ، وهذا التلاعب في الأحداث والجري وراء الهوى.

ثانيًا: هجرة المسلمين إلى الحبشة

لقد اختلف المستشرقون في كيفية معاملة القرشيين للمسلمين الأوائل والأسباب ، "فموير" يرجع سبب المعارضة إلى التمسك بعبادة الأصنام والأجناد يضاف إليها عوامل الغيرة والبغض والكرهية ، ولا يعير العوامل الأخرى اهتمامًا ، بينما يركز "وات" على العوامل الدينية والاقتصادية التي لعبت دورها في إنكفاء روح المعارضة نظرًا للمبادئ التي ينادي بها الإسلام كالمساواة، ودفع الزكاة ، الأمر الذي يضر بالمجتمع القرشي ، ثم يعود ويؤكد العوامل الدينية ويضع العوامل الاقتصادية والسياسية في مرتبة ثانوية

عنها ، ولكن الذي يعنينا إنكار هؤلاء المستشرقين لطبيعة المعارضة القاسية ، محاولين التخفيف من حدتها وتصويرها تصويرًا لا يتلاءم والروايات الإسلامية التي وصفتها ، بل إن "موير" ينفي بشدة واقعة قتل أبي جهل لسمية وياسر رضي الله عنهما.¹

ولكن الاضطهاد الذي تعرض له المسلمون الأوائل كان بالغ الشدة والقساوة ، ولم يكن بتلك الصورة الخفيفة التي صورها لنا المستشرقون ، وقد اشتدت المعارضة وأبانت عن وجهها القبيح عندما ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم آلهة قريش وعابها ، هناك وثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين ، فحبسوهم وعذبوهم بالضرب والجوع والعطش ، وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر ، فمنهم من يفتن من شدة البلاء الذي ينصب عليه ، ومنهم من يعصمه الله.²

ورداً على ما زعمه "وات" أنّ الاضطهاد الجسدي اقتصر على العبيد والموالي ، وأنّ الرسول صلى الله عليه وسلم لم يلحقه أذى لأنّه كان في حماية قبيلته ، وأنّ أذيته اقتصرت على رمي الأوساخ في طريقه ، فلقد روى البخاري³ بسنده إلى عروة بن الزبير قال: "سالت عبد الله ابن عمرو عن أشد ما صنع المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال: رأيت

1 - الحاج. الظاهرة الاستشراقية . 3 / 157.

2 - الحاج. الظاهرة الاستشراقية . 3 / 157.

3 - صحيح البخاري . 3 / 1131 ، 1132 . كتاب فضائل أصحاب النبي حديث 3678 ، ورواه أيضاً في كتاب التفسير سورة غافر : 15 / 48 ط3 ص 1521 ، البيهقي . الدلائل . 2 / 274 . 275 . "باب ذكر ما لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم من أذى المشركين حتى أخرجوهم .

عقبة بن أبي معيط ، جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلي ، فوضع رداءه في عنقه فخنقه خنقًا شديدًا ، فجاء أبو بكر حتى دفعه عنه صلى الله عليه وسلم ، فقال: أتقتلون رجلاً ن يقول ربي الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم؟".

وروى البيهقي¹ ، أنّ الملاء من قريش اجتمعوا في الحجر ، فتعاقدوا باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ونائلة وإيساف: لو قد رأينا محمدًا لقد قمنا إليه قيام رجل واحد ، فلم نفارقه حتى نقتله.. وأخبرته ابنته فاطمة بالذي قالوا، فجاءهم وحبصهم بقبضة من تراب ، من أصابته منهم قتل يوم بدر كافرا".

وروى الإمام أحمد من حديث أنس ، أنّ جبريل عليه السلام جاء ذات يوم إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو جالس حزينًا فقد خضب بالدماء ، ضربه بعض أهل مكة ، فقال له مالك؟ قال: "فعل بي هؤلاء وفعلوا ، فقال له جبريل: أتحب أن أريك آية؟ قال : نعم، فنظر إلى شجرة من وراء الوادي فقال: ادع بتلك الشجرة فدعاها ، فجاءت حتى قامت بين يديه، فقال: مرها فلترجع ، فأمرها فرجعت إلى مكانها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حسبي"

هذا بعض ما ناله الرسول صلى الله عليه وسلم من أذى.

¹ - البيهقي. المرجع السابق . 2 / 277 ، 278.

أمّا أبو بكر فقد ناله أذى حتى فكر في الهجرة إلى الحبشة فرارًا
بدينه¹.

كما أنّه ذات يوم قام أبو بكر خطيبًا في المسجد الحرام فضربه
المشركون ضربًا شديدًا، وممن ضربه عتبة بن ربيعة حيث جعل يضربه
على وجهه بنعلين مخصوفتين حتى ما يعرف وجهه من أنفه ، وجاء بنو
تيم يتعادون ، فأجلت المشركين عن أبي بكر وحملوه في ثوب إلى منزله ،
ولا يشكون في موته، وأقسموا لئن مات أبو بكر ليقتلون عتبة بن ربيعة².

كما ضربوا عبد الله بن مسعود عندما جهر بالقرآن بمكة ، وكان أول
من جهر بالقرآن بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعندما فعل ذلك
ضربوه على وجهه حتى أثروا فيه ، وعندما قال له الصحابة: "هذا الذي
خشينا عليك ، قال ما كان أعداء الله أهون منهم الآن ، ولئن شئتم
لأغادينهم غدا بمثلها، قالوا: لا، حسبك قد أسمعتهم ما يكرهون³.

وكذلك عثمان بن عفان فلقد لحقه الأذى من عمه ، فكان يلفه في
حصير من أوراق النخيل ، ثم يدخنه من تحته ، وروي أنّه عندما أسلم أخذه
عمه الحكم بن أبي العاص بن أمية فأوثقه رباطًا وأقسم ألا يحله إلا إذا

¹ - رواه البخاري. صحيح البخاري ، 3 / 1192 كتاب مناقب الأنصار. ورواه بإسناد حسن. ابن هشام . 2
372/

² - السيوطي . تاريخ الخلفاء . ص 45، دار القلم . بيروت لبنان.

³ - سيرة ابن هشام . 1 / 314، 315.

ترك الإسلام ، فأقسم عثمان على عدم تركه الإسلام ، فلما رأى عمه صلابته في دينه تركه¹.

كما اعتدوا على عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، عندما أسلم ، وحاولوا قتله لولا أن أنقذه الله بالعاص بن وائل².

ومصعب بن عمير عندما علمت أمه بإسلامه أجاجته وأخرجته من بيته ، وكان من أنعم الناس عيشًا ، فتخشف جلده تخشف الجبهة ، وحتى حمله أصحابه على قسيهم لشدة ما به من جهد³.

وممن أودى عثمان ابن مظعون ، فقد روى أنه عندما رجع من الهجرة الأولى إلى الحبشة دخل في جوار الوليد بن المغيرة ، فلما رأى المشركين يؤذون المسلمين ، وهو آمن رد جوار الوليد.

وعندما قام لبيد بن ربيعة إلى مكة ، وكان في مجلس لقريش ينشدهم شعره ، قال لبيد: "ألا كل شيء ما خلا الله باطل" قال عثمان بن مظعون "صدقت" وعندما قال "وكل نعيم لا محالة زائل" قال له عثمان "كذبت. نعيم الجنة لا يزول" قال لبيد: يا معشر قريش والله ما كان يؤذى جليصكم فمتى حدث هذا فيكم؟ فقال رجل من القوم: "إنّ هذا أيضًا في سفهاء معه ، قد فارقوا ديننا ، فلا تجدن في نفسك من قوله ، فرد عليه عثمان حتى تفاقم أمرها، فقام عليه ذلك الرجل ، فلطم عينه فخرها ، والوليد بن المغيرة

1 - السيوطي ، جلال الدين . (1406 هـ / 1986م) تاريخ الخلفاء . ص 168 ، تحقيق وتقديم الشيخان قاسم الرفاعي . محمد العثماني . ط 1 .

2 - سيرة ابن هشام . 1 / 349 . بإسناد حسن من رواية ابن إسحاق .

3 - سيرة ابن إسحاق . ص 193 .

قريب يرى ما بلغ من عثمان ، فقال: "أما والله يا ابن أخي إن كانت عينيك عما أصابت لنفيه لقد كنت في ذمة منيعة" قال عثمان: "بل والله إن عيني الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها في الله ، وإني لفي جوار من هو أعز منك وأقدر يا أبا عبد شمس" ، فقال له الوليد "هلم يا ابن أخي إن شئت فعد إلى جوارك" فقال "لا"¹.

وكان عم الزبير بن العوام يعلقه في حصير ويدفن عليه النار، ويقول: "ارجع إلى الكفر، فيقول الزبير لا أكفر أبداً"².

هذا ولم يقتصر التعذيب الجسدي على المسلمين بمكة ، بل امتد إلى بعض الأفراد الذين أسلموا من القبائل البعيدة عن مكة ، فقد روى ابن سعد أن أم شريك غزية بنت جابر بن حكيم عندما أسلمت هي وزوجها ، وهاجر زوجها مع أبي هريرة وجماعة من قومها ، جاءها أهل زوجها أبي العكر فسألوها إن كانت على دينه فأقرت بإسلامها فأقسموا على تعذيبها ، فعندما ارتحلوا من مكان إلى آخر ، حملوها على شر ركابهم وأغلظه، ثم أطعموها خبزاً وعسلاً ، ومنعوا عنها الماء ، وتركوها في الشمس حتى ذهب عقلها وسمعها وبصرها ، وكرروا ذلك لمدة ثلاثة أيام. وفي اليوم الثالث طلبوا منها ترك دينها ، فلم تفعل غير الإشارة بإصبعها إلى السماء بالتوحيد ، ولا تعي ما يقولون من شدة الإعياء والإغماء ، وأكرمها الله بدلو من ماء شربت منه ، فكان ذلك سبباً في إسلام أهل زوجها ، وهجرتهم إلى النبي

¹ - سيرة ابن هشام. 1/ 371 والبيهقي. الدلائل . 2 / 292 ، 293.

² - د. رزق الله. السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية. ص 184 نقلًا عن الحاكم في المستدرک.

صلى الله عليه وسلم ، وعندما سمع أبو ذر الغفاري بخبر النبي صلى الله عليه وسلم جاء ودخل مكة ، وأخذ يسأل عن الرسول صلى الله عليه وسلم فضربه أهل مكة حتى أغشي عليه ، وكاد أن يموت ، فخلصه العباس رضي الله عنه منهم"¹.

فهذا يدحض مزاعم وات وبرنارد لويس وغيرهما من المستشرقين الذين حاولوا التقليل من شأن المعارضة القرشية ، وتعذيب المسلمين زاعمين أنّ الاضطهاد كان خفيفاً والتعذيب الجسدي اقتصر على العبيد والمستضعفين ممن لا توجد لهم قبائل تحميهم مثل خباب بن الأرت ، وأنّ الرسول صلى الله عليه وسلم لم يلحقه أذى جسدي.

فها هو الرسول صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وعثمان وعبد الله بن مسعود وعثمان بن مظعون وأبو ذر رضوان الله عليهم ، قد تعرضوا للأذى الجسدي ، بل امتد للقبائل البعيدة.

كما أنّ قصة عثمان بن مظعون تدحض دعوى "وات" الذي أرجع هجرة عثمان بن مظعون للحبشة إلى أنّه كان زعيماً لجماعة منافسة لجماعة أبي بكر ، فلو كان الأمر كذلك فلماذا أسرع عثمان بالعودة إلى مكة؟ ولماذا عند عودته دخل في جوار الوليد بن المغيرة لو لم يتعرض للأذى؟ فإن كان هناك خلاف بينه وبين أبي بكر رضي الله عنه فلماذا يدخل في جوار الوليد بن المغيرة؟ ثم لو كان الأمر صحيحاً كما يزعم وات ، فلماذا أبو بكر رضي الله عنه عزم على الهجرة إلى الحبشة إذا كان هدف

¹ - انظر إسلام أبي ذر . البخاري . الفتح حديث 3522 ، صحيح مسلم . حديث 2473 ، 2474 .

الرسول صلى الله عليه وسلم من هذه الهجرة تقادى الانقسام بين جماعات المسلمين المعترضين على سياسة أبي بكر؟

وتعذيب المسلمين واضطهادهم أقر به "وليم موير" وذكر أن ازدياد اضطهاد قريش للمسلمين دفع بالرسول صلى الله عليه وسلم أن يأمر أصحابه بالهجرة¹، كما أقر بذلك توماس أرنولد بل أشار إلى ما تعرض له عبد الله بن مسعود من أذى وهو يتلو القرآن عند الكعبة ، وكذلك مصعب بن عمير، وكيف أنه أسلم في دار الأرقم ، وأخفى إسلامه عن أهله وعشيرته ، وعندما علموا بإسلامه حبسوه فتمكن من الهرب منهم إلى أرض الحبشة².

والغريب أن وات يعتمد في معظم الأحايين على مصادر استشراقية غربية ، فلماذا لم يأخذ بما كتبه توماس أرنولد مثلاً في هذا الصدد؟ وهذا يؤكد لنا أن وات يتبع الهوى ، فإن وجد في المصادر الغربية الاستشراقية ما لا يوافق هواه لا يعتد به ولا يأخذ به.

هذا ولم تكتف قريش بإيذاء المسلمين وملاحقتهم حتى عندما هاجروا إلى الحبشة ؛ إذ أدت الرسول صلى الله عليه وسلم أيما إيذاء متبعة في إيذائها له وسائل شتى منها:

1. محاولة التأثير على عمه أبي طالب حتى يكفه عن الدعوة وتجريده من جواره أو حمايته ، فردهم أبو طالب رداً جميلاً.

1 - د. الحاج. الظاهرة الاستشراقية . 3 / 133.

2 - أرنولد. الدعوة إلى الإسلام. ص 38.

2. التهديد بمنازلة الرسول صلى الله عليه وسلم وعمه أبي طالب ،
لما استمر الرسول صلى الله عليه وسلم في دعوته ، واستمر أبو طالب في
حمايته ؛ إذ أنذروه بحرب بينهم وبين أبي طالب وابن أخيه حتى يهلك أحد
الفريقين ، فعندما أخبر أبو طالب الرسول صلى الله عليه وسلم بتهديد
قريش ظن صلى الله عليه وسلم أنّ عمه قد ضعف عن نصرته ، فقال له:
يا عم ، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك
هذا الأمر حتى يظهره الله ، أو اهلك فيه ما تركته ، ثم بكى رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، وقام من عند عمه ، فلما ولى ناداه عمه فقال له:
"أقبل يا ابن أخي ، فلما أقبل قال له: أذهب يا ابن أخي ، فقل ما أحببت
فوالله لا أسلمك لشيء أبدا"1.

3. اتهام الرسول صلى الله عليه وسلم باتهامات باطلة لصد الناس
عنه ومن اتهاماتهم²:

I- اتهموه بالجنون وفي ذلك قوله تعالى ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ
عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾³ ، وقد أجابهم الله تعالى في سورة القلم ﴿مَا أَنْتَ
بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾⁴

1- سيرة ابن هشام 1. / 265 . 266.

2 - د. رزق الله. السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية. ص 168 . 174 "باختصار وتصرف"

3 - الحجر:6.

4 - القلم : 2.

II- اتهموه بالسحر ، وفي ذلك قوله تعالى: ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾¹ ، وقال جل شأنه أيضاً: ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾².

III- واتهموه بالكذب، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ وقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ أُفْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾³ .

IV- اتهموه بالإتيان بالأساطير قال تعالى: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾⁴ . وقد رد القرآن على كل هذه الاتهامات في مواضع كثيرة.

V- وقالوا إن القرآن ليس من عند الله وإنما هو من عند البشر قال تعالى: ﴿ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين﴾⁵ . وقد رد الله عليهم بقوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ. وَلَا يَقُولِ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ. تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾⁶

4. السخرية والاستهزاء والضحك والغمز واللمز والتعالي على المؤمنين، وقد روى البخاري أن امرأة قالت للرسول صلى الله عليه وسلم

1 - ص : 4 .

2 - الفرقان : 8 .

3 - الفرقان : 4 .

4 - الفرقان : 5 .

5 - النحل : 73 .

6 - الحافة : 40-43 .

ساخرة مستهزئة: "إني لا أرجو أن يكون شيطانك قد تركك ، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاثا" فانزل الله تعالى ﴿وَالضُّحَىٰ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ .

ومر الرسول صلى الله عليه وسلم يوماً بجماعة من زعماء قريش فهمزوه واستهزؤوا به فغاضه ذلك ، فانزل الله عز وجل ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَىٰ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾¹ .

ومن كبار المستهزئين الساخرين: أبي جهل، وأميرة بن خلف، والنضير بن الحاث، والأخنث بن شريق ، وأبي بن خلف، والأشود بن عبد الكلبي بن أسد ، والوليد بن المغيرة ، والأسود بن عبد يغوث بن وهب الزهري.²

5. طلبهم من رسول الله أن تكون له معجزات أو مزايا ليست عند البشر العاديين:

كقولهم ﴿وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ

فَيَكُون مَعَهُ نَذِيرًا. أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾³ .
أو قولهم ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا. أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا. أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ

1 - الأنعام : 10.

2 - هذه الأسماء أوردها ابن هشام في سيرته، وأبو نعيم في الدلائل، ص 220.

3 - الفرقان : 87.

كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِي بِلِلِّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا. أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُرْحُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ ﴿١﴾
فكان رد القرآن ﴿قُلْ سَبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾¹

و ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَّوْمٍ عَظِيمٍ﴾²

وروي أنهم طلبوا منه أن يجعل صخرة معينة ذهبًا لينحتوا منها وتغنيهم عن رحلتى الشتاء والصيف³ ، كما روى أحمد من حديث ابن العباس قال: سأل أهل مكة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم الصفا ذهبًا ، وأن ينحي عنهم الجبال فيزرعوا . أي يزرعوا مكانها⁴.

وقد رد القرآن عليهم في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَةٌ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَلِ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾⁵

6. التشويش عند تلاوة القرآن، إذ كانوا يفعلون ضجة عالية وصياحاً منكرًا حتى لا يسمع ولا يفهم، وفي ذلك قال تعالى: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَبُونَ ﴿٦﴾

1 - الإسراء : 90 - 94.

2 - يونس : 15.

3 - الشامي . 459/2، في أسئلة المشركين الرسول صلى الله عليه وسلم أنواعا من الآيات وخرق العادات.

4 - د. رزق الله . مرجع سابق . ص 174.

5 - الرعد : 31.

6 - فصلت : 26.

7. المساومات ، إذ تبعوا أسلوب المساومات فساوموا الرسول صلى الله عليه وسلم أن يترك شيئاً من دينه ويتركون له شيئاً من دينهم، قال تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تَدُهُنُ فَيُدْهِنُونَ﴾¹

وعندما قالوا له أعبد آلهتنا يوماً ونعبد آلهك يوماً فأنزل الله تعالى سورة الكافرون: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ. لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ. وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ. وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ. وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ. لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينٌ﴾

كما ساوموا عمه فيه حين اقترحوا على عمه بأن يعطوه عمارة بن الوليد بن المغيرة بدلاً عن محمد صلى الله عليه وسلم فيأخذوه ويقتلوه².

8. سب القرآن ومنزله ومن جاء به: روى البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا﴾ أن ابن عباس قال: "نزلت ورسول الله صلى الله عليه وسلم مختف بمكة ، كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن فإذا سمعه المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به فقال الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ﴾ أي بقراءتك فيسمع المشركون فيسبوا القرآن ﴿وَلَا تُخَافِتُ بِهَا﴾ عن أصحابك فلا تسمعهم ﴿وَأَبْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾

1 - القلم : 9.

2 - سيرة ابن هشام، 1 / 266 . 267.

9 .الاتصال باليهود للإتيان منهم بأسئلة تعجيزية للرسول صلى الله

عليه وسلم:

أوفدت قريش نفراً منهم إلى المدينة، على رأسهم : النضر بن الحارث ، وعقبة بن أبي معيط ليأتوا من اليهود بأسئلة تعجيزية فيطرحونها على الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقالت لهم يهود: سلوه عن أهل الكهف وعن ذي القرنين ، والروح. ولكن الله أبطل كيدهم عندما أنزل الله قرآنا في شأن الإجابة عن أسئلتهم¹.

10. حاولت قريش استمالة الرسول صلى الله عليه وسلم باستعمال أسلوب الترغيب بعدما فشلت جميع أساليبها ، فعرضت عليه مالا وملكا وقبل تزويجه بعشرة نسوة من أي بيت من بيوت قريش يريد على أن يترك دعوته ، فتلا صلى الله عليه وسلم على مبعوث قريش عتبة بن ربيعة من سورة فصلت إلى قوله تعالى : ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صُغْرَةً مِّثْلَ صُغْرَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾²، وعندما وضع عتبه يده على جنبه ، وقام كأن الصواعق ستلاحقه وعاد إلى قريش مخبرا إياهم لأن ما سمع ليس بشعر ولا سحر ولا كهانة ، واقترح على قريش أن تدع محمداً وشأنه³.

11. المقاطعة العامة

1 - سيرة ابن هشام . 1 / 308.

2 - فصلت: 13.

3 - المرجع السابق . 1 / 294.

وعندما تعرض المستشرقون لمقاطعة قريش لبني هاشم قصرُوا المقاطعة على النواحي الاقتصادية والاجتماعية بعدم التعامل معهم تجاريًا وعدم الزواج منهم وتزويجهم وتجاهلوا منع وصول الأقوات إليهم ، فكان الطعام يأتيهم خفية ، وورد في الصحيح أنّهم جهدوا حتى كانوا يأكلون الخبط وورق السمرة¹ ، فكانت قريش تؤذي من يرسل لهم شيئًا من الصلوات ، إلى أن قام في نقض الصحيفة نفر من أشدهم في ذلك ضيقًا وهم: هشام بن عمرو بن الحارث ، وزهير بن أبي أمية ، والمطعم بن عدي ، وزمعة بن الأسود ، وأبو النجدي بن هشام بن الحارث ، وكانت تربطهم ببني هشام والمطلب صلوات الأرحام ، ولقد وجدوا الأرضة قد أكلت جميع ما فيها إلا اسم الله تعالى².

هذا وقد انفرد توماس أرنولد وبودلي بذكر تجويع المسلمين في هذه المقاطعة ومنع وصول الطعام إليهم ، كما انفرد بودلي بذكر الأرضة التي أكلت الصحيفة مع أنّ بودلي لا يؤمن بالمعجزات وحذف جميع الأحداث التي تبين هذه المعجزات.

12. أسلوب التهيب:

فكان أبو جهل إذا سمع عن رجل قد أسلم، وله شرف ومنعة أنبّه وأخزاه ، وقال له: "تركت دين أبيك ، وهو خير منك: لنسفهن حلمك ولنضعفن رأيك ، ولنضعفن شرفك ، وإن كان ضعيفًا ضربه وأغرى به³.

¹ - السهيلي. الروض الأنف، 2 / 127.

² - ابن هشام السيرة. / 377.

³ - سيرة ابن هشام : 1 / 320.

هذه بعض أنواع التعذيب والمعارضة التي تعرض لها الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمون من قبل كفار قريش ، وهي صحيحة لا مبالغة فيها - ليست كما زعم برنارد لويس - فلقد بيّن القرآن - كما مر بنا - جوانب من هذه المعارضة والاضطهاد ، كما بيّنت السنة في الصحاح وكذلك كتب السيرة هذا الإيذاء .

أمّا أسباب الهجرة إلى الحبشة التي افترضها وات فجميعها مجرد افتراضات لا تستند على أدلة علمية ولا براهين تدعمها أحداث تاريخية ، بل أنّ وقائع الأحداث التاريخية جميعها تدحض تلك الافتراضات .

فافتراضه أنّ سبب الهجرة ممارسة النشاط التجاري ؛ ليس بسبب وجيه للهجرة ، لأنّه لو كانت الأمور مستقرة في مكة فما الذي يمنعه من التجارة فيها ، وكون ممارسة المهاجرين للتجارة في الحبشة ، فهذا أمر طبيعي ، لأنّهم في الأساس هم تجار ، وهي المهنة التي يعرفونها ، وهم في حاجة إلى العمل في أرض الغربية ليعيشوا ، فكانت ممارستهم للتجارة في الحبشة وسيلة لكسب العيش وليست سببا للهجرة .

أمّا السبب الذي افترضه وات للهجرة إلى الحبشة ، وهو السعي للحصول على مساعدة حربية من الأحباش ضد بعض العشائر القرشية المناوئة له فهذا السبب لا أساس له ولا سند ، فلا الرسول صلى الله عليه وسلم طلب مساعدة حربية من الحبشة ولا جده عبد المطلب قد فعل ذلك قبله، ولو كان طلب المساعدة من الحبشة أفلا كان الأولى أن يطلب مثل

هذه المساعدة عند تحالف الأحزاب ضده وهو في المدينة خاصة بعد إسلام نجاشي الحبشة ، كما أشارت إلى ذلك بعض الروايات الإسلامية؟
بقي الافتراض الذي لا يؤيده أيضًا دليل جدي وعملي من الأحداث والوقائع التاريخية وهو السبب الذي زعم فيه وات تغادي الانشقاق بين الجماعة الإسلامية ، وأنّ هناك معارضين لسياسة أبي بكر وجماعته ، ولمكانة أبي بكر الكبيرة عند الرسول صلى الله عليه وسلم ، فأمر المعارضين له بالهجرة إلى الحبشة ، وهذا القول تدحضه الأحداث التاريخية نفسها وهي:

أ . عودة عثمان بن مظعون إلى مكة بعدما سمع بإسلام قريش ، وعثمان بن مظعون زعم وات أنّه كبير معارضي أبي بكر ، فلماذا عاد عثمان بن مظعون عندما سمع بإسلام قريش ما دام هاجر لتغادي الشقاق بينه وبين أبي بكر رضي الله عنه ، وعودة عثمان بن مظعون من الحبشة أقر بها في حديثه عن ما أسماه ب "الآيات الإبلسية" فعودة عثمان بن مظعون إلى مكة عندما سمع بإسلام قريش يؤكد أنّه هاجر نتيجة الاضطهاد الذي لاقاه المسلمون وخوفًا من الفتنة ، ودخول عثمان بن مظعون مكة في جوار الوليد بن المغيرة يؤكد هذا أيضًا ويزيده تأكيدًا ما تعرض له من عثمان بن مظعون من قريش نتيجة نقاشه مع كفار قريش.

2. أنّ أبا بكر الصديق نفسه حين ضاقت عليه مكة وأصابه فيها الأذى استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الهجرة فأذن له وخرج

حتى صار من مكة يوماً أو يومين لقيه ابن الدغنة¹. أخو بني الحارس بن عبد مناف بن كنانة وهو يومئذ سيد الأحابيش ، وعندما علم بسبب هجرته طلب منه العودة ووضعه في جواره ، فعاد معه أبو بكر إلى مكة وبقي في جواره إلى أن رده عليه.

فإذا كان سبب هجرة المسلمين إلى الحبشة معارضتهم لأبي بكر، فكيف يأذن الرسول صلى الله عليه وسلم لأبي بكر بالهجرة إلى الحبشة؟ ولو لم يكن هناك اضطهاد بالفعل ، فلماذا يخرج أبو بكر مهاجراً من مكة إلى الحبشة؟

هذا وقد أقر وليم موير وبودلي بالهجرة الثانية للحبشة ، ولكن باقى المستشرقين لم يقرؤا بذلك ، هذا ويعلل وات "استناداً منه على كائتاني" لعدم قبول الهجرتين أن ابن إسحاق ، كما يقول معا ابن هشام والطبري لا يقول صراحة بوجود هجرتين.²

وهذا خلاف الواقع وقد جاء في سيرة ابن هشام هذه العبارة "نكر الهجرة الأولى إلى أرض الحبشة"³، وكذلك الطبري ؛ إذ قال: قال أبو جعفر: "فاختلف في عدد من خرج إلى أرض الحبشة ، وهاجر إلى هذه الهجرة وهي الهجرة الأولى"⁴. فقد أشار كل منهما إلى الهجرة الأولى الأمر

1 - في السيرة اسمه مالك، انظر ابن حيان (1401هـ / 1987م) السيرة النبوية وأخبار الخلفاء . ص 81 ، 82 . بيروت . مؤسسة الكتب الثقافية . وانظر ابن هشام . 1 / 372.

2 - محمد في مكة :ص 179.

3 - انظر سيرة ابن هشام : 1 / 321.

4 - تاريخ الطبري : 1 / 412.

الذي يدل على أنّهما يعلمان بأنّ هناك هجرة ثانية بعد إشاعة إسلام كفار قريش إلى الحبشة ، وإن كان لم يتعرض لها بالتفصيل¹.

وقد ذكر ابن إسحاق دوافع الهجرة الثانية إلى الحبشة².

ثم أنّ ابن سعد في طبقاته ذكر الهجرة الثانية إلى الحبشة ، فعن قتادة قال: سمعت شيخاً من بني مخزوم يحدث أنّه سمع أم سلمة قال وحدثنا عبد الله بن محمد الجمحي عن أبيه عن عبد الرحمن بن سابط قالوا: "لما قدم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم مكة من الهجرة الأولى أشد عليهم قومهم وسطت بهم عشائرهم ولقوا منهم أذى شديداً ، فأذن لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخروج إلى أرض الحبشة مرة ثانية ، فكان خرجتهم الآخرة أعظمها مشقة ، ولقوا من قريش تعنيفاً شديداً ونالوهم بالأذى ، واشتد عليهم ما بلغهم عن النجاشي من حسن جواره لهم ، فقال له عثمان بن عفان: يا رسول الله فهجرتنا الأولى وهذه الآخرة إلى النجاشي ولست معنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنتم مهاجرون إلى الله وإليّ ، لكم هاتان الهجرتان جميعاً، قال عثمان: فحسبنا يا رسول الله" وكان عدة من خرج في هذه الهجرة من الرجال ثلاثة وثمانين رجلاً³.

ويبين ابن سعد في روايته أنّ المهاجرين عندما سمعوا بهجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة رجع منهم ثلاثة وثلاثون رجلاً ، ومن النساء ثماني نسوة ، فمات منهم رجلان بمكة ، وحبس بمكة سبعة نفر ،

1 - د. الحاج. الظاهرة الاستشراقية . 3 / 161.

2 - انظر السير والمغازي لابن إسحاق . ص 213.

3 - ابن سعد الطبقات . 1 / 140، 141.

وشهد بدمراً منهم أربعة وعشرون رجلاً ، فلما كان شهر ربيع الأول سنة سبع من هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى النجاشي كتاباً يدعو فيه إلى الإسلام ، وبعث به مع عمرو بن أمية الضمري ، فلما قرئ عليه الكتاب أسلم وقال: لو قدرت أن أتية لأتيته¹.

وقد ذكر ابن سيد الناس الهجرتين إلى الحبشة²، وكذلك ذكرهما الذهبي في سيرته³، كما ذكرهما ابن كثير⁴، في البداية والنهاية. أما البخاري⁵ في صحيحه فقد أخرج حديثاً عن عروة بن الزبير عن هجرتين إلى الحبشة كما ذكرها ابن القيم⁶ في زاد المعاد. وهكذا يتضح لنا أنّ وات تبع كائتاني في تعليقاته دون أن يتحرى الدقة ويتأكد من صحة ما يقول.

الرد على موقف المدرسة الإنجليزية من الإسراء والمعراج

لم يتعرض توماس أرنولد وهاملتون جيب ووات وبرنارد لويس وبودلي لحادثة الإسراء والمعراج ، زكما يبدو عدم ذكرهم لها من قبيل إنكارهم لمعجزات الرسول صلى الله عليه وسلم فلقد زعم وات أنّه لم تكن هناك معجزات للرسول صلى الله عليه وسلم تجعل كفار قريش يؤمنون به أنه

1 - ابن سعد الطبقات. 1 / 141.

2 - ابن سيد الناس. عيون الأثر . 1 / 135.

3 - الذهبي. السيرة النبوية. ص 110.

4 - ابن كثير . البداية والنهاية. 3 / 74.

5 - صحيح البخاري باب هجرة الحبشة حديث رقم 3872 ، 3 / 1182.

6 - ابن القيم . زاد المعاد. 1 / 24.

رسول من عند الله متجاهلاً تماماً المعجزة الكبرى القرآن الكريم ، ومعجزة الإسراء والمعراج ، وانشقاق القمر ، وحنين الجذع ، وتكثير الطعام ، ونبع الماء ، وقد ثبت الإسراء والمعراج وانشقاق القمر بالقرآن والأحاديث الصحيحة ، وكذلك المعجزات الأخرى ثبتت بالصحة الصحيحة ، فإن إنكار مستشرق أو إغفاله من هذه الروايات الصحيحة لا يضعف شيئاً من إيمان المؤمن بها ولا يحيل العقل الإنساني وقوعها ، مع أن التحقيق التاريخي الحديث كشف عن ثبوت بعضها كحادثة انشقاق القمر¹، وقد شاهد عبد الله بن مسعود رضي الله عنه حادثة انشقاق القمر بمكة²، وقد خلد القرآن الكريم هذه الحادثة في قوله تعالى ﴿ أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ . وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾³، فحللوا رؤيتهم لانشقاق القمر بالسر ، وكانوا يتهمون به الرسول صلى الله عليه وسلم⁴، فقد سأله معجزة وأراهم الله القمر شقين حتى رأوا جبل مرأ بينهما⁵، ومع هذا قالوا إنه سحر وكذلك الإسراء والمعراج فهو ثابت بالقرآن المتواتر ، والأحاديث الصحيحة المتكاثرة:

1 - حمدان . الرسول صلى الله عليه وسلم في كتابات المستشرقين . ص 140 .

2 - انظر صحيح البخاري . كتاب التفسير . 3 / 1546 ، 1547 ، وصحيح مسلم . 4 / 2158 ، 2159 ،

البيهقي . دلائل النبوة . 2 / 262 .

3- القمر: 1 . 2 ، ومستمر دون ذهاب ..

4 - د . العمري . السيرة النبوية الصحيحة ، 1 / 162 .

5 - صحيح البخاري: كتاب التفسير تفسير سورة القمر 3 / 1546 ، 1547 وصحيح مسلم . 4 / 2158 ،

2159 .

أما القرآن ففي قوله سبحانه وتعالى : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ 1.

ويرى بعض العلماء أن المعراج قد أشير إليه في سورة النجم في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى. عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى. عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى. إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى. مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى. لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ 2.

وقد وردت نبوءة بالمعراج في سفر دانيال : 7 : فرؤيا دانيال فيما يتعلق برحلة "البرناشا" ابن الإنسان" فوق السحاب وحضوره أمام الله تعالى تتطابق وتتفق مع المعراج ليلة أن أسري بالنبى محمد صلى الله عليه وسلم إلى السماء ، وفي كلام دانيال إشارات إلى ذلك³.

والمعراج ثابت أيضًا في الأحاديث الصحيحة التي رواها الثقات العدول ، وتلقته الأمة بالقبول ، فلقد أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما ، وكذلك أصحاب كتب الحديث المعتمدة ، وكتب السيرة وكتب التفاسير .

1 - الإسراء : 1 ، هذا وفي سفر ملاخي 3 : 1 وردت نبوءة بالإسراء "سوف أرسل رسولي فيمهد الطريق أمامي، وفجأة سوف يأتي إلى هيكله السيد الذي تطلبونه ، رسول العهد الذي تسرون به، إنه سوف يأتي ، هكذا قال رب الجموع"

2 - النجم 13 . 18 .

3 - داود، عبد الأحد . محمد صلى الله عليه وسلم كما ورد في كتاب اليهود والنصارى. مرجع سابق ، ص

وقد تأول البعض حادث الإسراء والمعراج ، فزعم أنه رؤيا منامية ، ومنهم من زعم أنه بالروح وليس بالجسد ، والصواب كما ثبت عن ابن عباس أنه رؤيا عين بالروح والجسد: قال تعالى ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ﴾¹ ، وجاء في تفسير ابن كثير² لهذه الآية: قال البخاري حدثنا علي بن عبد الله حدثنا سفيان عن عمرو وعن عكرمة عن ابن عباس: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ﴾ قال هو رؤيا عين أريها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسري به" وما دامت رؤيا الرسول صلى الله عليه وسلم جعلت فتنة فهذا دليل على أنها لم تكن رؤيا منامية³.

وهذا هو رأى جمهور العلماء أنّ الإسراء كان يقظة بروحه وجسده ، مرة واحدة⁴ ، وأنّ الإسراء والمعراج كان في ليلة واحدة⁵ ، وقد قال ابن حجر⁶ إنّ الإسراء والمعراج وقعا في ليلة واحدة في اليقظة ، بجسد النبي صلى الله عليه وسلم وروحه بعد البعث ، وإلى هذا ذهب الجمهور من علماء المحدثين والفقهاء والمتكلمين ، وتواردت عليه ظواهر الأخبار الصحيحة ، ولا ينبغي العدول عن ذلك ؛ إذ ليس في العقل ما يحيله حتى يحتاج إلى تأويل..".

1 - الإسراء : 60.

2 - الإسراء : 60.

3 - الشعراوي ، محمد متولي . السيرة النبوية. ص 498.

4 - تفسير الطبري. 9 / 23 ، وزاد المعاد لابن القيم . 2 / 47 . 49.

5 - صحيح البخاري. كتاب التفاسير . 3 / 1461 حديث رقم 4716.

6 - صحيح البخاري. كتاب التفاسير . 3 / 1461 حديث رقم 4716.

الرد على إنكار إسلام الجن

لقد أنكر وليم موير إسلام الجن ، وشكك الفريد جيوم فيه ، وإسلام الجن ثابتة في القرآن الكريم في سورة الجن ، فالرسول صلى الله عليه وسلم بعث للإنس والجن ، والجن كائنات مستترة عن أنظار البشر في الأصل ، وإن كانت لهم قدرة على التجسم والظهور بأشكال مختلفة ، ويدل القرآن والسنة على أن نفر من الجن ، رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عامداً إلى عكاظ . وقد حيل بين الجن وبين استراق السمع من السماء ، فكانوا يبحثون في أرجاء الأرض عن السبب ، فاستمعوا إليه ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر ، فأمنوا به ورجعوا إلى قومهم ﴿ فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجا * يهدي إلى الرشد فآمنوا به ولن نشرك بربنا أحدا ﴾¹، فأنزل الله على نبيه ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ ﴾ ، وإنما أوحى إليه قول الجن² ، ولم ير رسول الله الجن في هذه المرة ، ولم يقرأ عليهم ، وإنما آذنته بهم شجرة³ ، ثم أوحى إليه خبرهم⁴ . وقد حددت رواية مرسله عدد الجن وأنهم كانوا تسعة⁵ .

1 - الجن : 1-2 .

2 - صحيح البخاري . فتح الباري كتاب التفسير . 9 / 672 ، 673 ، صحيح مسلم كتاب الصلاة . 1 / 321 ، 332 . وسنن الترمذي . 5 / 398 حديث 3323 . وقال : هذه الحديث حسن صحيح .

3 - صحيح البخاري : فتح الباري ، 9 / 673 ، صحيح مسلم : كتاب الصلاة 33 باب الجهر بالقرآن في الصبح ، 1 / 333 : دلائل النبوة للبيهقي .

4 - - صحيح البخاري . كتاب التفسير . 3 / 1573 ، وصحيح مسلم . كتاب الصلاة . 1 / 333 ، وأما في

مسند أحمد من كونهم استمعوا إليه في صلاة العشاء ، ففي إسناده انقطاع لأن عكرمة لم يسمع الزبير بن العوام ، كما قال أحمد شاكر في تحقيقه للمسند ، ولو ثبت فيمكن الجمع بينه وبين رواية الصحيح بأنه استمعوا إليه مرتين "تحقيق أكرم العمري : السيرة النبوية الصحيحة ، 1 / 141" .

5 - أخرجه الطبري من رواية محمد بن بشار والبخاري من رواية أحمد بن إسحاق . انظر تفسير الطبري ج 14 تفسير سورة الجن .

وبعد هذه الحادثة دعا الجن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو معسكر بأصحابه خارج مكة ، فذهب معهم وقرأ عليهم القرآن ثم أرى أصحابه آثارهم وآثار نيرانهم¹، وقد أخرج ابن مروية² ، عن ابن العباس أنهم وفدين نصيبين³.

الرد على اتهام وليم موير لرسول الله صلى الله عليه وسلم وعدم تمتعه بالشجاعة

لقد ادعى وليم موير عدم تمتع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشجاعة الشخصية ، وقد كرر هذا عند حديثه عن غزوة ، فبعدما وصف شجاعته صلى الله عليه وسلم أبان انهزام المسلمين عنه ، وتركه وحيداً أمام أعدائه الذين عقدوا العزم على الفتك به ، ثم يقول في مناسبة أخرى: إنه لم يتمتع بهذه الشجاعة طوال حياته".

وهذه مغالطة كبرى تدحضها الوقائع التاريخية التي تثبت شجاعته طوال حياته، ولم تقتصر فقط على غزوة أحد كما يزعم موير، فشجاعته صلى الله عليه وسلم تظهر في مواقف كثيرة لا حصر لها منها:

تحديه صلى الله عليه وسلم لأكبر مصارع في قريش وهو "ركانة بن عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطلب بن عبد مناف" الموصوف بأشد قريش وأشجعها ، فخلا يوماً في أحد شعاب مكة بالرسول صلى الله عليه وسلم ، فعرض عليه الرسول صلى الله عليه وسلم الإسلام، فعرض عليه ركانة

¹ - صحيح مسلم. كتاب الصلاة 33 باب الجهر بالقراءة في الصبح. 1 / 332 حديث 450 ، دلائل النبوة. البيهقي . 2 / 229.

² - صحيح البخاري. فتح الباري. 5 / 678. وقد ذكر الطبري في تفسيره أنهم كانوا من نصيبين. 14 / 137.

³ - د. العمري. السيرة النبوية الصحيحة. 1 / 141

الصراع فتصارعا فبطش به الرسول صلى الله عليه وسلم ثم عاد فصرعه للمرة الثانية ، ثم عاد فصرعه للمرة الثالثة¹. وهذه القصة تبين شجاعة الرسول صلى الله عليه وسلم من جهة ، وعن شدة بطشه وقوته من جهة أخرى².

عندما تأمر عليه المأ من قريش ، وخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يطوف بالكعبة ، فلما مر بهم غمزه بعض القول ، فمضى ، فلما مر بهم الثانية غمزه مثلها ، ثم مضى ، ثم مر بهم الثالثة فغمزه بمثلها ، فوقف فقال: أسمعون يا معشر قريش أما والذي نفس محمد بيده لقد جئتكم بالذبح ، فأخذت القوم كلمته حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر حتى ترضاه القوم³.

هذا الموقف أيضاً يبين ما يتمتع به صلى الله عليه وسلم من شجاعة كبرى فهنا تصدى لقومه وهو بمفرده فخافوا من تهديه لهم وفروا هاربين ، فهل مثله يوصف بالجبن وعدم الشجاعة؟

وعندما تأمرت قريش على قتله ، وجاءه جبريل عليه السلام ، وأخبره بذلك ، وبأمر الله له بالهجرة إلى المدينة ، فخرج من داره ، وكان المتآمرون واقفون عند بابه ، وهم كثر لقتله وضربه ضربة رجل واحد فتحداهم ، وخرج من داره غير مبال بتجمعاتهم ، فهل مثل هذا يوصف بالجبن وعدم الشجاعة الشخصية؟

¹ - سيرة ابن هشام. 2 / 390 . 391 ، ابن كثير البداية والنهاية. 3 / 112 ، 113.

² - د. الحاج. الظاهرة الاستشراقية . 3 / 168.

³ - تاريخ الطبري. 2 / 414 ، 415.

قيادته صلى الله عليه وسلم بنفسه سبعة وعشرين معركة خلال سبع سنين بعد هجرته إلى المدينة ، فقد خرج إلى معركة "ودان" ، وهي أول معركة قادها الرسول صلى الله عليه وسلم بنفسه في صفر من السنة الثانية للهجرة ، وكانت تبوك آخر حروبه في رجب من السنة الثامنة للهجرة ، وقد نشب القتال بين المسلمين الذين بقيادته ، وبين المشركين أو اليهود بتسع معارك ، وهي بدر ، وأحد ، والخندق ، وقريظة ، والمصطلق ، وخيبر ، وفتح مكة ، وحنين ، والطائف ، بينما فر المشركون في باقي الحروب بدون قتال، وقد أثبت في هذه المعارك شجاعة نادرة:

قرار قبوله معركة بدر الكبرى، وهي أول معركة حاسمة خاضها المسلمون، شجاعة نادرة لأن قواته كانت تمثل ثلث قوات قريش، وفشل المسلمين فيها يعني القضاء على الإسلام ، وقد نزل في يوم بدر الكبرى ليباشر القتال بنفسه ، وفي ذلك يقول علي بن أبي طالب "إنا كنا إذا حمى البأس ، واحمرت الحدق ، اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه ، وقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وهو أقربنا إلى العدو ، وكان أشد الناس يومئذ بأساً"¹.

صموده صلى الله عليه وسلم أمام عشرة آلاف من الأحزاب في يوم الخندق شجاعة نادرة أيضا خاصة بعد نكث اليهود عهدهم فأصبح الخطر يهدد قوات المسلمين من داخل المدينة وخارجها.

¹ - تاريخ الطبري. 36 / 3.

ولو لم يصمد الرسول صلى الله عليه وسلم مع عشرة فقط من أصحابه يوم حنين لاستطاعت هوازن سقيف أن تبديد المسلمين¹، وقد رآه الناس على بغله البيضاء وهو يقول: "أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب، فلم ير المسلمون يومئذ أشجع منه"².

ناهيك على شجاعته في أحد . التي أقر بها وليم موير . بعدما ترك الرماة المسلمون أماكنهم، فتفرق الناس إلا الرسول صلى الله عليه وسلم وشيع بعضهم أنه مات، فتحطمت روح المسلمين المعنوية.

وفي وسط المعمة صمد الرسول صلى الله عليه وسلم أمام المشركين ، وحض أصحابه على الصبر والفداء ، وقد شاهده المسلمون وهو لم يتحرك شبرًا عن موضعه ، وهو رابض في وجه العدو ، ورآه المسلمون قائمًا يرمي عن قوسه أو يرمي بالحجر حتى تحاجز المحاربون³. إرادته صلى الله عليه وسلم القوية والثابتة ، وصموده تجاه التيار الجاف من المشركين واليهود ، حتى التحاقه بالرفيق الأعلى دليل على قوة إرادته وثباته وشجاعته ، أيضًا تحمله للإعراض والتكذيب والأذى والأخطار صابرًا وهجرته من بلده إلى بلد آخر، واستمرار كفاحه حتى أصبح الإسلام قوة كبرى دليل على ثباته وشجاعته⁴.

1 - خطّاب ، محمود شيت . (1960م) الرسول القائد . ص 302 . ط 2 . منشورات دار مكتبة الحياة . بيروت .

2 - سيرة ابن هشام . ج 4 ، الواقدي . المغازي . 3 / 902 ، تاريخ الطبري . 3 / 317 .

3 - الواقدي . المغازي . 1 / 240 .

4 - خطّاب . الرسول القائد . ص 303 .

كتبه وسفاراته التي أرسلها إلى أكبر أباطرة وقيصرة العالم آنذاك ،
ودعوتهم إلى الإسلام دليل على شجاعة ما تفوقها شجاعة ، وخروجه
لمحاربة الروم في تبوك أليست هذه شجاعة؟
والأمثلة كثيرة لا حصر لها على شجاعته صلى الله عليه وسلم ، فما
قاله وليم موير ينم عن حقه على الرسول صلى الله عليه وسلم وعلى
الإسلام ، وبعده عن الحقيقة والواقع ، مما يؤكد بعد هذا المستشرق عن
الحيمة والموضوعية والمنهجية العلمية.

خاتمة الباب الرابع

وبعد هذه الرحلة الطويلة التي قمنا بها مع أهم مستشركي المدرسة الإنجليزية منذ مطلع هذا القرن حتى السبعينات منه ، قرأنا خلالها ما كتبه عن السيرة النبوية العطرة في دورها المكي ، فتعرفنا على مواقفهم وآرائهم والمناهج التي طبقوها وساروا عليها ، والمصادر والروايات التي اعتمدها في كتاباتهم وبنوا عليها آراءهم ومواقفهم.

هذا ويمكن تلخيص مواقفهم من السيرة في الآتي:

أولاً: موقف المستشرقين الإنجليز من وضع مكة المكرمة قبيل مولده عليه الصلاة والسلام

لقد هدف المستشرقون من دراستهم لوضع مكة المكرمة . بصورة خاصة . قبيل مولد الرسول صلى الله عليه وسلم الآتي:

1. التشكيك في نسب الرسول صلى الله عليه وسلم ، حيث شكك موير وصول نسبه صلى الله عليه وسلم إلى سيدنا إسماعيل عليه السلام ، بينما زعم "مرجليوث" أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم مجهول الأب والأم وللتشكيك في انتساب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى سيدنا إسماعيل نفوا رحلة سيدنا إبراهيم إلى مكة وتركه ابنه إسماعيل رضيًا مع أمه هاجر إلى مكة بأمر من الله ، ونجد موير يرجع سبب إيقافه نسب الرسول صلى الله عليه وسلم عنه عدنان أنّ إلحاق نسبه صلى الله عليه وسلم بإسماعيل عليه السلام من وضع اليهود . وهي حجة واهية أثبت ضعفها ، كما بينت ما اتفق عليه النسابون وهو أن عدنان ينتهي نسبه إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، وإن كان هناك اختلاف فليس في انتساب عدنان إلى

إسماعيل عليه السلام ، وإنما في أسماء الآباء الذين يصلون إلى إسماعيل بعد عدنان ، كما بينت نسبه إلى إسماعيل من خلال نصوص وردت في التوراة.

2 - تركيز المستشرقين على أنّ هناك تأثيرات يهودية ومسيحية ووثنية على الإسلام ، وتقليل وات من شأن الحنيفية ، ومن تمسك قريش بعبادة الأصنام أيام البعثة المحمدية ، وإرجاع وات أصل التوحيد في الجزيرة العربية إلى التأثيرات اليهودية والمسيحية.

وقد بينت لنا الدراسة أنّه لا توجد جاليات يهودية في مكة المكرمة ، وأنّ وجود اليهود في مناطق يثرب وخيبر وما جاورهما ، وفي بلاد اليمن لم يكن له تأثير لأنّ اليهودية لم تجد قبولاً ولا انتشاراً في بلاد العرب ، لانغلاق اليهود على أنفسهم بسبب تعاليهم واعتبار أنفسهم شعب الله المختار فيريدون قصر دينهم عليهم ، وكذلك النصرانية ، التي كانت منتشرة بنجران وفي شمال الجزيرة العربية ، ولعقيدة التثليث رفضها العرب لأنهم لم يفهموها ، فأساس الديانتين اليهودية والمسيحية بعد تحريفهما خرج عن التوحيد ، وأصبحت اليهودية تقول بالتجسيم أو التجسيد والحلول والمسيحية تقوم على عقيدة التثليث ، فأصل التوحيد عند العرب يعود إلى الحنيفية ملة إبراهيم.

3. اعتبار بعضهم قصة أصحاب الفيل أسطورة مزيفة "وليم موير" بينما يرى جيوم أنّ قصة أصحاب الفيل كما وردت في القرآن أسطورة ، كما اعتبر وات أنّ سبب الحملة مادياً بحثاً وهو استعانة عبد المطلب بالأحباش ضد منافسيه في مكة ، كما اختلف وات مع جيوم في أسباب هلاك أبرهة

وجنده ، فبينما ذكر جيوم أن وباء الجدري هو الذي قضى عليهم ، يرى وات أنه الطاعون ، أما بودلي فقد ذهب بعيداً عن الأحداث وذكر أن عبد المطلب جهز جيشاً لمقابلة أبرهة ورد العدوان.

وموقفهم هذا يبين لنا محاولتهم تفسير الأحداث تفسيراً مادياً وإبعاد العامل الديني ، وذلك لعدم إعطاء الكعبة قدسيته وحرمتها ، لأنها بيت الله، والحادثة مثبتة في القرآن، ولا مجال لإنكارها أو التشكيك فيها.

4. محاولة بعضهم إثبات قلة الموارد المعيشية في مكة ثم المدينة ليرجعوا حروب الرسول صلى الله عليه وسلم والفتوحات الإسلامية فيما بعد إلى عوامل اقتصادية ، كما نجد في كتابات الفريد جيوم وتوينبي بل زعم توينبي ، أن سبب الفتوحات الإسلامية الانفجار السكاني الذي حدث بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم مرجعاً أسباب الهجرات من الجزيرة العربية التي قامت قبل الميلاد ، وكانت لذات السبب ، بينما نجد هاملتون جيب ووات قد خالفا جيوم وتوينبي فيما ذهبوا إليه.

5. يستشف من كتابات المستشرقين عن الوثنية قبل الإسلام محاولاتهم إصاق الوثنية بالرسول صلى الله عليه وسلم باعتباره أجداده وثنيين، بل صرح الفريد جيوم بهذا عندما أورد رواية نسبها لابن إسحاق عن عمرو بن زيد بن نفيل الذي نهى الرسول صلى الله عليه وسلم من أكل لحوم القرابين وعبادة الأوثان ، وهي رواية كما تبين لنا موضوعة ولا أساس لها وتتناقض تماماً عما أخرجه البخاري في صحيحه من حديث عبد الله بن عمر ، كما أنها تتناقض تماماً مع ما عرف عن النبي صلى الله عليه وسلم من عصمة له من جميع أمور الجاهلية ، فلم يسجد لصنم ولم يقدم قرباناً

له ، وهذه من صفاته صلى الله عليه وسلم في التوراة والإنجيل ، كما أنه لم يشرب خمر قط ، ولم يلعب ميسرًا، فكل أمور الجاهلية قد عصمه الله منها. إلا أنّ المستشرقين يحاولون إصاق الوثنية به ، فنجد بودلي أيضًا يجعل من سقاية ورفادة بني هاشم معنى آخر وهو حراسة أصنام الكعبة.

ثانيًا: موقفهم من البشارة ببني الإسلام في التوراة والإنجيل

لقد تجاهل المستشرقون هذه البشارات ومنها الواردة في سفر التكوين الإصحاح 21 آية 21 ، 49 : 10 ، وفي سفر التثنية 32 : 2 ، وفي سفر أشعيا 42 : 11 . 13 ، 21 : 13 . 17 ، 60 : 7 ، وسفر حجي 9 : 7 . 9، كما تجاهلوا أوصافه ومن أوصافه أنه أمين على الوحي، وأنه أمي.

ثالثًا: موقفهم من السيرة النبوية من المولد إلى المبعث ؛ إذ نجدهم:

1. شككوا في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم من المولد إلى المبعث ، فزعموا قلة المصادر والروايات عن سيرته صلى الله عليه وسلم في هذه الفترة مشككين في تاريخ مولده ، وفي اسمه ؛ إذ زعم "بودلي" أن اسمه قُثم هو أول ما تسمى به، كما شككوا في أمية الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد وردت أدلة قاطعة تثبت أمية الرسول صلى الله عليه وسلم من الكتاب والسنة ، والوقائع التاريخية وكذلك ما ورد في التوراة عن أميته صلى الله عليه وسلم .

2. أنكروا الخوارق كحادثة شق الصدر، واعتبروا بشارة الملائكة لأم النبي صلى الله عليه وسلم بقدمه قبل مولده من الخرافات.

هذا وحادثة شق الصدر قد أجمعت المصادر الإسلامية على صحتها ، والخوارق والمعجزات لا تخضع للتفسيرات العلمية لأنها مخالفة للسنن الكونية ؛ ولذا سميت بخوارق ومعجزات ، وعلى المؤمنين بالله في جميع الأديان التسليم بها ، لأنّ العقل البشري قاصر عن إدراكها.

3. الزعم بتأثر الرسول صلى الله عليه وسلم بالديانتين اليهودية والمسيحية لإلغاء أصالة الإسلام ، وذلك من خلال إيجادهم مبررات لذلك منها.

أ . سفره إلى الشام وهو طفل مع عمه أبي طالب ، وقصته مع الراهب بحيرا ، بل زعم بعضهم أنه سافر إلى مصر واليمن.

ب . تبنيه صلى الله عليه وسلم لزيد بن حارثة وهو صغير زاعمين أنه تأثر بهذا الطفل الصغير وسمع منه بعض التعاليم والأساطير المسيحية بحكم نشأته في أسرة مسيحية.

ج . جاريته بركة أم أيمن ؛ إذ زعم بودلي أنها أخبرت الرسول صلى الله عليه وسلم عن المسيحية.

د . تأثره بورقة بن نوفل.

هـ . تأثره صلى الله عليه وسلم بخطب قس بن ساعدة الأيادي التي كان يلقيها من فوق جملة في سوق عكاظ.

و . الزعم بأنّ السيدة خديجة رضي الله عنها ، قد قرأت الكتاب المقدس وأخبرت الرسول صلى الله عليه وسلم بما قرأته فيه.

هذا وقد دحضت هذه المزاعم جميعها من خلال الروايات الصحيحة فلقاؤه ببخيرا ، أورده الترمذي في جامعه عن طريق أبي موسى الأشعري ،

وهو أقوى طرق هذه القصة ، وقال عنه الترمذي حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وفي هذا الحديث بين أنّ اللقاء كان لقاء طعام بين بحيرا والقافلة القرشية ، وأنّ بحيرا بين علامات النبوة في محمد صلى الله عليه وسلم وحذر عمه أبو طالب من ما سيتعرض له هذا الطفل الصغير من أذى من الروم إذا علموا بحقيقته ، ولكن المستشرقين تركوا كل هذا ، وجاءوا من عندهم ، ومن خيالاتهم أنّه شرح لمحمد صلى الله عليه وسلم المسيحية ، وأنّ ما شرحه له علق بذهنه حتى أعلن أنّه نبي فاستقاد مما تعلمه وظهر هذا في دعوته ودينه.

كما بينت أنّ لقاء الرسول صلى الله عليه وسلم بورقة بن نوفل كان مرة واحدة عند نزول الوحي عليه ، وأنّ حديث ورقة لم يبين أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن يعلمه شيئاً عن المسيحية.

كما بينت لنا سيرة بركة أنّها لم تذكر شيئاً للرسول صلى الله عليه وسلم عن المسيحية ، وأمّا عن زيد بن حارثة فتعقيدات الديانة المسيحية لا يفهمها طفل صغير ، فكيف يشرحها ويعلمها ، أما عن إطلاع السيدة خديجة على الكتاب المقدس ، فلم تكن آنذاك له ترجمة عربية ، إذ كانت أول ترجمة له في القرن الحادي عشر الميلادي.

فإن كان هناك تشابه بين الإسلام اليهودية والمسيحية فلكونهم جميعاً أديان سماوية مصدرها واحد هم الله جل شأنه ، وما عرفه الرسول صلى الله عليه وسلم عن هاتين الديانتين فمن الوحي الإلهي.

3. اعتبر بعضهم ، مثل "وات" زواج الرسول صلى الله عليه وسلم من السيدة خديجة رضي الله عنها أنّه زواج مصلحة ، وأنّه لم يكن أمامه صلى

الله عليه وسلم وسيلة لكسب رزقه ، وشق طريقه للوصول إلى النجاح إلا من الزواج من هذه الأرملة الغنية ، وإن كانت تكبره بخمسة عشر عامًا ، كما نجدهم أقرؤا بالروايات الضعيفة وتحويرها ، في قصة زواج الرسول صلى الله عليه وسلم من السيدة خديجة "وليم موير . بودلي" والتي أخذها من شبرنجر وفيل ، وهي رواية ضعيفة من مراسيل الزهري ، وزعموا أن السيدة خديجة أسكرت أبيها ليوافق على زواجها من محمد صلى الله عليه وسلم وهو غائب عن وعيه لأنه رافض لزواجها منه ، وهذا خلاف رواية الزهري التي أوردها البيهقي في دلائله وهي أن أختها ذهبت لأبيها لتخبره بخطبة محمد لخديجة وكان سكرانًا ووافق على هذا الزواج ، وعندما أفاق رفضه إلى آخر الرواية.

4. لقد ركز المستشرقون في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم قبل البعثة النبوية على تأثيرات الحرب والسياسة في المجتمع المكي على نبوته المستقبلية، وأشاروا بالخصوص إلى حلف الفضول الذي حضره الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومشاركته في حرب الفجار.

رابعًا: موقفهم من السيرة من البعثة إلى الهجرة

وقد ركزوا في هذه الفترة على الآتي:

1. الوحي وكيفية نزوله وتطوره لدى الرسول صلى الله عليه وسلم - حسب زعمهم - وأجمعوا على إنكاره باستثناء آبري ، مع تحفظ توماس أرنولد ، مع أنه أنكره ضمناً بقوله عن محمد صلى الله عليه وسلم مؤسس الإسلام ، وأن القرآن ليس منزلًا من الله على الرسول صلى الله عليه وسلم

، ولكنه عبارة عن رؤى وأحلام "كما زعم جيوم" ، أو عبارة عن خيال خلاق ، كان في اللاشعور يردده محمد ، وهو يعتقد جازماً أنه يأتي إليه من خارج ذاته ، وقد عبر عنه "وات" باللاوعي الجماعي ، ولقد أرجعوا الوحي إلى ظروف داخلية وخارجية خاصة بطموحات النبي صلى الله عليه وسلم الشخصية ، وعند حديثهم عن كيفية نزول الوحي للمرة الأولى يزعم "وات" أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم قال: "إنّ الذي رآه هو الله عز وجل ، وليس جبريل عليه السلام مستنداً في ذلك على رواية مرفوعة إلى عائشة رضي الله عنها عن الزهري ، عن عروة بن الزبير ، وقد فسرها وات خطأ وفق هواه ، مستبعداً جميع الروايات التي فيها ذكر الملك بما فيها رواية للزهري ، وأيد دعواه الباطلة بأنّه لم يرد ذكر لجبريل عليه السلام في القرآن إلا في الفترة المدنية ، ثم يعود ويذكر أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم تراجع عندما علم من أهل الكتاب فيما بعد أنّ الله لا يرى ، فغير رأيه ، وقال أنّه جبريل ، وقوله هذا بحد ذاته يناقض زعمه بأنّ الرسول صلى الله عليه وسلم على علم باليهودية والمسيحية ، بل يثبت النقيض ، وهذا يبين لنا كيف أنّ المستشرقين يتلاعبون بالروايات والأقاويل لإثبات ما يريدون إثباته مناقضين أنفسهم بأنفسهم.

أما عن مصدر الوحي في الفترة المكية ، فلقد زعم "وات" أنّ مصدره "الخيال الخلاق" و"اللاوعي الجماعي" موضحاً ذلك بأنّ للرسول صلى الله عليه وسلم شخصيتين ، إحداهما واعية شاعرة ، والأخرى لا واعية ولا شاعرة ، أي أنّ لمحمد ازدواج الشعور واللاشعور.

كما أجمع المستشرقون في المدرسة الإنجليزية ، على أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم قد تعلم اليهودية والمسيحية ، وأنّ الإسلام مزيج من المسيحية واليهودية والوثنية ، وأصروا أيضاً على إنكار أمية الرسول صلى الله عليه وسلم ، إلا أنّ "وات" في النهاية أقر بأنّ الرسول صلى الله عليه وسلم لم يقرأ قط كتاباً.

عند الحديث عن فترة انقطاع الوحي

لقد استند كل من الفريد جيوم ووات وبودلي على رواية الزهري التي أوضح فيها الأزمة التي تعرض لها الرسول صلى الله عليه وسلم لانقطاع الوحي، إنّه كاد أن يتردى من شواهد الجبال ، وهذه الرواية من مراسيل الزهري، وهي ضعيفة ، وتتناقض مع عصمة النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم أنّه توجد رواية ساقها البخاري في صحيحه عن الزهري عن فترة انقطاع الوحي ، ولم يرد فيها ذكر لمحاولة التردي من شواهد الجبال، مما يؤكد ضعف الرواية الأولى ، ولكن المستشرقين لهوى في نفوسهم أخذوا بتلك الرواية الضعيفة وتركوا الرواية الصحيحة ، ولو كانوا موضوعيين لذكروا الإثنين ، وبينوا ضعف الضعيفة ، أو أوردوا الاثنين بدون تعليق، كما أورد البخاري حديثاً آخر عن فترة انقطاع الوحي ، ولم يرد فيه محاولة الرسول صلى الله عليه وسلم الانتحار.

لقد استغل المستشرقون ومنهم وليم موير وموجليوث والفريد جيوم ووات وبودلي ما أخرج ابن سعد والطبري من روايات عن ما سمي بقصة الغرائيق ، فتمسكوا بها ذلك ، لأنهم وجدوا فيها ما يوافق أهواءهم وما يريدون إثباته وبنوا عليها بعض الأكاذيب. وقد بيّنتُ بطلان القصة من

حيث الإسناد والتمن وتعارضها بما جاء في القرآن الكريم ، وكذلك بما جاء في السنة المشرفة، وبطلانها أيضًا من حيث اللغة ، ومن حيث الوقائع والأحداث التاريخية ، واضطراب رواياتها ، وكذلك بطلانها من جهة العقل والنظر، وقد بينت مواقف أصحاب كتاب الصحاح الستة والمفسرين ، كتاب السيرة منها ، وتجاهل بعضهم لها وعدم ذكرها لعدم صحتها ، وإيراد بعضهم ما يدحضها ويبطلها مع رفضهم لها ، وأنها من وضع الزنادقة. عند حديثهم عن حالة الرسول صلى الله عليه وسلم عن نزول الوحي عليه ردد مرجليوث ما رده الجاهليون والمستشرقون في العصور الوسطى فوصف حالته بالصرع.

2. اضطهاد قريش للمسلمين والهجرة إلى الحبشة

أ . عند حديث المستشرقين عن المعارضة القرشية نجد "مرجليوث ووات وبرنارد لويس" قللوا من شأن اضطهاد وتعذيب المسلمين زاعمين أنّ الاضطهاد كان خفيفًا، وأنّ التعذيب الجسدي كان قاصرًا على العبيد والمستضعفين ، وأنّ الرسول صلى الله عليه وسلم لم يلحقه أذى جسدي. وعند تنفيذ هذه المزاعم ثبت لنا من خلال الروايات الصحيحة ما تعرض له الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعبد الله بن مسعود ، وعثمان بن مظعون ، ومصعب بن عمير ، وغيرهم من أذى وتعذيب جسدي إضافة إلى العبيد والموالي ، وما تعرض له بنو هشام من مقاطعة وتجويع على مدى ثلاث سنوات في شعب أبي طالب. ب . عند حديثهم عن أسباب الهجرة إلى الحبشة أبعثوا العامل الديني، وهو الفرار بدينهم خوفًا من الفتنة لشدة الاضطهاد والتعذيب الذين

تعرضوا لهما ، وأرجعها بعضهم إلى عوامل سياسية واقتصادية ، وإن كان
وات قد افترض - كعادته - . عدة افتراضات منها طلب الرسول صلى الله
عليه وسلم من نجاشي الحبشة مساعدة عسكرية ضد كفار قريش ، وزعمه
أيضاً وجود انقسام في صفوف المسلمين لمعارضتهم لسياسة أبي بكر ، وأن
الرسول صلى الله عليه وسلم أمر المخالفين لأبي بكر بالهجرة إلى الحبشة
، أو لهدف ممارسة التجارة في الحبشة ، وقد دَحَّضْتُ كل هذه الافتراضات
من خلال الوقائع التاريخية التي تؤيدها الروايات الصحيحة ، منها خروج
أبي بكر مهاجراً إلى الحبشة بعد أذن الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك ،
ثم رده "من الدغنة" سيد الأحابيش وأدخله في جواره. وعودة عثمان بن
مظعون من الحبشة "وهو زعيم معارضي أبي بكر على حد زعم وات"
عندما علم بإسلام كفار قريش ، ودخل مكة في جوار الوليد بن المغيرة،
وغيرهما من الأدلة.

ج . لقد شكك بعض المستشرقين في عدد الهجرات إلى الحبشة
"باستثناء موير وبودلي" وقد قصرهما وات على هجرة واحدة مستنداً على ما
كتبه كايثاني أنها لم تكتب صريحة في سيرة ابن هشام وتاريخ الطبري ،
وعند التحقق في مدى صحة هذه الزعم تبين بطلانه ، فهناك إشارات
صريحة واضحة في سيرة ابن هشام ، وفي تاريخ الطبري إلى الهجرتين
بقولهما "الهجرة الأولى إلى الحبشة" ، وهذا يعني أنهما مدركان أن هناك
هجرة ثانية ، إضافة إلى أن ابن إسحاق ذكر دوافع الهجرة الثانية إلى
الحبشة في السير والمغازي ، وكذلك ابن سعد فقد فصل في الحديث عن
الهجرة الثانية للحبشة ، وكذلك ورد في صحيح البخاري عن الهجرتين

للحبشة ، وقد ذكرهما ابن القيم في زاد المعاد ، وابن سيد الناس ، والذهبي في سيرتهما ، وابن كثير في بدايته ونهايته.

3. لقد تجاهل بعض المستشرقين **حادثة الإسراء والمعراج** وهم توماس أرنولد وهاملتون جيب ووات وبرنارد لويس وبودلي ، فلم يتطرقوا إليها ، بينما تعرض لها موير وجيوم ، واعتبرهما موير من نسيج الخيال ، أمّا جيوم فلقد وصفها بأنها مختلقة ، وأنها مأخوذة من التوراة ، وقد بينت ثبوت الإسراء والمعراج في القرآن الكريم والسنة المشرفة ، وكتب التفسير والسيرة ، وكذلك من كتاب العهد القديم من خلال سفر دانيال وسفر ملاخي ، وبيّنت ما أجمع عليه العلماء أنّ الإسراء والمعراج كانا في اليقظة وبالروح والجسد.

وعمومًا فإنّ جميع المستشرقين أنكروا معجزات النبي صلى الله عليه وسلم حتى زعم وات أنّ النبي صلى الله عليه وسلم لم يأت لقريش بمعجزات تجعلهم يصدقونه ، متجاهلاً معجزات الوحي والإسراء والمعراج وانشقاق القمر ، كما نجده يخالف جيوم من حيث المعجزات ؛ إذ يرى جيوم أنّ الأنبياء ليسوا بحاجة إلى معجزات.

4. لقد تجاهل معظم مستشقي المدرسة الإنجليزية إسلام الجن ، وأنكرها من تطرق إليها منهم "وليم موير" أو شكك فيها "الفريد جيوم" ، وقد ثبت بالقرآن الكريم صحة هذه الحادثة في سورة الجن ، وذلك لأنّ الرسول صلى الله عليه وسلم بعث لأمة الثقلين الجن والإنس.

5. نلاحظ أنّ المستشرقين عند حديثهم عن أثر وفاة السيدة خديجة رضي الله عنها ، وعمه أبي طالب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

وما عاناه من حزن وأسى وما لاقاه من شدة واضطهاد ، ومما اضطره الأمر إلى خروجه إلى الطائف ويعرض نفسه على القبائل ، وما لاقاه من صد ورفض وأذى ، فقد اكتفوا - على غير عادتهم - بالسرد التاريخي ، ومن إثارة الشكوك التي دأبوا عليها إلا أنّ وات يرى أنّ زيارة العباس للعقبة صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم هو اختراع محض استخدمته الدعاية العباسية ، بينما يثبتها توماس أرنولد ، كما ينفي وات حدوث اضطهاد من قبل قريش للرسول صلى الله عليه وسلم واصفًا دوافع الهجرة إلى يثرب بأنها ترقب مستقبل أفضل فيها ، وليس هرباً من الاضطهاد ، ولم يورد تأمر قريش على قتله صلى الله عليه وسلم والذي كان السبب المباشر للهجرة إلى المدينة ، وقد انفرد توماس أرنولد بذكر هذه المؤامرة إلا أنّه لم يذكر أنّ جبريل عليه السلام هو الذي أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم بأمر هذه المؤامرة.

6. زعم وليم موير أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم يفتقر إلى الشجاعة الشخصية ، وأنّه كان شجاعاً في غزوة أحد على غير عادته ، وقد دحضت هذه المزاعم بأدلة من خلال الوقائع والأحداث التاريخية.

مصادر المستشرقين الإنجليز في دراستهم للسيرة النبوية

يمكن أن أوضح مواقفهم من مصادر السيرة النبوية العطرة في النقاط

التالية:

1. رغم أنّ برنارد لويس قد أقر بأنّ القرآن الكريم هو المصدر الذي لا شبهة فيه عن حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنّه مجموعة من

الأقوال التي بلغها الله إلا أن جميع المستشرقين أنكروا جميع ما جاء في القرآن الكريم عن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وعن الوحي ، وعن أمية الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعن الإسراء والمعراج وانشقاق القمر ، وإسلام الجن ، وقصة أصحاب الفيل ، وكذلك رحلة إبراهيم عليه السلام إلى مكة وبناءه الكعبة مع إسماعيل وغيرهما كثير .

2. لقد أجمع المستشرقون على التشكيك في الروايات الإسلامية وكتب الصحاح الستة.

3. لقد كشفت لنا هذه الدراسة عند التحقيق في الروايات التي أوردها المستشرقون وتطبيق علم الجرح والتعديل على رواياتها أن المستشرقين الإنجليز قد اعتمدوا على الروايات الضعيفة والشاذة ، والموضوعة لتؤيد ما يثيرونه من شبهات والأمثلة كثيرة منها:

أ . اعتماد وليم موير لرواية الواقي الذي يوقف فيها نسبه صلى الله عليه وسلم عند عدنان مدعيًا أن نسبه لليهود من وضع اليهود ، والواقدي - كما مر بنا - متروك رغم سعة علمه، كما قال عنه ابن حجر في التقريب .
ب . اعتماد الفريد جيوم على رواية موضوعة نسبها لابن إسحاق ، وأنها محفوظة لم تنتشر ، ولم يبين أين وجد ليلصق بالرسول صلى الله عليه وسلم الوثنية ، وهي رواية لا أصل لها ولا سند، واعتبرها أصح رواية عن الرسول صلى الله عليه وسلم، قبل البعثة.

ج . استناد الفريد جيوم ووات وبودلي على بلاغ الزهري عن فترة انقطاع الوحي ، وهي محاولته صلى الله عليه وسلم التردي من شواهد الجبال ، مع وجود رواية أخرى للزهري عن انقطاع الوحي ، وليس فيها

ذكر لمحاولة الانتحار مع وجود روايات أخرى صحيحة تثبت أنّ محاولة الانتحار كانت زيادة منكرة ، إذ تركوا ما ساقه البخاري في صحيحه من رواية عن الزهري عن نفس الحادثة وليس فيها ذكر لمحاولة التردّي .

د . وكذلك في قصة الغرانيق فقد استندوا على روايات ابن سعد ، وروايات الطبري ، وقد ثبت لدينا ضعفها جميعها من حيث الإسناد والمتن وتاريخياً ولغوياً ، مع اختلاف رواياتها ، وقد بين علماء الحديث والتفسير والسيرة بطلانها ، وأنها من وضع الزنادقة ، ولكن المستشرقين تجاهلوا كل هذا ، كما تجاهلوا ما ورد في صحيح البخاري عن أصل القصة بأنّه صلى الله عليه وسلم سجد بالنجم ، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس ، ففسح الوضّاعون من الزنادقة حول هذه الحادثة قصة الغرانيق التي لا تتفق مع جوهر الإسلام وأصل عقيدته وأساسها .

4. لقد كشفت لنا أيضاً ا هذه الدراسة أنّ المصادر الأساسية المعتمدة لدى المستشرقين الإنجليز في كتاباتهم للسيرة النبوية هي المصادر الغربية ولا سيما كتابات كايثاني، وشبرنجر وفيل ، وفلهاوزن ونولدكه وغيرهم ، ولكنهم مع هذا إن وجدوا فيها ما يخالف أهواءهم تركوه ولم يأخذوا به ، والأمثلة على ذلك - مما مر بنا - الآتي:

. لقد استند وات على كتابات كايثاني ، ولكن عندما رفض كايثاني قصة الغرانيق بواقع الاستدلال التاريخي أهمل رفضه ، ولم يأخذ به في حين أخذ برأي كايثاني بأنّه لا توجد سوى هجرة واحدة للحبشة ، مع أنّ جميع المصادر الإسلامية الأساسية قد أشارت إلى هذه الهجرة، وبعضها بين أسبابها ، وحتى ابن هشام والطبري الذين زعم وات بناءً على تقرير

كايتاني ، أنّهما لم يشيرا إلى الهجرة الثانية ، مع أنّهما قد أشارا إليها بقولهما "الهجرة الأولى للحبشة" .

وهكذا نجد أنّ وات لم يأخذ برفض كائتاني لقصة الغرائيق ، لأنّها خالفت ما يريد إثباته بأنّ القرآن ليس من عند الله ، وأخذ برأي كائتاني في قصر هجرة الحبشة على هجرة واحدة لأنّه يوافق ما يريد إثباته ، وهو عدم وجود اضطهاد من قريش للمسلمين ، وأنّه لا توجد مبررات دينية للهجرة إلى الحبشة ، وكذلك الهجرة إلى المدينة ؛ إذ كانت هذه الهجرات لدوافع دينيوية محضة.

5. عدم ثبات المستشرقين على الأخذ من مصادر إسلامية بعينها ، فهم يبحثون عن الروايات الضعيفة والمرسلة والموضوعة عن ابن إسحاق وابن هشام ، وابن سعد ، والواقدي ، والطبري ، فيأخذونها ويتركون الصحيح منها فمثلاً:

. أخذوا برواية ابن سعد عن قصة الغرائيق ، ولكنهم لم يأخذوا بروايته عن الهجرة الثانية للحبشة ، أيضاً بالنسبة لابن هشام فإنّ وات يستدل بعدم وجود هجرة ثانية للحبشة بأنّ لم تكن هناك إشارات صريحة عنها في سيرة ابن هشام ، وما دام ابن هشام مهما له ، فلماذا لم يأخذ بما ذكره عن سبب عودة المهاجرين من الحبشة بعدما سمعوا بإسلام كفار قريش؟.

6. لقد أخذ بودلي برواية عن الإمامية الشيعية التي تقول بإمامة علي رضي الله عنه بعد النبي صلى الله عليه وسلم.

ج . مناهج مستشقي المدرسة الإنجليزية في كتاباتهم عن السيرة النبوية

من خلال قراءتنا لكتابات كبار مستشقي المدرسة الإنجليزية في

السيرة النبوية نجد أنّ المناهج التي اتبعوها يمكن تلخيصها في الآتي:

1. إجماعهم على تطبيق منهج التفسير المادي للتاريخ . مع أنّهم يهود

ومسيحيين ، فأنكروا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنكروا جميع

المعجزات والخوارق ، وفسّروا الأحداث تفسيراً مادياً ، وأرجعوها إلى عوامل

مادية دنيوية من ذلك .

- إنكارهم أنّ الوحي من عند الله ، وأنّ مصدر الوحي الخيال الخلاق

لدى الرسول صلى الله عليه وسلم .

- تفسيرهم لقصة أصحاب الفيل بأنّ عبد المطلب استعان بأبرهة ضد

منافسيه واعتبروا ما جاء في القرآن الكريم عنها أسطورة .

- إرجاعهم أسباب الهجرة إلى الحبشة ثم إلى المدينة إلى أسباب

دنيوية .

- إرجاع الحروب والفتوحات الإسلامية إلى عوامل اقتصادية

وسكانية .

3. إجماعهم على تطبيق منهج الشك الديكارتى ، فشككوا في تاريخ مولد

الرسول صلى الله عليه وسلم ، واسمه ، ونسبه ، بل وفي أبويه ، وفي

أميته ، وفي جميع أحداث سيرته من المولد إلى المبعث ، وقد أخذوا

بالخبر الضعيف فيما حكموا بموجبه ، واستعانوا بالشاذ والغريب وقدموه

على المعروف ، واستعانوا بالشاذ ولو كان متأخراً ، أو كان من النوع

الذي استغربه النقاد وأشاروا إلى شذوذه ، وتعمدوا ذلك لأنّ هذا الشاذ هو الأداة الوحيدة في إثارة الشك¹

3. **منهج الإسقاط في كتاباتهم عن القرآن الكريم** ، وعن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم في مرحلة الطفولة ؛ إذ نجدهم يزعمون أنّ بعض الآيات أضيفت إلى القرآن عند جمعه ، وذلك إسقاطاً منهم لما تعرض له كل من التوراة والإنجيل من تحريف وإضافات.. الخ ، كما نجدهم أجمعوا على أنّ طفولة محمد صلى الله عليه وسلم غامضة ، وأنّ الأخبار التي وصلتهم عنها قليلة وغير مؤكدة ، إسقاطاً لتلك الفترة الغامضة في حياة المسيح منذ طفولته حتى بلغ الثلاثين من عمره.

4. **المنهج الفرضي والمبالغة فيه** ، وقد جرهم هذا إلى افتراض وقائع أو استنتاجات ضعيفة قد لا تدعمها حقائق السيرة، ووقائعها التاريخية . بل إنّه قد يؤكد صدق رواية ضعيفة أو واقعة دخيلة ليس لها ما يؤيدها²، ومن أكثر المستشرقين الذين تبنوا هذا المنهج وأسرفوا في استخدامه مونتجمري وات ، فقد غالى في افتراضاته التي لا تستند على وقائع تاريخية وأوجب تصديقها منها:

. قوله بان عبد المطلب استعان بالأحباش ضد منافسيه فكانت حملة أبرهة على مكة.

¹ - خليل ، د. عماد الدين . المستشرقون والسيرة النبوية. بحث مقارنة في منهج المستشرق البريطاني المعاصر مونتجمري وات . ضمن بحوث مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية. 1 / 132. مكتبة التربية العربي لدول الخليج.
² - المرجع السابق.

. اعتماده في كيفية نزول الوحي على رواية واحدة فقط للزهري عن بدء الوحي ، ولم يأت فيها تصريح بذكر "الملك" الذي أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم فتمسك بهذه الرواية ، وكأنها الوحيدة مع أنه توجد روايتان أخريان للزهري ، وجاء فيهما ذكر الملك ، وروايات أخرى في صحيح البخاري وسيرة ابن هشام وحمل تلك الرواية فوق طاقتها وحرف في ترجمته للحديث معرّفًا كلمة عرش بإضافة "ال" ليجعلها تعني "العرش" ، وذلك ليؤيد ما ذهب إليه بأن الرسول صلى الله عليه وسلم قال طبقًا لهذه الرواية أن الذي رآه هو الله ، ولكن عندما علم فيما بعد من أهل الكتاب أن الله لا يرى ، غير قوله ، وقال إنه جبريل.

. افتراضه صحة قصة الغرائق، وقد غالى في توسيع دائرة هذا الافتراض فيبني على عدد من الآيات التي تدعو إلى التوحيد ورفض الشرك كقوله تعالى ﴿ قُلْ أَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرُدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى انْتَظِرْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأَمْرًا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾¹.

فلقد بنى على هذه الآية هذه النتيجة التي يطرحها بصيغة التأكيد: "والاعتقاد بأن محمدًا عانى من إغراء التسوية مدة طويلة"².
. افتراض وات أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن أميًا، وأنّه كان يقرأ ويكتب ، ففسر قوله "ما أقرأ" عندما طلب مه جبريل أكثر من مرة

1 - الأنعام: 71.

2 - د. خليل. مرجع سابق . 1 / 163.

"القراءة" في قوله "إقرأ"، ففسرها وات بمعنى "ماذا أقرأ؟"، "ماذا أتلو؟"، وبنى على تفسيره الخاطئ أنه كان يعرف القراءة ، ولهذا سأل ماذا يقرأ؟ متجاهلاً ما جاء في رواية البخاري في صحيحه ، وهي رواية صحيحة عبارة "ما أنا بقارئ" ، وما هنا للنفي ، وليس للاستفهام والتقدير لست بقارئ البتة. وبعد جهد جهيد ولفة طويلة عاد وات وأقر بأنّ محمداً صلى الله عليه وسلم لم يقرأ البتة أي كتاب.

. افتراضهم عدة افتراضات عن أسباب هجرة المسلمين إلى الحبشة ، وبنى عليها نتائج اعتبرها حقائق تاريخية ، ومن ضمن الأسباب التي افترضها ولا يوجد سند تاريخي يؤيدها ، افتراض أنّ هناك انقسامًا في صفوف المسلمين ومعارضة لسياسة أبي بكر فأمر الرسول صلى الله عليه وسلم المعارضين لأبي بكر وعلى رأسهم عثمان بن مظعون بالهجرة إلى الحبشة تفاديًا لهذا الانقسام.

5. اتباعهم منهج التبييت لفكرة مسبقة: فهم يبيتون لفكرة مسبقة ، ثم يبحثون عن وقائع في التاريخ ، وينقلون الروايات الضعيفة والشاذة والموضوعة التي تثبت ما هم مبيتون إليه ، وأحيانًا نجدهم يغيرون في الرواية ليجعلوها توافق ما يريدونه ، والأمثلة كثيرة على ذلك منها:

. استغلال الفريد جيوم ما ورد في روايات ضعيفة عن لقاء الرسول صلى الله عليه وسلم بزيد بن عمرو بن نفيل بالصدفة ، وقدم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وزيد بن عمرو طعامًا ، فقال زيد: لا يأكل لحوم القرابين ، ولأنّ جيوم بيّت في نفسه أن يثبت أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم كان وثنيًا ويقرب القرابين للأوثان ويأكل لحومها وهذه الصفات لا

تتفق مع ما جاء عنه صلى الله عليه وسلم من صفات منها أنّه لا يأكل القرابين ، فهو يريد أن يثبت عكس هذه الصفة ، فأخذ تلك الروايات الضعيفة ، وأضاف إليها ما ليس فيها ونسبها لابن إسحاق ، وقال إنّها في مخطوطة لم تنشر، ولم يبين أين هي هذه المخطوطة ، وقال عن هذه الرواية إنّها أصدق ما كتب عن محمد - صلى الله عليه وسلم - قبل بعثته.

. استغلال المستشرقين رحلة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الشام وهو صغير مع عمه أبي طالب ، ولقاؤه في الطريق ببحيرا لرد من خلال هذا اللقاء الإسلام إلى أصول يهودية ونصرانية ، فأضافوا إلى هذه الحادثة ما لم يرد في الروايات الإسلامية ، وكذلك استغلوا تبني الرسول صلى الله عليه وسلم لزيد بن حارثة وهو طفل صغير ، لأنّه تربى من قبل في أحضان أسرة مسيحية ، بل استغلوا معرفة ورقة بن نوفل بالكتاب المقدس وذهاب الرسول صلى الله عليه وسلم مع السيدة خديجة إلى ورقة إثر نزول الوحي على الرسول لأول مرة ليعرفوا منه دلائل ما حدث ، استغلوا هذه الحادثة ، وزعموا أنّ ورقة علم الرسول صلى الله عليه وسلم اليهودية والمسيحية ، واستغلوا غيرها من الأحداث وبنوا عليها ما لم يحدث ، لأنّهم بيتوا في أنفسهم أن يردوا الإسلام إلى معطيات يهودية ونصرانية ، بل زعموا أنّ في مكة جالية يهودية وقد ثبت لنا عدم وجود هذه الجالية في مكة ، وإلا لماذا أرسل كفار قريش وفدًا إلى يثرب ليسألوا يهود المدينة عن الرسول صلى الله عليه وسلم.

. أرادوا أن يقولوا إنّ الوحي المنزل على محمد ليس من عند الله ، فاستغلوا الروايات الضعيفة التي أوردها ابن سعد والطبري عن قصة الغرانيق ، وقالوا من خلالها ما يريدون قوله.

أرادوا أن يقولوا إنّ محمدًا ضعيف الإيمان ، وإنّهُ لا يختلف عن أي بشر، وإنّهُ غير معصوم، فالتقطوا تلك الرواية الضعيفة المرسلة للزهري التي جاء فيها أنّه عندما انقطع عنه الوحي همّ أن يلقي بنفسه من أعالي الجبال تاركين روايتان أخريان للزهري لم يرد فيهما ذكر لتلك العبارة ، ممّا يدل على أنّها زيادة منكرة خاصة ، وأنّ الرواة سيئو الحفظ ، ولكنهم لم يعبأوا بتلك الروايات ، وتمسكوا بتلابيب الرواية الضعيفة لأنّها تثبت ما يريدون قوله.

6. النفي الكيفي: وهذا قاد المستشرقين إلى تنفيذ عملية نفي واسع النطاق لمساحات من حقائق السيرة المتعارف عليها ، كنفي حادثة شق الصدر ، وأنّ الوحي مبلغ من عند الله ، والإسراء والمعراج ، وانشقاق القمر ، وشدة الاضطهاد والتعذيب من قبل قريش على المسلمين ، ووجود هجرتين إلى الحبشة ، وتأمّر قريش على قتل الرسول صلى الله عليه وسلم ليلة هجرته إلى المدينة ، كما نجد موير ينفى بشدة قتل ياسر وسمية رضي الله عنهما من شدة التعذيب.

7. منهج التفسير النفسي

لقد استخدم المستشرقون التفسير النفسي في تفسيرهم لبعض الأحداث في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ إذ نجدهم ركزوا على الآلام النفسية

التي قاساها الرسول صلى الله عليه وسلم بفقد أهله ليصلوا بها من خلال تحليلاتهم النفسية أنه أراد أن يعوض تلك الآلام إلى ادعاء النبوة ، وإلى تأسيس دين ودولة عظيمين ، كما نجدهم وصفوا حالة الرسول صلى الله عليه وسلم النفسية التي دعتهم إلى الزواج من سيدة تكبره بخمسة عشر عامًا إنّه كان نوعًا من التعويض عن فقد أمه في سن مبكرة.

هذه المناهج جميعها لا تستند إلى أسس وقواعد علمية ، فهي بعيدة كل البعد عن المنهج العلمي الذي ادعوا اتباعه ، فكان هناك خلل كبير فيما اتبعوه من مناهج في كتابتهم للسيرة النبوية: نزعة نقدية مبالغ فيها تصل إلى حد النفي الكيفي ، وإثارة الشك في بعض المسلمات ، تقابلها نزعة افتراضية تثبت بصيغ الجزم والتأكيد ما هو مشكوك بوقوعه أساسًا ، وإسقاط للتأثيرات البيئية المعاصرة ، وإعمال المنطق الوضعي في واقعة تكاد تستعصي على مقولات البيئية وتعليقات العقل الخالص.¹

هذه المناهج التي يقودها الهوى أوقعت المستشرقين في كثير من المتناقضات ، ودفعتهم - دون أن يدروا - إلى نفي ما يثبتونه وإثبات ما ينفونه ، بل الرواية ذاتها التي يستخدمونها لخدمة هدف من أهدافهم هي بحد ذاتها تثبت ما ينفونه وتنفي ما يثبتونه ، والأمثلة على ذلك كثيرة منها: - لقد أجمع المستشرقون على أنّ الوحي من خيال محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنّ القرآن من تأليفه ، ولكننا نجدهم - دون أن يقصدوا - أثبتوا أنّ الوحي من عند الله ، وأنّ جبريل مبلغ الوحي وذلك من خلال الآتي:

¹ - خليل ، د. عماد الدين . مرجع سابق . 1 / 193.

عند محاولة وات إثبات أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم ليس أُمي من خلال رواية بدء الوحي ، ومجيء جبريل عليه السلام للرسول صلى الله عليه وسلم وهو يتعبد في غار حراء ، وقوله للرسول صلى الله عليه وسلم "اقرأ" ، ورد الرسول صلى الله عليه وسلم "ما اقرأ" ، لقد أثبت وات - من خلال سياقه لهذه الرواية - أنّ جبريل مبلغ للوحي ، وأنّ الوحي ليس من خيال محمد صلى الله عليه وسلم.

ولأنّ وات أخطأ في التفسير والمنهج وجد نفسه قد أصطدم بحقائق لا يستطيع إثبات نفيها أو عكسها ، ووجد نفسه يدور في حلقة مفرغة ، فعاد وأقر بأنّ الرسول صلى الله عليه وسلم لم يقرأ كتابًا قط في حياته. إذن لم يكن هناك معنى ولا سبب لكل تلك التفسيرات والتعليقات والافتراضات.

. من خلال حديث المستشرقين عن فترة انقطاع الوحي نجدهم قد ثبتوا بزيادة منكرة في حديث ضعيف ، وهذه الزيادة تقول إنّهُ صلى الله عليه وسلم كاد أن يتردى من شواهد الجبال عندما انقطع عنه الوحي ، وفاتهم أنّ هذه الرواية تثبت أنّ الوحي ليس من صنع خيال محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنّ جبريل عليه السلام مبلغه الوحي عن الله عز وجل. وبإيرادهم لهذه الرواية أثبتوا ما سعوا إلى نفيه.

- من خلال حديث الغرانيق الذي أورده ابن سعد في طبقاته والطبري في تاريخه وتفسيره - والذي تمسك به المستشرقون - قد أثبتوا ما سعوا إلى نفيه ، أنّ جبريل مبلغ للوحي عن الله عز وجل ، وأنّ الرسول صلى الله عليه وسلم يعرض القرآن على جبريل للتوثق من صحة ما حفظه وبلغه للناس ، وكتبه لكتابة الوحي.

- لقد أجمع المستشرقون على إنكار نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وتجاهلوا ما جاء عنه من إشارات في كتابهم المقدس ، ولكن جريهم وراء كل ما يجدون فيه ذريعة لرد الإسلام إلى معطيات يهودية ونصرانية نجدهم التقطوا "بعدسة مكبرة" رواية عن لقاء الرسول صلى الله عليه وسلم - وهو طفل صغير في طريقه إلى الشام مع عمه أبي طالب - بالراهب بحيرا وحملوا الرواية فوق ما تحتمل ، وجعلوا بحيرا يشرح للنبي صلى الله عليه وسلم النصرانية .. الخ ، هذه المزاعم ، وفاتهم أنّ الرواية في سياقها تتضمن بأنّ محمدًا هو النبي المنتظر والنبي الخاتم ، وأنّ علامات النبوة تنطبق عليه ، وكما يبدو أنّ بصائرهم قد عمت عن حقيقة وأبعاد ما تتضمنه هذه الرواية.

وهذا يذكرنا بما وقع فيه وضاع التوراة عندما أرادوا قلب الحقائق وجعل إسحاق هو الذبيح وليس إسماعيل ، فلم ينتبهوا إلى عبارة "ابنك وحيدك" ، وغيروا الاسم فقط وجعلوه إسحاق بدلًا من إسماعيل ، فوقعوا في خطأ كشف تزيفهم ، لأنّ إسحاق كان الابن الثاني ، ولم يكن الوحيد ، إنّما كان إسماعيل هو الابن الأكبر ، وكانت رؤيا الذبح قبل مولد إسحاق لأنّ إسماعيل يكبر إسحاق بحوالي ثلاثة عشر عامًا.

إنّ محاولة نفي الحقائق ، ولا سيما في تاريخ الأديان وسير الأنبياء فاشلة وتكشف مزيفيها.

- محاولات وات التقليل من وطأة تعذيب قريش للمسلمين وقصره التعذيب الجسدي على العبيد والمستضعفين ، ونفيه لعروض قريش المغرية على الرسول صلى الله عليه وسلم لترك دعوته إلى الإسلام ، ورده عوامل

الهجرة إلى الحبشة إلى عوامل مادية ودنيوية ، وزعمه أنّ هناك انقسامًا في صفوف المسلمين ، ومعارضين لسياسة أبي بكر الخ ما ذكره وات بهذا الصدد ، نجد وات من خلال إيراده لقصة الغرانيق ، وتأكيدِه على صحتها ، قد ناقض نفسه وأثبت كل ما نفاه:

فقد أثبت أنّ هناك عروضًا مغرية قدمتها قريش للرسول صلى الله عليه وسلم من خلال حديثه عن مشروع التسوية بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبين كفار قريش.

أثبت - دون أن يدرك - أنّ سبب هجرة المسلمين إلى الحبشة هو الفرار بدينهم نتيجة ما تعرضوا له من تعذيب وفتنة عن دينهم ، وأثبت أيضًا أنّه لا توجد معارضة على سياسة أبي بكر من خلال حديثه عن أسباب عودة بعض المهاجرين من الحبشة إلى مكة ، عند سماعهم بإسلام أهل مكة وكان على رأس العائدين عثمان بن مظعون - كبير معارضي أبي بكر حسب رأي وات - ، فعودة المهاجرين إلى مكة بمجرد سماعهم عن إسلام أهل مكة دليل قاطع على أنّ سبب الهجرة قد زال بإسلام أهل مكة، وعودة عثمان بن مظعون في مقدمة العائدين دليل ينفي ما حاول وات إثباته من معارضة لسياسة أبي بكر، لأنّه لم يعلن عن تغيير سياسة أبي بكر الذي هاجر من أجلها عثمان بن مظعون ، ولكن التغيير الذي حدث هو إسلام أهل مكة ، والذي بموجبه عاد عثمان بن مظعون وبعض المهاجرين إلى مكة.

هذا ونجد وات قد خالف المنهج الذي وضعه لنفسه في كتابته للسيرة ، وذكر هذا المنهج في مقدمة كتابه "محمد في مكة".

فقد أعلن في مقدمة كتابه أنه لم يعرف أن القرآن الكريم هو كلام الله أم كلام محمد ؛ لذا فإنه لن يقول "قال تعالى" ولن يقول "قال محمد" ولكنه سوف يقول "قال القرآن" ، ولكن كل ما كتبه عن الوحي يشير ، بل يؤكد أنه يريد أن يقول أن القرآن من وضع محمد صلى الله عليه وسلم ، وذلك من خلال تعليقه لظاهرة الوحي أنها من خيال محمد الخلاق ، وأنه من اللاشعور ، ورده الإسلام وكثير من تعاليمه إلى معطيات يهودية ونصرانية ، وأخذ بالأحاديث الضعيفة والموضوعة والشاذة عن فترة انقطاع الوحي ، وقصة الغرانيق وغيرها كثير .

قوله إنَّ القرآن من المصادر الرئيسية لحياة محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو أهمل هذا المصدر ولم يأخذ منه ما جاء عن قصة أصحاب الفيل ، والإخبار بأن الرسول صلى الله عليه وسلم موحى إليه من عند الله وأنه ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾ والآيات كثيرة التي تدل على أن محمداً نبي الله وأنه نبي أمي ، كما أنه لم يأخذ بما جاء في القرآن عن انشقاق القمر والإسراء والمعراج وإسلام الجن .

وإشارته إلى كتب الحديث "كصحيح البخاري ومسنده أحمد بن حنبل" وقوله إنهما يحتويان على كثير من المواد المهمة بالنسبة للمؤرخ ، ولكنه من الناحية التطبيقية نجده لم يأخذ بأحاديث البخاري وأحمد بن حنبل وغيرهما ، ولكنه أخذ بكل ما هو ضعيف وشاذ مع وجود في صحيح البخاري خلاف ما أخذ به .

ومن هنا نجده قد خالف منهجه الذي ادعاه ، فهو يشير في مقدمته¹ عن المصادر إلى إمكان اعتماد الأحاديث الأولى كمصادر تتم المعطيات القرآنية في المساهمة لفهم تاريخ الفترة المكية ، إلا أنه ما يلبث بعد قليل أن ينقض هذه المقولة بالتشكيك في حجية الأحاديث ، فيقول: "إنني عملياً أقل تعلقاً بالحديث من أولئك الذين هم أكثر مني شكاً فيه" مع أنه ذكر من قبل موقفاً أكثر اعتدالاً من الحديث حين قال: "لما كنت أبحث في خلفية حياة محمد وفترة المكية ، فقد تقدمت في الفكرة القائلة بأن الأحاديث يجب أن تقبل عامةً ، وأن تؤخذ بحذر، وأن تصحح قد الإمكان في المسائل التي نشك فيها بوجود تلفيق مغرض ، ويجب ألا ترفض رفضاً باتاً إلا إذا وقع تناقض داخلي بينها، ونجده هنا خالف هذا القول، فرغم وجود تناقض واختلاف واضطراب في روايات قصة الغرانيق إلا أنه أخذ بها. كما نجد وات قد خالف أسس المنهج العلمي بتصريحه أنه لا يهتم كثيراً بالإسناد أو سلسلة الرواة، وقصره الاهتمام بهما على الدور المدني².

1 - د. خليل. مرجع سابق . 1 / 176 ، 177 ، وانظر : وات. محمد في مكة . ص 7 . 14.

2- أنظر : وات. محمد في مكة. ص 14.

